فن السعادة في الحياة

تأليف

أندريه موروا

ترجمة

أحمد فتحي

تقديم ومراجعة

د. رشاد عبد الحليم

الكتاب: فن السعادة في الحياة

الكاتب: أندريه موروا

ترجمة : أحمد فتحي

تقديم ومراجعة : د. رشاد عبد الحليم

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

موروا ، أندريه

فن السعادة في الحياة / أندريه موروا ، ترجمة : أحمد فتحي ، تقديم ومراجعة : د. رشاد عبد الحليم – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٢٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٦٦٩ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٩٣٤ / ٢٠١٨

فن السعادة في الحياة





مقدمة

هل الحياة فن، وتحتاج لمن يجيد التعامل مع هذا النوع من الفنون ؟

سؤال يتردد كثيرا عند الناس، لكن قبل ان نتحدث عن فن الحياة، لابد أن نعرف ما هو أولا ؟

إن تعريف فن الحياة ليس بالأمر الهين، بل إنه صعب جدا أن نتمكن من تحديد تعريف معين للتعامل مع الحياة بمفهومها الواسع، فالحياة بحر مفتوح لا آخر له، ويختلف المفهوم الفكري في رؤيتها من شخص لآخر.

وتتغير أساليب التعامل مع الحياة من جيل إلى آخر، غير أن كلمة فن تحمل معان كثيرة، وتطلق على كل عمل يقوم به الإنسان، وهذا يؤدي إلى اتساع دائرة مفهوم الفن، وكثرة استعمال الكلمة وانتشارها، وارتباطها بالعديد من الأمور التي نمارسها في واقعنا اليومي، لأن الفن هو التوأم للحب، ولا شك أن الحب هو أيضا فن من أصعب الفنون، لا يجيد ممارستة إلا انسان يعرف المعني الحقيقي للمشاعر الخفية ، ولفن الحب أركان كثيرة يجب أن يعرفها الإنسان، منها الإهتمام والمسئولية والاحترام والمعرفة؛ لأن معرفته لهذه الأركان ستحقق له السعادة الغائبة والمنشودة.

فالسعادة هي ذلك الحلم الذي نسعى جميعا لفهم أبجدياته وتحقيقه السعادة الحقيقية في رفع نشاطنا كما لا تستطيع أي قوة أن تفعل. فهل السعادة فطرية أم مكتسبة ؟

وهل تحققها يعني إمكانية إعادة ترتيب الحياة مرة أخري ؟

وأخيرا هل يمكن الاحتفاظ بها ؟

والسعادة من منظور الطب النفسي هي شعور نابع من داخل الإنسان فكل الخبرات في حياة الفرد تنعكس علي سماته النفسية ، والشخصية وينعكس ذلك بدوره علي المفهوم العام لطبيعة وجوده والسعادة مستحيلة بالنسبة لهؤلاء الذين اختاروا الحزن واليأس وفقدان الثقة واستسلموا تماما وضاعت إراداتهم.

فالإحساس بالحزن لمدة طويلة وفقدان الاحساس بالارتياح أو السعادة حتي لأشياء كانت تسعده من قبل كل هذا يتسبب في حدوث خلل في مزاج الفرد وشخصيته ، بل ويؤدي الأمر إلي اضطرابات في النشاط والنوم والتوتر العصبي وفقدان الاهتمام بالأشياء ، حينئذ يشعر هذا الفرد بأن الدنيا سوداء في عينيه ، والظروف النفسية الداخلية هي المحرك الأساسي لمدي تحقيق المفهوم من عدمه فقد تتهيأ الظروف الخارجية لشخص ويراها سببا من أسباب سعادته وقد يراها آخر سبب من أسباب التعاسة.

في هذا الكتاب سعى أندريه موروا، للبحث في مفهوم فن الحياة والسعادة، وقدرة الانسان على تحقيق السعادة على أرض الواقع، من دون أن تظل حلما بعيد المنال، أو مجرد لحظات عابرة في مسيرة حياة طويلة.

د. رشاد عبد الحليم

فن الحب

هل الحب فن، أم مجرد غريزة؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، ينبغي أن نسأل سؤالاً آخر: ما هو معنى كلمة "فن" ؟

يقول لنا "بيكون": إن الفن هو الإنسان، مضافاً إلى الطبيعة.

وعن طريق الاستشهاد بأمثلة قليلة بسيطة، يسهل إثبات أن هذا التعريف صحيح تماماً، فالطبيعة تمنح المصور "الخامة" التي تعينه على رسم لوحة، كالأشجار والزهر، والبحر، والكائنات الحية، والنور، والمصور يقوم بتنسيقها وتبسيطها حسبما يقتضيه إرضاء رغبات عقول الناس.

والطبيعة تمنح عناصر الرواية المسرحية، كالصرخات، والرغبات الملحة، وجرائم القتل الغامضة، والشاعر يتناول هذه المادة المختلطة فيستخلص منها رواية جميلة التسلسل يفهمها المتفرج ويتأثر بها.

والاعتراف بصحة هذا التعبير يؤدي إلى الاعتراف بوجود فن الحب، فالطبيعة في الحب، وفي كل شيء آخر تمنح المواد "الخامة" فحسب، وهي تقسم الكائنات الحية إلى جنسين، وتخلق ضرورة تناسل

الأنواع، والرغبة الجنسية، وهي غريزة نافعة في إرضاء تلك الضرورة، وفي الجمع بين الجنسين، غير أنه لو لم يكن العقل البشري قد تناول هذه المواد بالتشكيل والتنسيق على تعاقب العصور، لصارت غرامياتنا بسيطة وتافهة كغراميات الكلاب أو الخنازير.

وإذا نحن تأملنا غراميات الحيوان، ثم قرأنا رسالة غرامية رائعة، وضح لنا مدى البون الشاسع بين الطبيعة والفن.

منذ وقت طويل، سمعت قصة الكهل الذي كان يشتري كتاباً ليهديه إلى ابنته، فقال لبائعه في خجل: "أرجو أن يكون الكتاب خالياً من ذكر المسائل الجنسية" ، فأجابته البائعة بقولها: "لا يا سيدي، إنه قصة غرامية".

وهذه النادرة ذات مغزى واضح، وإن كانت بطبيعة الحال، ككل ما عداها من النوادر، لا تخلو من المبالغة في إظهار الحقيقة، ففي كل قصة حب جانب عظيم يتصل بمسائل الجنس، ولكن معجزة الحب الإنساني، هي أنه عند الرغبة – وهي غريزة طبيعية جداً– تحدث مجموعة من المشاعر الجميلة المختلفة.

على أن الرغبة قصيرة الأجل، فكيف استطاع الناس أن يستخلصوا المشاعر النقية الباقية من غريزة مقترنة بمثل هذا التقلب؟ إن مشكلة تطهير الرغبة أو تنقيتها، هي المشكلة التي يجب علينا حلها حتى يتاح

لنا أن نفهم فن الحب، ولكن من الضروري أن نجيب أولاً على بضعة أسئلة مبدئية.

لماذا يحدث أننا – من بين آلاف الرجال والنساء الذين نصادفهم – نختار شخصاً واحداً نركز عليه أفكارنا؟ هنالك نظريتان جديرتان بالاعتبار، وكل منهما فيها قدر معين من الحقيقة.

تقول النظرية الأولى أننا نكون في فترات معينة من حياتنا، لاسيما في سن المراهقة وقبيل الخمسين، في حالة تشوف إلى الحب، فهناك رغبة غامضة كأنها غير شخصية تتمخض عن شعور لطيف بالتوقع، وفي مثل تلك اللحظات يستسلم الشاب لأطياف خياله لأنه في تلك السن دون امرأة حقيقية، وتقع الفتيات في حب أبطال القصص ومشاهير الممثلين، وأساتذة اللغات الأجنبية.

والشباب أقوى عوامل الحب جميعاً، ويقول جيته على لسان شيطان روايته "إنك بعيد أن تبتلع هذه الجرعة سوف ترى هيلونة في كل امرأة".

وحين يكون الجسد ينتظر على أحر من الجمر مقدم الحبيب أو العشيقة المجهولة، فإن أول شخص مقبول يتم اللقاء به قد يكون هو الشخص الذي يوقظ الحب.

والظروف التي يتم فيها اللقاء تلعب كذلك دوراً هاماً، وكثيراً ما يحدث أن الأشخاص الخجولين الذين لا يعترفون بأحاسيسهم ورغباتهم في الظروف العادية، يجدون أنفسهم مرغمين على مخالطات إجبارية.

فالسجون في زمن الثورة قد كشف عن مواهب غرامية لم يكن وجودها يخطر على البال في نساء لو كن في ظروف عادية أكثر دعة وسلاماً، لقنعن بحياة زوجية رتيبة، وفي عين المرأة تكون سمعة الرجل أو شهرته بمثابة هالة من النور تحجب أخطاءه عن الأنظار، وما يحرزه الطيار، أو الممثل، أو لاعب الكرة من نجاح يكون في كثير من الأحيان سبباً في نشوة علاقة غرامية.

وقد تتسبب المصادفة في خلق وهم علاقة روحية أو عاطفية، فعلى حين غرة، ولدى سماع عبارة ما من شخص ثالث، قد تتلاقى نظرتان وتنطقان بانفعالات متماثلة، وقد تمر سيارة فوق ثغرة في الطريق فتهتز بعنف، فتلمس يد يداً أخرى، وتظل اليدان متلامستين دون مبرر فهذا يكفي، إن الأحداث التي لا تشابه الطباع قد جمعت بين حبيبين.

أما النظرة الأخرى فهي على النقيض من سابقتها، وتقول إن "البرق الخاطف"، أو الحب من أول نظرة، معناه المقدر والمكتوب.

وفي بعض أساطير اليونان أن الناس في الأصل كانوا عبارة عن رجل واحد وامرأة واحدة، ثم جاءت بعض الآلهة فشطرت كلا منهما نصفين، وكل من هذين النصفين يبحث عن النصف الآخر باستمرار، وحين يتلاقى

جزءا زوج مكتوب عليهما اللقاء، فإنهما يدركان أمر الصلة بينهما بفضل صدمة عنيفة لذيذة، هي البرق الخاطف.

وجميعنا يحمل في ذات نفسه "الصورة الأصلية لذلك الجمال المعين الذي يبحث عن نسخة منه في كل نواحي العالم" ، فإذا نحن وجدنا شخصاً حقيقياً يتحلى بكل المزايا التي أضفيناها على أطياف خيالاتنا في سن المراهقة، استسلمنا للإعجاب الجذلان.

وهنالك أشخاص يسعدون أحاسيسنا بما يملكون من الحسن، كما يأسرون عقولنا بما يضفونه على أحاديثهم من رقة وإمتاع، ونحن نحبهم دون عناء، ودون تحفظ، وكل لحظة نقضيها بجانبهم تزيدنا ثقة بامتيازهم بالكمال.

ونحن نعلم أننا لم نكن لنحب أن نغير شيئاً فيهم حتى لو أوتينا المقدرة على أن نفعل ذلك، إن أصواتهم في أسماعنا هي أعذب الألحان، وأحاديثهم تتدفق كأنها أبيات قصيدة رائعة كاملة، ومن أمتع المتع الإعجاب بشخص ما دون تحفظ، والحب القائم على إعجاب العقل والجسم معاً بالشخص الذي يقع عليه الاختيار يستطيع بغير شك أن يكون مصدراً لغبطة لا مزيد على قوتها.

وأخيراً، نجد أن هنالك طائفة لا يستهان بعددها من الرجال والنساء، لم تفرض عليهم المصادفة البحتة ولا العاطفة التي لا تقاوم زميل الحياة، بل اختاروا زملاء حياتهم عامدين واعين.

فهل يستطيع فن الحب مساعدتهم في الاختيار عن طريق تقرير بعض القواعد العامة ؟ ربما قيل إن تشابه الطباع، وسعة الصدر، والروح المرحة بصفة خاصة، هي فضائل لها قيمة كبرى في التماس السعادة، وإنها كثيراً وليس دائماً ما يكون مصدرها صحة الجسم والعقل، ومن الواجب أن تدرس بعناية عائلة الشخص الذي يقع عليه الاختيار، والسعادة تزدهر حيثما توجد سعادة، كما أن الحب سرعان ما يذبل في الجو الذي يسوده الكبت والكآبة.

والنساء فيما يبدو يظفرن بالسعادة بمزيد من السهولة مع الرجال الذين يمتازون بقدر ملحوظ من الرجولة والنشاط، كما أن الرجال يظفرون بها بمزيد من السهولة كذلك مع النساء العاطفيات الراضيات بأن يكن زمام قيادتهن في غير أيديهن.

وصغيرات السن جداً من النساء يقلن أنهن يردن أن يتزوجن رجالاً يستطعن السيطرة عليهم، ولكنني لم أعثر قط على امرأة سعيدة مع رجل لا تعجب بقوته وشجاعته، كما أنني لم أعثر قط على رجل سعيد مع امرأة من النوع المتحكم المتسلط، الذي تغلب عليه طباع الرجال ويتصرف على غرارهم.

والواقع أن عنصر المصادفة في هذه الأمور، قلما يسمح لرجل أو امرأة باختيار زميل حياته بمحض رغبته، ولعل هذا أن يكون خيراً، فالغريزة هنا أبعث على الاطمئنان من الذكاء رغم أخطائها.

ولا ينبغي توجيه سؤال: "هل من الضروري أن أقع في الحب ؟ " لأن المرء ينبغي أن يشعر في ذات نفسه بالجواب عليه، وميلاد الحب – كميلاد كل ما عداه – هو من صنع الطبيعة، وفن الحب تجب ممارسته فيما بعد، ويجب الآن أن نحدد اللحظة المعينة التي يبدأ فيها الفنان تشكيل ما بين يديه من المواد "الخامة".

وقد وصف "ستندال" في كتابه "عن الحب" ، ميلاد هذه العاطفة وصفاً جديراً بالإعجاب، ومن واجبنا أن نعرض للنقط الرئيسة في حديثه، وأن نضيف إليها ملاحظاتنا الخاصة.

كل حب يبدأ بصدمة، إما أن يكون مصدرها الإعجاب، وإما أن يكون مصدرها حادثاً ما يكشف عن عطف، أو يثير رغبة: "إن السيدة كارنينا رائعة الحسن" هكذا قال رونسكي لنفسه وهو يغادر القطار، غارقاً في أفكاره، في رواية تولستوي المشهورة، ثم يسأل نفسه "ماذا كانت تعني حين نظرت إلى أعلى على ذلك النحو"، وهكذا يدخل شارل جراندي حياة ابنة عمه ذات مساء، في دور الرجل المعذب ذلك الدور العاطفي، وهي تحبه منذ تلك اللحظة، حتى نهاية حياتها ذلك في رواية أوجيني جرانديه لبزاك.

وبعد أن تثبت الصدمة اهتمامنا على شخص ما، يصبح الغياب موصلاً جيداً، ويقول الفيلسوف "ألن" إن أعظم قوة للمرأة تكمن في غيابها أو تأخرها عن مواعيدها وحضور المحبوبة لا يلبث أن يكشف لنا

عن مواطن الضعف فيها، أما في غيابها فإنها تصبح واحدة من عرائس الخيال التي كنا نحلم بها في سن المراهقة، ونخلع عليها صفات الكمال، ويسمى"ستندال" هذه العملية "بلورة" ، حيث تحدث مقارنة بين الشخص الغائب وبين قطعة من الخشب لو بقيت في مناجم الملح بضعة أيام تكسوها طبقة من قطع كبيرة من البللور تجعل لها مثل منظر الجوهرة.

وبعد هذه البلورة يصبح المحبوب شخصاً آخر ممتازاً، وهذا هو السبب في أن "مارسل بروست" قال إن الحب مسألة اعتبارية وإننا لا نحب أشخاصاً لحقيقتهم في الوجود، بل نحب فقط أولئك الذين خلقناهم، "إن الجمال إنما يكمن في عين الناظر إليه".

بعد أن تتم عملية البلورة الأولى، قد يتم لقاء ثان دون أن يتعرض الحب لأي خطر؛ لأن شعورنا يجعل رؤية الشخص الحقيقي مستحيلة بعد ذلك، فقد يقف هو أو هي أمامنا ولكننا لا نرى سوى البلورة، ولا نسمع الملاحظات التافهة، ولا نلاحظ الافتقار إلى حسن التقدير أو إلى الشجاعة، فالغبطة التي نستمتع بها لا يمكن أن يؤثر فيها لأن مصدرها هو ذات أنفسنا.

وعندما تكون الأمور في مثل تلك الحالات لا يسفر الحب عن شيء سوى السعادة، ولكن النار لا يمكن أن تشتعل دون وقود، وكذلك الشعلات حديثة العهد بالولادة، فإنها لا تلبث أن تخمد إلا إذا غذاها

شيء من أنفاس الأمل، وليس من العسير إرضاء المحب، على قدر ما يعني علامات التشجيع، فالنظرة وضغطة يد بيد والرد باهتمام كلها تسفر عن تأثير مباشر.

فإذا كانت هذه العلامات واضحة ومستمرة، فإنها تستطيع إثارة الحب المتبادل حيث السعادة التي لا زيادة بعدها لمستزيد، غير أنه من الممكن أيضاً القضاء على هذا الشعور بسلاح الاطمئنان الزائد، ففي كثير من الحالات تنمو بدايات الحب وتترعرع بفضل الشكوك، أو بالأحرى بفضل تعاقب الإعراض والإقبال، وكثيراً ما لا تكون لذلك التعاقب علاقة فعلية بعواطف المحبوب، ولقد كان من الحياء والتواضع سبباً فيما ظن أن مصدره الازدراء، فبسبب تلك الرغبة في معرفة دقائق الأمور، التي لا يحسها سوى المحبين والمخبرين السريين، نتشاءم من المضايقة التي يسببها صداع أو حذاء ضيق، أو تمزيق جورب، فإن مجرد لا شيء كاف لإزعاج محب.

لأنه يحلل النظرات والكلمات والإيماءات ويعثر على معان مستورة، ويحاول أن يكتشف ما عساه قد اقترف من الأخطاء التي تفسر له ما يلقى من معاملة خشنة.

وكلما ازداد عجزاً عن الفهم (لأنه ليس هنالك شيء يستطيع أن يفهمه) ازداد تفكيراً في المرأة التي يحبها، وازداد حبه لها تغلغلاً في

أعماق نفسه، والحب الذي يولده القلق، يشبه الشوكة التي تجعلها طبيعة شكلها تزداد غوصاً في لحم الإنسان كلما حاول انتزاعها.

ومن هذا يبدو أن الدلال، أو بعبارة أخرى الإعراض المتعمد: التراجع ثم عرض الطعم من جديد – مقصود به تماماً إلى إيقاظ الحب ودعم أركانه، وعلى نحو ما تنقض القطة على كرة من خيوط الصوف تغري بها ثم تسحب منها، كذلك تسمح فريستنا البشرية لنفسها بأن تعريها امرأة من ذوات الدلال، على أن اتباع الممنوع، وزهد النفس فيما تملكه اليد، من النوازع الطبيعية التي لا يصعب تفسيرها.

غير أن التمادي في الدلال من شأنه أن يقضي على الحب، ولقد أصرت مدام "ريكامييه" – وكانت فترة طويلة من الوقت، من شهيرات الغواني، اللاتي لا يقف في طريقهن شيء – أصرت على أن توقع "بنجامان كونستان" في حبائل غرامها، ونجحت في ذلك، قالت له: "فلتحاول" .. ولم يلبث الأمل في النجاح أن جعل من ذلك الرجل الناضج طفلاً، قال لنفسه: "إنها لا تحبني، ولكنها تجدني لطيفاً"

ومنذ أدرك أنها كانت تعبث به دون أن تنوي إسداء أياديها استولى عليه شقاء عظيم... "إنني لم أعرف قط غانية من قبل، يا لها من آفة!"، وبعد ذلك بوقت غير طويل: "يا إلهي، كم أمقتها!" وبعد ذلك انعكست آية "التبلور" فقال: "سأنتهي منها، لقد جعلتني أقضي يوماً فظيعاً، إن لها عقل طائر، ولكن ليست لديها الذاكرة ولا حسن التقدير ولا الذوق".

وهكذا نجد أن الغانية قد تمضي في دلالها إلى أبعد مما ينبغي، وفي الفصل الخامس من رواية "عدو الشعب" ، من تأليف موليير نجد أن بطلة القصة "سيليمين" قد هجرها كل من كانوا أول الأمر مفتونين بذكائها وجمالها.

ولو حذت الغانية الطبيب فيما يصنع بالمريض على مائدة الجراحة، حيث يعطي رئتيه الغاز الخانق مرة، وغاز الأوكسجين مرة أخرى، أعني: لو أن الغانية مزجت قسوتها بما يكفي من الأمل كي يظل مريضها على قيد الحياة، لما استطاع مقاومة إغرائها، وهل من الضروري ممارسة هذه "اللعبة" القاسية"؟ إنني أعتقد أن خيار الناس على استعداد لأن يرفضوا الفوائد التي لا يكاد يرقى إليها الشك، والتي تعود عليهم بفضل الدلال، وذلك بدافع من الحب، أو طيبة القلب.

ولعل شخصاً كريم النفس أن يقول: "إنني أعلم أني باعترافي لك بحبي، أضع نفسي تحت تصرفك، ولكن يسرني أن أفعل ذلك"، فإذا كان الشخص الآخر أهلاً لهذه الثقة، أمكن أن يعيش الحب بأسمى معانيه، حباً متبادلاً قوامه الثقة المشتركة، أما إذا لم يكن ذلك الشخص كذلك، فإن من الضروري إعطاؤه جرعات مقوية من الدلال بين الحين والحين.

والمراحل الباكرة من الحب المتبادل، تعتبر بحق أجمل مراحله: حيث تكون قد تمت عملية تبلور مزدوجة، ولم يعد هناك خوف من خطر

اللقاء، فلقد أصبح كل منهما في نظر صاحبه هو المخلوق الثاني، وعندما تدوم حالة مثل هذه، فإن نتيجتها تكون حياة حافلة بالسعادة التامة تقريباً بالنسبة لشخصين، غير أن من النادر حتى في حالة حب كهذا، أن تتساوى قوتين عاطفيتين، وأن يدوم تساويهما، ومعظمنا يتعين عليه أن يغزو الشخص الذي تتجه إليه رغبته مرة بعد أخرى دون انقطاع، وعلى هذا تتعين إثارة الحب في ذلك الشخص.

هل من المستطاع إثارة الحب عمداً في شخص ما؟ وهل ذلك شيء ضروري؟ وإذا كان حب الإنسان نفسه لا تدعو إلى عاطفة تجيب دعوته، ألا يكون من الأسهل الإصرار على الاستمتاع باللذة؟

هكذا كانت الطريقة المألوفة في الحضارات البدائية، أو الموغلة في القدم: فإذا اشتهى رجل امرأة، اختطفها وهرب بها، وبعدئذ تصبح الأسيرة تحت رحمته، وكثيراً ما حدث أنها وقعت أسيرة هواه؛ لأنه اختارها دون سواها وأصبح لها سيداً، أو لمجرد كونه من ذلك النوع من الرجال الذي يمكن أن يستحوذ على فؤادها.

وفي العصور التالية أصبح المال والسلطان يلعبان نفس الدور الذي كانت تلعبه قوة الأجسام، ولقد سجن "أكرايسيوس"، ملك "أرجوس"، ابنته "ديانا" في برج من النحاس، فدخل إليها "جوبيتر" إله الآلهة في صورة مطر قطراته من ذهب دون عناء.

غير أن حب المغلوبين على أمرهم، يستهوي الطموحين فنحن نريد أن يقع علينا الاختيار، ولا نريد أن نكون عبئاً يحتمل على مضض، والغزو لا يمكن أن يجلب السعادة الدائمة، إلا إذا كان الشخص المغزو مأخوذاً بمحض إرادته، وعندئذ فقط يكون هناك الشك والقلق، وتلك الانتصارات المستمرة على العادة والملل، التي تسفر عن أعظم المسرات، ونساء الحريم الحسناوات يندر أن يظفرن بالحب لأنهن سجينات.

ومن الناحية الأخرى، نجد أن السيدات الطيعات إلى أبعد حد على شواطئ الاصطياف في هذه الأيام، يندر أن تكون بينهن من توحي الحب؛ لأنهن متحررات من كل قيد، وأين يكون انتصار الحب حين لا يكون هناك قناع ولا تواضع، ولا احترام للنفس يقيد خطواته.

فالحرية الزائدة عما ينبغي ترفع الأستار الشفافة من حول ذلك البيت غير المرئي من بيوت الحريم؛ لتحط بهؤلاء السيدات غير المتمنعات، والحب العاطفي لا يتطلب منهن أن يكن محصنات، بل أن تكون الحياة التي يحيينها في نطاق الحدود الضيقة بعض الشيء التي يمليها الدين والعرف، وهذه الاشتراطات التي روعيت في القرون الوسطى بصورة تبعث على الإعجاب قد أسفرت عن ذلك الحب العف الذي عرفه المجتمع في تلك الأيام.

فكانت سيدة القصر الشريفة تظل بين جدرانه بينما ينطلق زوجها الفارس ليشترك في الحروب ويفكر في عقليته، وفي تلك الأيام لم يكن الرجل يحاول إلا في النادر أن يثير الحب في المرأة التي شغفته حبًا.

بل كان يقنع بأن يحب في صمت، أو على الأقل دون أمل ومثل تلك العواطف المكبوتة يعتبرها البعض غير ناضجة وغير حقيقية، في حين يرى البعض الآخر من ذوي الإحساس المرهف، أن هذا النوع من الإعجاب على البعد جدير بأن يكون مبعث غبطة لا حد لها؛ لأنه – بفضل ذاتيته – أقوى تحصيناً ضد الوهم والخديعة.

إذا وقع مراهق في حب ممثلة لم يرها قط إلا على خشبة المسرح، فإنه يخلق عليها من رائع الصفات ما يخيل له أن صوتها ووجهها ينطقان به، مما ليس فيها دون شك، فهو يشاهد تمثيلها في بعض روايات "ماريفو"، أو "موسيه"، فيتصور أن لها من السحر الشاعري مثل ما للبطلة التي تقوم بتمثيل دورها؛ لأنه لا علم له بحقيقة عمرها ولا بالتجاعيد الواضحة في وجهها، فهو لم يرها إلا على أنوار المسرح التي تضفي عليها ما ليس لها من جمال، وهو لا يعرف شيئاً عن حدة طبعها أو غرورها؛ لأنه لم يعش معها أبداً.

يقول بيرون إن الموت من أجل المرأة التي يحبها الرجل أسهل من الحياة معها، والفتاة التي تحب واحداً من كتاب القصة يسهل عليها أن تضفي عليه بسخاء ما في أبطال قصصه من صفات ممتازة؛ لأنها لا

تدري شيئاً من آلام مفاصله وعسر هضمه وضيق صدره وكسله، ومن السهل أن يظفر الإنسان بالإعجاب حين لا يكون لأحد سبيل إليه.

وفي سبيل المحافظة على الحب يحسن إذن ألا يخفيه الإنسان، أفمن الخير أن يظل مجهولاً ؟ لا، فإن هذه العواطف المتصلة بالفكر لا يمكن أن يطول أجلها.

"كلما طال الطريق إلى الحب، ازداد ما يستمتع به المحب المرهف الإحساس"، أجل، على أن الطريق ينبغي له أن يؤدي بعد الكثير من المنعطفات الجميلة إلى الهدف بدلاً من أن تضله في الفيافي الموحشة؛ لأن الحب عندئذ ينتهي بالاستغراق في النعاس، والموت بسبب فقر الدم، وبعد حين طال أو قصر لا يلبث المحب أن يشعر برغبة عارمة في أن يكون محبوباً.

وماذا يستطيع فن الحب أن يلقنه؟ كيمياء، جرعات من إكسير الحب، تعاويذ من السحر؟ إن ما انحدر إلينا عن قديم العصور من الشعر والأساطير حافل بذكر الساحرات، كما أننا نعلم أنه "ما أشبه الليلة بالبارحة" فيما يتصل بهذا الموضوع، وعلى نحو ما كانت عليه الحال في زمن الشاعر اليوناني "ثيوكريت" والشاعر اللاتيني "أوفيد"، لا تزال في باريس ولندن ونيويورك غرف خلفية لا حصر لها، يتردد فيها السؤال القديم قدم الزمن، مائة مرة كل يوم، على لسان بعض العجائز المرعبات: "ماذا عسى أن أصنع كي أجعله يحبني؟ "، والتجربة الإنسانية التي يرجع

عهدها إلى قرون من الزمن أيضاً تجيب على ذلك السؤال، كما تجيب على كل سؤال آخر بأن تقترح إقامة الاحتفالات والمراسم.

واستخدام الاحتفالات والمناورات والحيل لتي يحاول بها المحبون أن يتملقوا، يقال لها الزلفى، والحيوانات كالمخلوقات البشرية تعمد على تزلفها في المواسم المعينة، ولا بأس بأن ننوه بوسائل الإغراء المعتادة بادئين بأكثرها بساطة، أي التي هي شائعة بين سائر أنواع المخلوقات، حتى نبلغ أكثرها براعة، وهي التي يعمد إليها الجنس البشري.

ومن أشيع الوسائل في سبيل استرعاء الانتباه، الالتجاء إلى الزينة، والأزهار بفضل ألوانها الزاهية تجتذب إليها الحشرات، لتجلب إليها مادة اللقاح في الوقت المناسب، كما أن ذباب الليل، وأنواعاً معينة من الديدان تضيء نفسها ليلاً لكي تعلن للملأ من جنسها أنها على أهبة الاستعداد للحب، وكذلك ترتدي النساء أجمل الثياب، ويتحلين بالمجوهرات البراقة، كي يقع عليهن اختيار الرجال.

ومن حق المرأة وواجبها أن تكون مبعث السرور، وجميعهن أو ما يقرب من أن يكون جميعهن يحاولن إدراك تلك الغاية، والحمقاوات من العذارى يعتمدن على الإغراء الأطول بقاء وهو الغموض، ومعظمهن يتابعن آخر الأزياء، وهو آخر ما يسترعي انتباه الجنس الخشن، وهكذا نجد أن مصممي الأزياء، وبائعي القبعات والجوهريين يكسبون أرزاقهم بفضل رغبة المرأة الدائمة في أن تلفت نظر الرجل.

وبعض النساء بسبب التظاهر أو الغرور يتجاهلن قوانين "الموضة"، ولكن مثل هذا التمرد لا يلبث أن يعد مساً من الجنون في مجتمع يخضع فيه كل النساء لنفس المظاهر، لا فرق في ذلك بين العاملة الصغيرة والنبيلة العظيمة.

وهكذا يصبح أكثر الأشياء بساطة، أقلها حظاً من البساطة، ويصبح الأقل خلاعة هو الأكثر خلاعة، ولا يعود أي تجمل في حد ذاته تجملاً.

وقبل عهد "روفاييل"، كانت الشابات الإنجليزيات اللاتي يترددن على منزل الفنان "وليام موريس" في أيام الآحاد يرتدين ثياباً بسيطة من الصوف الأزرق الخفيف، ويحطن أجيادهن بقلائد من الخرز الأصفر.

ولقدكن يسترعين الأنظار إلى أبعد حد بين النساء الأخريات اللاتي ظللن على وفائهن للمجوهرات الثمينة والثياب المزركشة المنحدرة من عصر الملكة فكتوريا.

وإن الفنان ليستلفت الأنظار إليه بقبعته ذات الحافة العريضة، كما أن الكاتب اليساري الشاب يستلفت إليه الأنظار بسترته المصنوعة من الجلد، كما أن المتأنق من أبناء الأيام الماضية، كان يسترعي إليه الأنظار بفضل صدره الأحمر، وكذلك الذكور من أنواع الحيوان لها ما يسعفها بالحلية والزينة، والطاووس واحد من انتصارات الطبيعة على الفن، وفيما يعني الجنس البشري نجد أن الرجل حين يفضل اجتناب التبعات الاقتصادية تعين على المرأة أن تلزم جانب الحرص على زينتها، والنظرة

العجلى إلى الإعلانات التي تنشرها المجلات الأمريكية تكفي لفهم مدى استمرار انشغال المرأة بغزو الرجل.

والتفوق على الآخرين في أداء أي عمل كان طريقة أخرى من طرق الإرضاء، وكل محب يبذل غاية جهده في سبيل إظهار براعته، وأسلوبه في ذلك يختلف تماماً عن أساليب غيره، وبعض الأطيار ينقض على الماء ليلتقط النباتات لرفقائه، وحين سئل "شاتوبريان" عما عساه ينشد في الشرق، قال: "الشهرة، كي أحظى بالحب".

ولقد عاد من تلك الرحلة بعبارات خالدة من أجل مدام "دي نواي"، كما كتبت القصص، مثل قصة "سان بيف" المعروفة "كلو دور"، من أجل نساء لا بد أن يكن قد وجدن فيها مشاعر قد صورت خصيصاً لإثارة عواطفهن، ولقد أحال جميع المؤلفين الموسيقيين – على وجه التقريب – أحزانهم ورغباتهم عبارات منسجمة.

ولكن لاعب "التنس" يعند غالباً، في سبيل الزلفى إلى من يحب إلى مجرد إجادة الضربات الخلفية، كما يعمد سائق السيارة إلى إظهار جرأته الفائقة والراقصة إلى إظهار براعتها في الرقص على أصابع قدميها.

وإذا اشتهر الرجل بأنه "زير نساء"، أي: "دون جوان" فإن ذلك يكون مصدر قوة عظيمة الخطر، فحصيفات العذارى يقاومنها، ولكن العذارى الحمقاوات كثيراً ما يخضعن للرغبة في أن ينتزعن عاشقاً مشهوراً من إحدى المنافسات، حتى إن كانت إحدى الصديقات.

وهذا شعور مركب مؤلف من الغرور والاحترام لذوق امرأة أخرى، والحاجة إلى تكوين شعور بالنفس، بإحراز انتصار صعب المنال، ولقد اختار "دون جوان" عشيقاته في بادئ الأمر، ولكنه كان فيما بعد هو الذي يختار، وقد قال "بايرون" أنه ضحية اعتداء النساء أكثر مما كان أي رجل آخر منذ حرب "طروادة".

والرغبة في الاطمئنان – وهي بين النساء مأثورة إلى حد ملحوظ – تجتذب الأضعف منهن إلى رجال يبدون لهن بفضل مقدرتهم أو قوتهم، إنهم قادرون على حمايتهن وإعاشتهن، وهن في زمن الحرب يحصين عدد انتصارات المحارب، وفي زمن السلم يتصيدن العبقرية أو الثراء، وتقديم الهدايا بالنسبة إلى الرجل العاشق، وسيلة إلى تأكيد وجود قوته، وأطيار البحر المختلفة تقدم إلى بنات جنسها التي تهواها أحجاراً مختلفة البريق في كثير من الأحيان.

وكذلك تفعل أنواع أخرى من المخلوقات على غرار ما يفعل الشاب حين يقدم إلى خطيبته خيوطاً من الصوف في صورة بساط أو ستار، بل كذلك العصفورة والمرأة كل منهما تبدأ في التفكير في "العش" بمجرد اختيارها للذكر.

والمدح نوع من العطاء أو الإهداء، ومعظم قصائد النسيب والتشبيب إن لم يكن جميعها عبارة عن أحزان وأمداح، والأحزان مؤثرة

ولكنها سرعان ما تصبح مملة، والمدح مدعاة إلى السرور؛ لأن كل النساء والرجال تقريباً فيهم نوع من "مركب النقص".

فأجمل النساء تتشكك في ذكائها، وأحذقهن لا تثق بمفاتن جسدها، وما أروع الكشف عن المزايا الكثيرة المحببة التي يتمتع بها شخص لا يدرك أنه يملكها، أو ينظر إليها باعتبار أنها أشياء لا أهمية لها.

ومن المحقق أن المرأة الخجول والمرأة دائمة الاكتئاب تتفتح كما تتفتح الأزاهير في الشمس حين تجد نفسها موضع إعجاب، كما أن شهية الرجل إلى المديح لا حدود لها.

ولقد حظي بالحب طيلة حياتهن كثيرات من النساء العاديات اللاتي لا سحر فيهن بفضل إتقانهن أساليب المديح، ولعل من الجدير بالذكر في هذا المقام أن الناس يغتبطون حين يمتدحون ليس بما فيهم من مزايا واضحة يعرفونها مثلك حق المعرفة، بل بتلك المزايا التي يعتقدون أنها تنقصهم.

فالقائد العسكري لن يشكرك إذا تحدثت إليه عن انتصاراته، ولكنك تظفر بما لا حد له من امتنانه إذا أنت تحدثت إليه عن بريق عينيه، والقصصي المشهور لا يهتم كثيراً لامتداح كتبه، ولكنك إذا تحدثت بحماس عن موضوع غامض لم يفهمه سوى القليلين أو عن نبرة في صوته ذات صدى يتردد فإنه سرعان ما يبدي اهتمامه لما تقول.

وللنساء أساليبهن الخاصة في الغزو، ولقد ظل المفروض منذ زمن طويل، أن النساء ينتظرن حتى يخطو الرجال الخطوة الأولى، ولكن هذا الفرض كان أساسه مجرد المظاهر، ويقول "برنارد شو" إن المرأة تنتظر الرجل، ولكن كما ينتظر العنكبوت الذبابة، ولقد كان القصد من الرقص دائماً، هو التغلب على حياء الرجل، وفي نفس الوقت إرغامه على كبح جماح رغباته.

والرقص الحديث له هدف أكثر صلة بالحواس إلى حد بعيد من الرقص العتيق أو الرقصات الريفية، وهو لا يزال من أكثر الخدع نجاحاً، وفن الغزو في كثير من الأحيان بالنسبة إلى النساء هو فن تهيئة الاستلفات، والتشجيع، والمساندة الروحية.

ولننظر إلى مدام "منتون" قد ودعت ربيع شبابها، وكانت علاقتها بالملك مقصورة على كونها مربية لأطفاله الذين أنجبتهم له مدام "مونتسبان" التي كانت امرأة حسناء تتمتع بنفوذ قوي على عقله، ولكن مدام منتون لم تقنع بأن انتزعت منها لويس الرابع عشر، بل لقد نجحت في إدراك الغاية التي لم تجسر مدام "مونتسبان" أبداً على أن تتمناها: فأقنعت الملك بأن يتزوجها.

فماذا كان سر نجاحها؟ لقد بدأت قبل كل شيء بالاتصال بالملك، كرسول سلام بينه وبين عشيقته التي كان قد بدأ يضيق بثوراتها العاصفة، والرجال يحتملون إلى حين ما يقابلون به من مشاهد الغضب والغيرة، من

النساء اللائي يحبونهن حباً عميقاً، وبعضهم يفضل العلاقات الغرامية الصاخبة، كما يفضلون البحار الهائجة على البحار الهادئة، ولكن معظمهم بغير شك يحبون الهدوء،وما أسهل ما يسلس قيادهم للملاطفة والبساطة والرقة، لاسيما إذا ما كانت امرأة مجنونة في الماضي قد شفتهم من مرض استساغة العنف.

كذلك وضعت مدام "منتون" لنفسها قاعدة ثابتة في أن تكون حاضرة حين يكون الملك قائماً بأداء عمله، حيث كان الوزراء يستدعون إلى جناحها وكانت هي تصغي إلى التقارير الرسمية في صمت، أما إذا سألها الملك، فإنها كانت تجيب إجابات في الصميم تدل على أنها كانت تصغي إلى كل ما قيل، وتفهمه، و تقلب فيه أوجه الرأي، ولقد كان ذلك من جانبها آية من آيات الدهاء.

فالرجل الذي يستحق أن يسمى رجلاً، يقدم عمله على كل شيء آخر في العالم، حتى المرأة التي يحبها، وإذا حاولت هذه المرأة أن تصرفه عن عمله، وتضع نفسها في أقصى المقدمة من اعتبارات حياته، فإنه قد يسمح لها بأن تمضي في طريقها إلى حين، ولكنه لا يلبث بعد أيام لن تطول أن ينصرف عنها إلى امرأة أخرى عرفت سر ضرورة انشغاله بعمله.

والطيور تصدح بأغانيها الخاصة، وتنقض انقضاضها على النباتات المائية، والأسماك تمارس رياضتها الغرامية في أمواج تحيط بها الصخور،

ولكن الرجال يكتسبون المهارة والنفوذ من طريق الاستعاضة والبدل، فبدلاً من أن ينظم العاشق قصيدة من الشعر، يقرأ لمعشوقته شيئاً من شعر "بودلير"، وكذلك عازف البيانو الذي يحاول أن يظفر بحب صديقته، فيعزف لها بعض ألحان "شوبان"، فعبقرية النابغة تسمو بمريديه والمترجمين عنه.

والموسيقى حين تملأ ذهنين معاً بما فيها من جمال منسق، وبهجة علوية، كثيراً ما تمهد للحب بينهما، ولقد تم الارتباط بين أكثر من قلبين، بفضل بيتهوفن وموزار وفاجنر، والكثير من العلائق الغرامية تكون بدايتها في معارض التصوير، كما أن الروايات قد تكون موضوعات للحديث ونماذج للسلوك، وأحسنها بمثابة دروس في الحب كما ينبغي أن يمارسه أولئك الذين هم أهل لمباهجه، والثقافة المشتركة تجعل في الإمكان أن يقوم حب على مستوى رفيع من البهجة، وهي تساعد أيضاً على تمضية اللحظات العصيبة، حين "تبعث السآمة شيئاً من المرارة في غمرة الجذل"، فبتحصيل الثقافة يمهد الإنسان نفسه للحب.

والعقيدة الدينية، أو العقيدة الوطنية أو السياسية، أو الإيمان بضرورة وجمال أي عمل من أعمال الحياة، إذا اشترك فيه المتحابان كان عاملاً رائعاً من عوامل تقوية الحب،ومن العسير حقاً على صاحب العقيدة الراسخة أن يكن شعوراً دائماً للشخص الذي لا يشاركه ما يعتقد بأي حال، وفي مثل تلك الحالة ينبغي لغير المعتقد أن يتذرع بما لا مزيد عليه من اللباقة والاحترام، وإلا فإن الأمل في التحول ينبغي أن يكون حاضراً

في ذهن الشخص الأخر – وهذا التحول كثيراً ما يعقب الحب، إذا قدر لمثل ذلك الحب أن يعيش، وأن اشتراك الرجل والمرأة فيما يؤمنان به دون تحفظ ضمان مؤكد لحصولهما على السعادة، وبهذه الوسيلة تدفع بنا قوتنا العقلية والعاطفية معاً في الاتجاه المختار، وكل عمل يكون الحافز فيه هو الحب، يكون عملاً ممتعاً، ولكن ليس في الدنيا شيء يعدل متعة مزج العمل بالحب، ومثل هذا المزيج الممتاز يسفر عن خلق تلك الأزواج فهم ليسوا أزواجاً بل فرقاً، وهنا لا تجدي المغازلة فقد احتل الاندماج مكانها.

بعد مغازلة قد تكون مديدة أو وجيزة، وقد تكون ساذجة أو غير ساذجة يولد الحب، ولكن كثيرا من الحب يموت في مهده، وتغذيته على الوجه الصحيح تتطلب عناية دائمة، والجدة التي هي أقوى عوامل الانجذاب هي كذلك أسرعها تلفاً، وفي بداية الأمر يكتشف كل في الآخر ألف اكتشاف، ولدى كل منهما ذاكرة شابة: ناس يوصفون، وأغنيات تغنى، ونوادر مما يختلط بالملاطفات الغرامية فيملأ الأيام بهجة وجذلاً.

ولكن مما يؤسف له أن هذه المدخرات لا تلبث أن تنتهي إلى غايتها، كما أن تلك القصص التي كانت تبدو مسلية إلى أبعد حد، أصبحت الآن تبعث على الضجر، وكأنها أعمال بالية، كم من الرجال والنساء من يكون أكثر مقدرة على تسلية الغير حين لا يكون في صحبة رفيقه المعتاد؛ لأنه يستطيع أن يتحدث بغير تحرج عن أشياء سبق

الحديث عنها مراراً وتكراراً، وفي المطاعم يتناسب طول فترة الصمت بين الرجل والمرأة مع طول الفترة التي قضياها من حياتهما معاً.

على أن هذا لا يحدث إلا بين من ليس عندهم استعداد للحب، وليست لديهم الموهبة التي تمكنهم من الاحتفاظ بنضارة دائمة، فالشخص الذي يحب حقاً، يجد متعة في التجول كل يوم بين أفكار من يحب حقاً، كما يستمتع قسيس القرية بالتجول في حديقته كل مساء.

وبعضهم مخلص على الدوام، إما لأنه ينظر إلى الحب نظره لمسألة جدية، وإما لأنه خجول ومحب لحياة البيت، وبعض البيوت بالذات تقوم سعادتها على الاشتراك في النفور مما في العالم الخارجي من ألوان الصراع، وعلى الرغبة في حياة منعزلة بين ناس مألوفين وأشياء معتادة وباختصار على الرغبة في الأمان.

ولكن ذلك الذي يحب بمزيد من التوسع يتعلم إذا اقتضى الحال أن "يجدد" نفسه، وأساليب الإنسان في إدخال السرور تستنفد يومًا بعد آخر، ولكن الإنسان ينبغي أن يدخل السرور وهو كذلك يفعل، بل قد يكون الجهد المبذول في سبيل إدراك تلك الغاية جهداً غير شعوري.

وإذا كان شخص ما يتمتع بجاذبية، فإنه لا يفقدها أبداً والجاذبية لا يدركها الإعياء، وكلمات وأفعال الشخص الذي يتمتع بالجاذبية، هي مصدر مسرات متصلة.

والتقدم في السن لا يغير الإنسان من هذه الناحية، والوجه الجميل تدركه الشيخوخة بصورة لطيفة، والإنسان يغتبط إذ يجد وراء الشعر الأبيض، النظرة والابتسامة اللتين منحهما حبه منذ عهد بعيد.

هل هناك فن نستطيع به أن نتجنب إدخال الضجر إلى نفوس الناس؟

إن السر العظيم يكمن في السماح لهم بأن يكونوا طبيعيين، فمن العسير أن يتخذ الإنسان لنفسه موقفاً غير طبيعي دون أن يفقد شيئاً من جاذبيته، والحكماء من المحبين يجهدون في الاحتفاظ بالميول الطبيعية لمن يحبون.

وهناك رجال يرجون تغيير طبائع النساء، ويفرضون عليهن الأذواق والأفكار، وهذا حمق بحت، فإذا نحن وجدنا امرأة تختلف أعظم الاختلاف عن مثاليتنا، وجب علينا ألا نحبها، أما إذا وقع عليها اختيارنا بصورة قاطعة فإنه يصبح من واجبنا ألا نعترض سبيل نموها.

وفي الصداقة، كما هو الحال في الحب يسعدنا أن نرى أولئك الذين نستطيع معهم أن نكون على سجيتنا دون تحرج أو تظاهر.

ويحرص البارعون من المحبين على تدبير لقاءاتهم في الأماكن الجميلة، ومن هنا نشأت عادة قضاء شهر العسل الحميدة، على أنه ليس من الضروري أن تكون تلك الرحلات طويلة، فالمرأة العاشقة تعرف

بغريزتها كيف تهيئ عشها، وبعضهن يعرفن جيداً كيف يستفدن من سحر الطبيعة والفن، فهن يدركن متى يؤثر عشاقهن العزلة، ومتى يرغبون في حضور الحفلات الموسيقية، والنساء دائماً أعمق إدراكاً من الرجال للجوانب الاجتماعية من الحياة، ويجب أن يترك بأيديهن أمر تدبير غراميات الرجال.

وإذا حرص رجل على ألا يرهق امرأة في أن تمنحه الكثير من حسن المقاصد والحنان المؤثر كان من واجبه أن يدرك أهمية الدور الذي يلعبه الحب في حياتها.

وليس هناك شيء أكثر غباء من الرجل الذي يحتقر آراء المرأة؛ لأنه ينظر إليها من قمة عالية من قمم الفلسفات أو المعتقدات، فاختلاف آرائها عن آرائه راجع إلى أن آراءها أكثر بساطة وأرسخ أسساً، فإذا نشب بينه وبين عشيقته خلاف، فإنه لن يستطيع أبداً أن يقنعها بطريق الجدل، بل تعين عليه أن يعمد إلى الحنان والصمت والصبر، ولا ينبغي له أن ينسى إنها تفوقه كثيراً من حيث كونها ضحية الأعصاب في جزء كبير من عمرها، فإذا هو في تلك اللحظات العصيبة، علل بانحراف المزاج ذلك الذي هو مجرد شكوى جسد مريض، فهو إنما يعرض للدمار صلة كانت سعيدة، وقد تكون سعيدة من جديد لغير ما سبب سوى حالة طارئة عابرة.

ومن العبث، ولكنه من الطبيعي إلى حد ما أن تقارن بين نوازع المرأة وبين حركات البحر المحيط، والزوج الحكيم لا يستبد به الغضب أبداً، فعليه أن يقتدي بالملاح في العاصفة إذ يطوي شراعاته وينتظر آملاً دون أن تضع العاصفة حداً لحبه للبحر.

وهناك عدة قواعد يجب أن يتبعها أبناء الجنسين في تعلم فن اجتناب إدخال الضجر إلى نفس المحبوب.

وأول هذه القواعد أن يظهر الشخص في أعظم لحظات رفع الكلفة من الاحترام الوافر مثل ما كان يبديه في لحظات اللقاء الأول، والأشخاص الطيبو التنشئة، مهذبون بطبيعتهم، وكل الأشياء يمكن أن تقال بأسلوب رقيق.

والقاعدة الثانية هي الاحتفاظ بروح المرح في جميع الحالات، ومقدرة الشخص على السخرية من نفسه، وإدراك ما في معظم الخلافات من سخافة، وعدم تعليق أهمية فاجعة على المواجع المختزنة، ومن العبث أن يزاد طين العذاب الراهن بلة، بذكريات مشاحنات سابقة.

والقاعدة الثالثة هي استثارة الغيرة في حدود معقولة، أي تجنب قلة الاكتراث، وعدم الثقة وكلاهما أليم.

والقاعدة الرابعة هي التمهيد لعمليات بلورة جديدة من طريق الانفصال بين الفينة والفينة، فهناك خطر من العطلات الغرامية أو

الزوجية، ولكن هذه العطلات قد تسفر عن فائدة إذا هي كانت قصيرة، وإذا ما تخللتها الرسائل.

وقد يحدث أحياناً أن شخصين بسبب رفع الكلفة والتكاسل لا يلبثان أن يفقدا نغمة الحنان في أحاديثهما، ولكنهما يستطيعان استعادتها عن طريق العبارة المكتوبة.

وأخيراً، فإن القاعدة الختامية التي لا يكاد يعرفها أحد، هي التشبث بأهداب الخيال: "لماذا لا أزال أحن إليها بعد أن فزت بها؟ السر في ذلك هو أنها وإن كانت معي، فإنها لن تكون ملكي أبداً"، وهذه نقطة عظيمة في تقدير بعض النساء.

وعدم إملال المحبوب يكاد يكون فناً محفوفاً بالمخاطر إذا أدرك المحب الملل منه.

فهل هناك أيضاً فن يحول دون حدوث الحالة الأخيرة؟ أم أنه يجب الاعتراف بأن هناك نوعين من الرجال والنساء: النوع المخلص، والنوع غير المخلص، المستقر وغير المستقر، وأنه إذا كان شخص ما ينتمي إلى أحد النوعين، فلا جدوى مطلقاً من تظاهره بالانتماء إلى النوع الآخر.

وإني لأرى أن الطبيعة في جميع الأشياء تتولى تقديم مادة يجب أن تقوم الإرادة بضبطها، والرجال والنساء لا يولدون وفيهم عدم الاستقرار، وإنما تجعلهم يصيرون كذلك تجاربهم الغرامية الباكرة.

وقد يكونون عاطفيين بحكم طباعهم ثم يصادفون والدين من ذوي الطباع الباردة.

وإذا حدث هذا، فإنهم إذا كانوا من رعاة الأخلاق أصبحوا مخلصين وغير سعداء، أما إذا لم يكونوا كذلك فإنهم يصيرون غير مخلصين ودائمي القلق حتى يصادفوا "أنصافهم" المكملة، ومن ثم يتحولون فجأة وقد تصل حياة المغامرة إلى خاتمتها على حين غرة بفضل اكتشاف الزميل المناسب.

وإذا كان للضعف الجسدي أهمية ملحوظة، فهنالك أيضاً الضعف النفساني، والرجال ليسوا على الدوام في حالة جسدية مرضية، كما أن النساء كثيراً ما يغلب فيهن البرود، ولهذا فإن غزواتهن تمنحهن ما يرضى فيهن الكبرياء والخيال معاً.

وكبرياء الرجل أو المرأة في حالة فقدان الثقة بالنفس يجب تغذيته، ولقد سمع "بيرون" أول فتاة وقع في حبها وهي تقول: "كيف أستطيع أن أحمل نفسي على الاهتمام بهذا المشلول؟"، وبعد ذلك قضى بقية حياته وهو يثأر لنفسه.

وقد تقسو المرأة على "مجموعة الحيوانات" التي تعرفها؛ لأنها في صغرها كانوا يعدونها فتاة دميمة، ولهذا يحتاج احترامها لنفسها إلى تقوية، ولا بد لها من تأكيد قوتها باستمرار.

والطفولة الشاعرية، أي غير الحقيقية، كثيراً ما تتمخض عن خيال لا يمكن إرضاؤه أبداً، ولقد تنقل "شاتوبريان" من امرأة إلى أخرى؛ لأنه كان في صدر شبابه قد اكتوى بعذاب الكبت الجنسي، وحرم من النساء اللائي يستطعن أن يضعن لعذابه حداً، فأقام لنفسه مثلاً أعلى أنفق كل حياته في البحث عنه؛ لشد ما خاب أمله في العشيقة بعد العشيقة، حتى جاء اليوم الذي جعله تقدم السن فيه أكثر إدراكاً، فخيل إليه أنه عثر على رمز مثله الأعلى: "جولييت ريكامييه".

تنبع القداسة الحق من التواضع، واللطف، والبر، أكثر مما تنبع من "التجليات" الدينية والتقشف، وعلى هذا النحو يمكن التعرف على الحب الحقيقي، ليس بالهجمات العنيفة التي تشنها الشهوة العارمة، بل بما يسود الحياة اليومية من الانسجام الرائع الدائم.

وهناك قصة تروى عن راهبة شابة أقبلت على القديسة "تيريزا" تسألها أن تخبرها ما هي القداسة؟ وكانت الراهبة تتوقع أن تحدثها القديسة عن التصورات الدينية وما إليها، ولكنها بدلاً من ذلك أخذتها إلى دير كانت قد أنشأته حديثاً، وجعلتها تقضي فيه عدة أشهر، حيث لم

تصادف سوى انعدام وسائل الراحة، والصعوبات، وخيبة الأمل، والهزيمة، والعمل.

وأخيراً جمعت الفتاة أطراف شجاعتها وسألت متى يخبرونها عن القداسة؟ فقالت القديسة جواباً على سؤالها:

"ليست القداسة شيئاً أكثر من احتمالنا كل يوم في حب وصبر للحياة التي عشناها في هذا الدير".

إن المباهج العاطفية الرائعة التي ينعم بها جماعة المحظوظين من المتحابين، تشبه أيام الصيف التي يملؤنا فيها دفء الشمس باسترخاء سعيد إلى أبعد حد، حيث يبلغ من صفاء السماء أننا لا نستطيع أن نتصورها ملبدة بالغيوم، وحيث يصير أكثر قرى السهل تواضعاً، وكأنه انعكاس صورة جمال سحري في الضوء الذهبي، وأيام كهذه بذكرياتها المسحورة، والأمل في أن تجلب مثيلات لها أخريات تمنحنا القوة اللازمة والشجاعة على احتمال الأشهر القاتمة الحافلة بالعواصف.

ولما كان كل من الصيف والشهوة غير قادر على أن يتجاوز دورته الطبيعية، فمن واجبنا أن نتعلم حب الأيام الغبراء، وصبابات الخريف، وأمسيات الشتاء الطويلة.

ويقول "آبيل بونار" في هذا المعنى: "إن أصدق الحب مثله مثل ثوب فخم من ثياب الاحتفالات، مصنوع من حرير مشجر، ومبطن بحرير

لا نقوش فيه ولكنه يمتاز بلون لطيف نادر، حتى أن الإنسان ليكاد يفضله على الحرير المشجر".

ما هذه السعادة الأكثر رقة ورصانة التي تأتي في لحظات الحب الأولى لتحتل مكانها إلى جانب الرغبة الجنسية في حياء أول الأمر، ثم لا تلبث أن تبسط نفوذها بهدوء؟

من أي شيء صنع هذا الحب، الذي تلده الرغبة ثم يعيش بعد فنائها؟

من الثقة والعادة والإعجاب.

إن كل زميلاتنا من الكائنات الحية تقريباً تخدعنا غير أن القليلين منا قد عرفوا متعة لقاء امرأة أو رجل، يصدر في إخلاصه وصراحته عن طبع أصيل، وكان سلوكه في كل موقف تقريباً، على وفق رغباتنا، ولم يتخل عنا في أحرج أوقاتنا.

وهؤلاء القليلون، يعرفون ذلك الشعور الرائع، الثقة، وهم مع شخص واحد على الأقل يستطيعون في كل يوم ولفترة وجيزة من الوقت أن يرفعوا عنهم ثقل خوذاتهم، وأن يتنفسوا بحرية وأن يكشفوا عن وجودهم وقلوبهم دون خوف.

والثقة شيء ثمين إلى درجة أنها كالرغبة الجسدية تضفي على أتفه الأفعال جمالاً، والرجل والمرأة في أيام شبابهما كانا ينشدان الأماكن

الخالية كي يتعانقا، وهما الآن ينشدانها كي يفضي كل منهما إلى الآخر بأسرار فؤاده، ولقد أصبحت نزهاتهما على الأقدام، على مثل أهمية مواعيدهما الغرامية فيما مضى، وهما يفكران في الشيء الواحد في وقت واحد، وكل منهما يصيبه من الألم الجسماني إذا شكا الآخر ألما نفسياً، وكلاهما مستعد لأن يجود بالحياة نفسها في سبيل الآخر، والآخر يعلم ذلك.

ولا شك في أن الصداقة المثالية يمكن أن تتمخض عن مثل تلك المشاعر، ولكن الصداقات التي تحفظ فيها نادرة إلى أبعد حد، في حين أن الحب العظيم يستطيع أن يهب لأبسط الناس صحة الحكم، وإنكار الذات، والثقة بالناس.

كيف يمكن أن توصف حياة زوجين سعيدين في خريف غرامهما؟ كيف يمكن إيضاح أن الإله لا يزال إلهاً، مع أنه ربما كان قد اتخذ لنفسه مظهراً فانياً؟

إن سيمفونية السعادة التي يتولى أمر موسيقاها مؤلف عبقري قد تكون عملاً رائعاً، كما أن موسيقياً قليل المواهب قد يفضل شيئاً من النغم الصاخب، على أن الألحان المتصاعدة الصافية في بعض المعزوفات الموسيقية الشهيرة، وهي ترتفع بروح سامعها إلى مراق غير مألوفة، تكون أقدر من الكلمات على إيقاظ التسامي القوي الطبيعي في

انسجام لا يمكن أن ينال منه شيء، ومن هذه الألحان مقدمة "بارسيفال" من موسيقى "فاجنر"، واللحن الجنائزي من موسيقى "فوريه".

وإذا كنت قد أشرت إلى "اللحن الجنائزي" فإن فكرة الموت هي الهنة الوحيدة في تلك الموسيقى التي تكاد تتجاوز حدود الكمال، ولقد عبر "كافنتري باتمور" بقصيدة من روائع شعره، عن شدة حزن رجل وجد نفسه فجأة، بعد حياة طويلة حافلة بالسعادة، إزاء الجسد المسجى للمرأة التي كانت هي الدنيا بأسرها بالنسبة إليه، فلم يلبث أن راح يعاتبها على هجرها إياه في أسى والتياع وحنان:

ما هكذا كان عهدي بوفائك العظيم الرحيم..

أنت التي ليس لها ما يبعث في نفسها لوعة الحزن!

ألا تندمين يا غرامي؟

على أنك ذهبت ..

عصر ذلك اليوم من أيام الصيف.

وعلى شفتيك عبارة مفاجئة غير مفهومة.

وفي عينيك نظرة مذعورة.

إلى رحلة سوف تطول أياماً، وأياماً..

دون قبلة واحدة، أو كلمة وداع؟

كل هذا لم يكن من مأثور وفائك الرحيم العظيم في شيء!

حين يجعل الإنسان كل شيء في حياته، رهيناً بوجود إنسان واحد سريع العطب، فإن ذلك يكون نبلاً منه، ومصدر خطر عليه.

على أن الموت نفسه ليس لديه أي قوة تستطيع أن تقضي على الحب الأعظم.

ولقد حدث مرة أنني قابلت في إسبانيا عجوزاً من الفلاحات تمتاز بوقار غير عادي، وإن أنا لا أنسى قولها لي: "أوه .. ليس عندي ثم ما يدعو إلى الشكوى.

لاشك في أن حياتي كان فيها متاعب، فحين كنت في العشرين، أحببت شاباً أحبني فتروجنا، وبعد أن مضى على زواجنا أسابيع قلائل قضى نحبه، ومهما يكن من شيء، فإنني قد فزت بنصيبي من السعادة، ثم قضيت السنوات الخمسين الأخيرة وأنا أفكر فيه".

ويا له من عزاء، على تعاقب سنوات من الحزن والوحدة، أن يستطيع الإنسان ابتعاث ذكرى واحدة على الأقل لا تشوبها شائبة!

وبفضل حب عظيم كهذا، يملأ أفكارنا وأحلامنا بالصور المشرقة، تظفر بقسطنا من شيء يسمو عن مدى إدراكنا، ومن الاصطدام الخاطف بين غرائزنا تومض شرارة مقدسة.

على أن آخر كلمة عن فن الحب، لم يقلها "ستاندال"، بل —كما قال "ستاندال" نفسه في مناسبات كثيرة – قالها "موزار" الموسيقى المعروف، اذهب إلى حفلة موسيقية وأنصت إلى تلك الألحان الصافية، والإيقاعات الرائعة، فإذا خيل إليك عند ذاك، أن حبك فيه اختلاط، وحدة، ونشاز، كان معنى ذلك أنك لم تزل في فن الحب مبتدئاً مفتقراً إلى التجربة والمران.

أما إذا كنت في شعورك مدركاً لهذا الاستيعاب التدريجي للجمال، هذا الفهم الرائع، هذا التوفيق البارع بين التيارات المتعارضة المصطرعة على نحو يتخطى حدود كل نشاز، فإنك تكون قد دخلت في مغامرة من المغامرات القليلة في الحياة الجديرة بأن يمر بها الناس: حب عظيم!!

فن الزواج

إذا كان فن الحب، هو فن تحويل الرغبة الهائمة إلى عاطفة دائمة، فإن من واجبنا أن ندرس حالة رجل تعتمل في نفسه تلك الرغبة، فيقول له القانون: "قف! إنك لا تستطيع الإذعان لغرائزك الطبيعية، إلا إذا وقعت عقداً يربطك رباطاً قانونياً بالمرأة التي تتجه إليها رغبتك، وبالأطفال الذين قد يولدون نتيجة معاشرتك إياها".

وهذه الرابطة يصعب التحرر منها على أي حال، على وفق ما يقضي به الزمن والعادة.

فالمسلم يستطيع أن يطلق زوجته بمجرد ترديده عبارة بسيطة، أما من يعتنق المذهب الكاثوليكي، فإنه لا يستطيع أن يفعل مثل ذلك، ويتزوج مرة أخرى، إلا إذا منحته الكنيسة إذناً بإبطال زواجه الأول، وهو إجراء عسير وكثيراً ما لا يقدر له النجاح.

وبين هذين النقيضين كثير من الخلود الوسط، وهذه الرابطة القانونية تفرض في بعض الأحيان فرضاً مشدداً، حيث يخفف من وطأة المعاشرة الإجبارية، خيانة تحدث في الخفاء، أو تحتمل على مضض، وفي بعض الأحوال على نحو ما يجري في أمريكا: تحل الرابطة القانونية

بمزيد من السهولة، ومن ثم يتم الزواج الجديد، وهو نظام يرى البعض أنه أكفل لصيانة الاعتبارات الخلقية.

ومهما بلغ من صلابة الرابطة أو مرونتها، فإن شعائر الزواج وعقوده في كل بلاد العالم تقريباً، مطلوبة من الرجال والنساء، وفي اعتقادي أن هذا هو الوضع السليم، وسأحاول تعليل ذلك، ولكن أعداء الزواج يجب أن يسمح لهم بالكلام أولاً.

إن أول الاعتراضات على مبدأ الزواج، وأكثرها انطواء على الجد، قد عبر عنه "شيللي" خير تعبير إذ قال إن الحب يموت إذا تعرض للكبت، وإن النزوات العاطفية الجامحة لا يمكن أن تخضع لحكم القانون، ولكن إذا صح أن الحب لا يمكن أن يتفق مع رابطة قانونية، فلماذا فرضت هذه الرابطة فرضاً ؟

وهنا يقول المعارضون (ويجب أن نذكر أنهم جميعاً من الرجال): "لأن من مصلحة النساء أن يحتجزوا إلى الأبد أولئك الرجال الذين تسرعوا كثيراً فوقعوا في حبهن".

ويقول "برنارد شو" مثلاً في كتابه المعروف "الإنسان والإنسان الكامل": إن الرجال يحتملون الزواج كارهين، ولكن النساء يرغبن فيه من كل قلوبهن، ولقد أجرى على لسان "دون جوان" في كتابه المذكور هذه الرواية:

"حينما كنت من سكان البسيطة، وتقدمت بتلك المقترحات إلى سيدات كن برغم كونهن من طريدات المجتمع، قد صنعن مني بطلاً هائلاً من أبطال الأساطير، لم أكن أقابل في قليل من الأحيان بمثل هذه الطريقة، كانت السيدة تقول أنها سوف تتقبل اتصالي بها ما دام شريفاً، فلما سألت عن معنى هذه العبارة عرفت أن معناها أن علي أن أستولي على ممتلكاتها إذا كان لها أي ممتلكات، أو أتولى الإنفاق عليها طول حياتها إذا لم تكن تملك شيئاً، وأن علي أن أصحبها صحبة دائمة، وأن أستشيرها وأجاذبها أطراف الحديث حتى آخر أيام حياتي، كما أن علي أن أفرض على نفسي التزامات تجعلني على الدوام عرضة لتوقيع العقوبات، وفوق كل شيء أن أدير ظهري إلى الشروط لأنها كانت خيالية وغير إنسانية.

على أن شططهن العجيب كان السبب في أنني قد أسقط في يدي، ولقد أحببت على وجه العموم بكل صراحة بأنني لم أحلم قط بشيء من تلك الأشياء، وأنه إذا لم تكن السيدة تفوقني أو تعادلني من حيث الشخصية والثقافة، فإن أحاديثها لن تلبث أن يهبط مستواها، ومشوراتها لن تلبث أن تضللني، كما أن صحبتها الدائمة – فيما أعلم – قد تصبح مصدر ضجر لا يحتمل بالنسبة لي، وإنني لا أستطيع أن أتنبأ فضلاً عن مستقبل أيامي حتى آخر العمر، وإن اقتطاعي من كل العلاقات الطبيعية الاختيارية التي تربطني بإخواني في البشرية، من شأنه أن يضيق أفقي ويشوهه، إذا أنا أذعنت له، وإلا فإنه سيجلب على لعنة المجهول، وأخيراً فإن كل مقترحاتي عليها لم تكن لها أي صلة على الإطلاق بأي

أمر من تلك الأمور، بل كانت نتيجة إحساس بسيط للغاية من جانب رجولتي نحو أنوثتها".

ومن الواضح أن مدار حجة المعارضين لمبدأ الزواج هو أنه نظام الغرض منه دعم شيء لا يمكن دعمه، وتحقيق الدوام لشيء لن يدوم، والكل متفقون على أن الحب الجسدي كالجوع والظمأ من حيث كونه غريزة طبيعية، ولكن دوام الحب ليس غريزياً، فإذا اتفق –كما هي الحال مع رجال كثيرين – أنه لم تكن هناك مندوحة عن أن يلتمس الحب الجسدي بعض التغيير، فما ذلك الوعد المبذول بالتفاني حتى آخر العمر؟

يقول أعداء الزواج إنه يقضي على شجاعة الرجل، وقوة تفكيره، ويقول الكاتب الفرنسي الأشهر "رومان رولان": إن الرجل المتزوج لا يزيد عن نصف رجل، ويتحدث الشاعر الإنجليزي "لورد كبلنج" عن ضابط ممتاز في الجيش اسمه الكابتن "جادسبي" أقدم على الزواج، فجعل من نفسه زوجاً مثالياً، وضابطاً تافهاً، فبدافع من رغبته في الحرص على حياته من أجل زوجته، لم يعد يؤدي واجباته العسكرية بنفس الشجاعة والحماسة.

كما أن الوزير السياسي العظيم "أرستيد بريان" قد صرح بأن رجل الدولة لا ينبغي له أبداً أن يتزوج وهو يقول في ذلك: "انظروا إلى الحقائق، كيف استطعت طوال سنوات عملي الشاقة أن احتفظ بهدوئي،

في المساء بعد كفاح يوم حافل، كان في وسعي أن أنسى ... لم تكن لي زوجة طموح غيور تذكرني بنجاح زميلي، وتخبرني بالأشياء الكريهة التي كانت تقال عني، وهذه هي قوة أولئك الذين يعيشون وحدهم".

إن الزواج يزيد الرجل ضعفاً؛ لأنه يضاعف له رقعة الشراع المعرض لأنواع الحياة الاجتماعية.

أو لم تعمد الكنيسة الكاثوليكية، وهي تفضل الزواج على العزوبة إلى التنويه بما في حياة العزوبة من وقار فائق، حيث فرضتها على قساوستها ؟ أو لم يصرح الأخلاقيون مئات المرات بأنه ليس في الدنيا أسخف من فيلسوف متزوج ؟ وذلك لأنه حتى إذا استطاع أن يتخلص من مواطن ضعفه، فإنه لا يستطيع أن يخلص زوجته من مواطن ضعفها، وهذا صحيح أيضاً إذا كانت المرأة هي الممتازة بمواهبها الروحية، يقول أعداء الزواج: "إن حياة الزوجين تقوم على المستوى العقلي للطرف الأدنى بين الطرفين يؤلفانها".

إن الرجل والمرأة اللذين يتفقان في أيام شبابهما على نبذ الحياة العاطفية إنما يتخليان بذلك عن السعي وراء المغامرة، ونشوة المصادفات الجديدة، والانتعاش المدهش الذي يسفر عنه الوقوع في الحب من جديد.

إن نبع النشاط الحيوي الأهمية إلى أبعد حد، قد تقطعت بينه وبينها الأسباب، فهما مقضي عليهما بمثل غفلة الأحداث، وحياتهما التي

لم تكد تبدأ قد انتهت ولا شيء يستطيع أن يذود شبح السآمة عن حياة لحمتها الأعباء وسداها الواجبات: لا جديد من الآمال، ولا المفاجآت، ولا الغزوات، وسرعان ما يذبل حبهما الوحيد بفضل مسئوليات المنزل وتعليم الأطفال، ولسوف يبلغان سن الشيخوخة دون أن يعرفا شيئاً من مباهج الشباب، إن الزواج يقضي على الحب الشاعري الذي هو المسئول الوحيد عن قيام ذلك الزواج!

هذه هي حجة أعداء الزواج، وهي أبعد ما تكون عن الضعف، ولكن نظام الزواج في الواقع قد تعرض في غضون سبعة آلاف من السنين لمتاعب سياسية واقتصادية ودينية، استطاع أن يتغلب عليها جميعاً، وبدلاً من أن ينهار ويختفي اشتد عوده واستفحل أمره، فلنحاول أن نفهم الأسباب الاجتماعية الجوهرية التي كفلت له البقاء.

إن الكائنات البشرية أنانية بحكم طبيعتها، وليس هذا جرماً، فهكذا ينبغي أن تكون حتى تكفل لنفسها البقاء، ولديها غريزة المحافظة على النفس التي تدفع بها – كما يقول – "سبينوزا"– إلى أن "تحافظ على بقائها" ، ومن ثم تحصل على الأمن، والغذاء، والمأوى، حتى وإن كان ذلك على حساب غيرها من الكائنات الحية، ولو أن هذه كانت غريزتها الوحيدة، لكان من المستحيل أن ينشأ، ومن المستحيل أن يدوم بقاء المجتمع الإنساني؛ لأن الرجل كان سيصبح بالنسبة إلى زملائه حيواناً متوحشاً خطراً.

وغريزة المحافظة على النفس في المدنيات البدائية تخضع لغريزة أخرى لا تقل قوة عنها: هي غريزة القبيلة، فالرجال البدائيون، كالذئاب أو القردة تعيش في قبائل لأنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها بمفردها، والقبيلة تتطلب التفاني الغريزي وتناله من الفرد، لتحقيق الأمن المشترك، والذئب والرجل كلاهما يضحي بنفسه في سبيل ذلك الأمن، وفي هذا شيء من غريزة المحافظة على النفس؛ لأن القبيلة إذا ما تعرضت للغزو، فإن كل واحد من أعضائها يقضي عليه القضاء الأخير.

ولكن الحياة حين تفقد بعض مخاطرها، وحين تقلل الحضارة من مجازفات الحصول على الطعام، وتلزم الحيوانات المفترسة غاباتها وتصبح الحدود موضع الاحترام إلى حد ما، تتلاشى غريزة القطيع هذه، وتحل محلها الأنانية.

على أنه لا بد من السيطرة على الأنانية، وإلا تعذرت الحياة في المجتمع الإنساني، فلن يكون هنالك تشارك في الملكية، كما أن القوة سوف تستخدم عندئذ بغير رحمة، والضعفاء يصبحون عبيداً.

كيف يمكن السيطرة على هذه الأنانية ؟ بتسبيب الصراع بين غريزة المحافظة على النفس وغيرها من الغرائز التي تعادلها في القوة، ولا يوجد من هذا النوع سوى غريزتين اثنتين: الغريزة الجنسية، وغريزة الأمومة.

وحتى الوحوش الكاسرة يتحول ما فيها من قوى الافتراس إلى حنان وتدليل في أوقات الوصال والأمومة، ولكن هذه الهدنة من جانب الأنانية

موقوتة قصيرة الأجل، وبعد أن يتم إرضاء الغريزة الجنسية ويشب الصغار عن الطوق مباشرة ينفرط عقد المجموعة العائلية الصغيرة ويعود أفرادها إلى حياة التوحش ويستأنف القتال.

وعلى العكس من ذلك، حدثت معجزة الجمع بين المخلوقات البشرية ذات الأنانية الوحشية وتحويلها إلى جاليات اجتماعية قوية تصمد في وجه الزمن، فكيف كان ذلك؟

إن هذه العملية إذا قدر لها النجاح، هي عبارة عن تكوين جالية من الخلايا الاجتماعية أو العائلات يمكن فيها القضاء على الأنانية بسهولة؛ لأن ذلك يحدث بصورة طبيعية بفضل الرغبة الجنسية والأمومة.

كيف يستطيع الإنسان أن يبني خلية اجتماعية دائمة على أساس من الرغبة الجنسية في حين أنها كثيراً ما تغير هدفها؟

كيف يحول الإنسان الغريزة إلى مؤسسة؟

إن قبائل الآدميين الرحل التي كانت تعيش قبل أن يعرف الزواج المنظم كان لديها شعور مدهش أوحى إليها أن تجعل الرجال يقطعون العهود على أنفسهم، في الوقت الذي تجعل فيه الغريزة الجنسية ذلك سهلاً ميسوراً.

ونحن نعرف جيداً أن هذا النوع الباكر من الزواج يختلف عما عندنا الآن، وإنه كانت هناك جاليات فيها زيجات وفيها حالات تعدد

زوجات وغير ذلك، ولقد دأب الزمن على تطوير تلك العلاقات البدائية إلى نوع من أنواع العقود يكفل طول عمر الرابطة بين الرجل والمرأة، وحماية المرأة من الرجال الآخرين، وإعالة الأطفال والشيوخ، وأخيراً صنع ذلك النسيج لا يعنيه كثيراً ولا قليلاً، وإن الحياة عنده ليست سوى تجدد دائم للرغبة والمتعة دون قيود.

ولكن، هل صحيح أن الحرية في التعبير ضرورية، أو حتى مستحبة لتحقيق السعادة؟

وهل نجد أولئك الذين يعيشون هذا النوع من الحياة أسعد أو أكثر نصيباً من الحرية من غيرهم؟

كلا بكل تأكيد، إن المشاكل التي تجعل من الزواج أمراً عسيراً (المشاحنات، والغيرة، وعدم التجدد، واختلاف الأذواق) تتشابه في جميع العلاقات، والحب الحر ليس حراً، فلتتأمل قصة "لست" الموسيقار، مع مدام "داجول" واقرأ من جديد في رواية "آنا كارنينا"، الفصل الخاص بهرب "آنا" مع "رونسكي".

إن "رونسكي" يشعر بأنه أسلم ارتباطاً من رجل يبدأ رحلة زواجه؛ لأن عشيقته تخاف أن تفقده.

إن الكلمات والإشارات التي تقترن بكثير من الأهمية لدى زوجين يكون لها أسوأ الأثر لدى الرجل والمرأة اللذين لا تجمع بينهما رابطة

قانونية، حيث يثب إلى ذهنيهما السؤال المشئوم على الفور: "هل انتهى كل شيء؟".

لم يكن يستطيع أن ينفذ "رونسكي" أو اللورد "بيرون" سوى القسوة المطلقة، ولكن "بيرون" لم يكن في حقيقته قاسياً، بل كان مرغماً – دون رغبة منه على الإطلاق– على أن يسافر ويحارب الأتراك حتى لا يجرح شعور عشيقته، ومهما بلغ إيلام متاعب زواجه، فقد أراد "بيرون" أن يصالح المجتمع بتجديد علاقته.

ومن المحقق أنه قد يحدث – لا سيما في البلاد التي ليس فيها زواج – أن يضطر رجل وامرأة إلى المعيشة معاً – بحكم الظروف– دون إجراء قانوني ولكن مثل هذين الزوجين غير الشرعيين لا ينجوان من متاعب المستقبل إلا في النادر.

وهكذا يكتشف "دون جوان"، وعشيقته أيضاً، أن الزواج يمنح الرجل والمرأة أحسن الفرص للوصول إلى علاقة مرضية.

فالرابطة الاجتماعية لا تعترض سبيل الحب، بل تمنحه مزيداً من القوة، وفي بداية كل علاقة غرامية تجعل الرغبة كلاً من الرجل والمرأة أقدر على فهم صاحبه وتقديره، فإذا لم يكونا متزوجين فإن مشاحناتهما الأولى قد تقضي على كل ما بينهما، وإذا كان الانفصال سهلاً إلى درجة تزيد عما ينبغي فإن أتفه مناقشة قد تتسبب فيه، فإذا أصيب أحد

المتحابين بمرض عضال، فإن الآخر قد تدركه الملالة، ومن ثم يتحطم زورق الحب على صخرة ذلك المرض.

ومن جهة أخرى، فإن الأمر يكون على العكس من ذلك بين الشخصين المتزوجين، فقد يكون المرض بمثابة فرصة متاحة تظهر فيها الرعاية القلبية المخلصة التي من شأنها أن توثق الصلة بين الزوجين، وكذلك تقدم السن الذي لا يستطيع إدراكه سوى القليل من العلاقات غير الشرعية، فإنه يزيد الزواج قوة حتى لا يكاد يتطرق إليه أي وهن.

فالزواج هو الرابطة الوحيدة التي يستطيع الزمن تقويتها.

وهو نوع من العلاقة المقدر له – أدق التقدير– أن ينمي التعاطف والتفاهم بين الجنسين، وبالنظر إلى وفرة معرفته بامرأة واحدة، وما اكتسبه منها من المعرفة بشئون النساء بصفة عامة، فإن الرجل السعيد في زواجه يكون أحكم وأثقب نظرة إلى الحياة من "دون جوان" الذي كان يناصب النساء العداء.

والرجل الأعزب خارج على المجتمع، وحريته حرية فوضوية ومن تتقدم به السن دون أن يتزوج رجلًا كان أو امرأة يشغل باله طول التفكير في نفسه بصورة تنطوي على الخطر، وقد يفقد الاتزان العقلي.

ومن لم يتزوجوا من عظماء الفنانين (بلزاك، ستاندال، فلوبير، بروست) قد يكونون متمتعين بكامل قواهم العقلية، ولكن العزوبة بلا شك خطر على الرجل العادي.

ولنصرف النظر عن الفنان، الذي هو شخص غير عادي، والذي يعيش معظم حياته دون أن تحكمه قوانين العالم الواقعي؛ لأنه يهرب منها إلى قوانين من نسج خياله، ولنفكر في الحلول الممكنة بالنسبة إلى الأشخاص العاديين غير المتزوجين.

لقد عمدت جماعات صغيرة من الرجال والنساء إلى محاولة إدراك السعادة عن طريق الانغماس في الملذات، ولقد كتب عن مثل تلك الجماعات كل من الكاتب الإنجليزي "آلدس هكسلي" والقصصي الأمريكي "أرنست همنجواي" وأعجب أمورهم هو ما كان يخيم على الحياة التي عاشوها من فاجع الحزن والسآمة.

وهل يستطيع أحد أن يتصور امرأتين أكثر تعاسة من "لادي بريت" في رواية "إن الشمس أيضاً تشرق"، أو من "أوسي تانتاماونت"، في رواية "نقطة ضد نقطة".

إن الرجل المبتذل يرفض أن يجعل من رغبة جسده حجة يعلل بها مشاعر عميقة وطويلة الأجل، والتكرار الآلي للعملية الجنسية قد يساعده بصفة مؤقتة على نسيان ما يخالج نفسه من اليأس كما يفعل المخدر أو المسكر، ولكنه إنما يقطع ما بينه وبين كل إحساساته الحية، وربما كان

هذا باستثناء رعب الحياة، والموت المقترب على نحو ما، يقترن بحياة الاستهتار في كثير من الحيان.

ولقد بلغ من ضجر المبتذلين في القرن الثامن عشر، وضيقهم بفحش مبادئهم أن اتخذوا من قصة "هلواز" العاطفية موضوعاً لقراءتهم المفضلة.

وتعاقب العلاقات الغرامية يزيد المشكلة تعقيداً، فليس من السهل أن تعيش المرأة مع زوج، وليس بالأسهل من ذلك أن تعيش مع عشيق، ومثل تلك العلاقة تنتهي بالرجل أو المرأة حين تتقدم السن، إلى حياة الوحدة الموحشة، وقلما يساعدان بذلك على إسعاد الأطفال.

والحضارات القائمة على تعدد الزوجات قد أفسحت الطريق دائماً للحضارات التي تقوم على نظام الزوجة الواحدة، فتعدد الزوجات ينجم عنه إضعاف الرجال، ويقضي على جمال البيئة التي يكون شائعاً فيها، وهو على أي حال غريب عن أذواق ومطالب نساء عصرنا الحديث.

ولنتأمل تطور العادات الاجتماعية في روسيا في غضون السنوات القلائل الماضية.

ففي بداية الثورة تمنى كثير من الرجال والنساء أن يضيقوا الخناق على الزواج أو يزعزعوا أركانه حتى يصبح مجرد اسم لا حقيقة له، ويبدو

اليوم أنه بفضل جهود المرأة بصفة خاصة استعاد الزواج وضعه السليم وبناءه المتين.

ولقد قرأت في كتاب عن شباب روسيا أن مجموعة من الشباب حاولوا أن يقضوا حياتهم دون زواج، وقد كتبت شابة في هذه المجموعة إلى حبيبها تقول: "إنني أريد لنفسي قليلاً من السعادة ليست عظيمة، ولكن مشروعة وأنا أحلم بركن هادئ أستطيع أن أكون فيه وحدي معك، ألا يستطيع المجتمع أن يفهم أن هذا إنما هو ضرورة إنسانية ؟".

والحق فيما يبدو، هو أن زواج المرأة الواحدة الذي يهون الطلاق قيوده في بعض البلاد كما تهونها في بلاد أخرى الخيانة لزوجية المصبور عليها، إنما يتغلغل في حضارتنا الغربية باعتباره الحل الذي ينطوي على أقل الآلام بالنسبة لأكبر عدد من الناس.

وكثيراً ما يحدث أن تكون خبرة المحب الحرة، والحب نفسه هما جذور الزواج، ولكن الحال لا تكون كذلك في جميع الحالات.

فالكثير من الحضارات القديمة وكل المدنيات الشرقية على وجه التقريب تفرض زيجات مضادة لرغبة أحد الطرفين المعنيين أو كليهما، وفي فرنسا كان الزواج في القرن التاسع عشر مسألة "ترتب" ويمهد لها، أحياناً بمعرفة القس، وأحياناً بمعرفة مدبرين محترفين، أو مسجلي عقود وفي معظم الأحيان كان يتولى أمر تدبير الزواج أسرتان يعنيهما ذلك الأمر.

ولقد كان الكثير من تلك الزيجات سعيداً، بل كان في بعض الأحيان أكثر سعادة من معظم الزيجات التي قامت على أساس من الحب المتبادل، وذلك مما لا يصعب فهمه.

فالحب العنيف يعطي صاحبه صوراً عن الناس لا تفصح عن حقائقهم، والرجال الغارقون في الحب إلى آذانهم، يطمعون من الزواج في أن يمنحهم قدراً هائلاً من السعادة، ولهذا لا يلبثون أن تدركهم خيبة الأمل فيه.

وفي الولايات المتحدة من زيجات الحب ما يزيد عما في أية بلاد أخرى، ولكن الأمريكيين كثيراً ما يعمدون إلى الطلاق بعد فترات قصيرة من زواجهم.

تقول "روسي دي سال"، وهي فرنسية تعيش في أمريكا وتعرفها جيداً: إن الكثيرين من الشباب الأمريكي يتوقعون أن يجدوا حين يتزوجون حباً لا تشوبه شائبة، فهم قد أنفقوا وقتاً طويلاً في دور السينما التي عرفوا فيها أن الحب هو أن يذهبوا بالفتيات الجميلات الأنيقات في رحلات إلى الريف المتجدد الجمال، وعرفوا كذلك أن كل شجار بين عاشقين ينتهي بقبلة طويلة.

ولكن أحداً لم يقل لهم أن الرحلات متعبة وباهظة التكاليف، والريف الجميل ليس من السهل العثور عليه، وأن رفقاء السفر متقلبو المزاج وعصبيون، كذلك لم يبح لهم أحد بالسر في أن سيدات

"هوليوود" جميلات فقط لأن ورائهن جيشاً من الحلاقين وأخصائيي التجميل والمدلكين، ولم ينبههم أحد إلى أنهم في غضون حياتهم الزوجية سوف يتعين عليهم أن ينظروا مرات ومرات إلى امرأة في ثياب المنزل شعرها غير مصفوف، ومزاجها منحرف، كما أن أحداً لم يقل للزوجة الصغيرة أن الرجال أنانيون وكثيراً ما يدكهم الإعياء بسبب الإجهاد في العمل، وأنهم غير صبورين وسريعو الغضب.

فما هي النتيجة؟

إن الزوجين معاً سرعان ما تستولي عليهما خيبة الأمل، وبدلاً من أن يقول كل منهما لنفسه "ليس في هذه الدنيا شيء كامل منزه عن النقص حتى الحب"، فإنهما يظنان أنهما قد أساءا الاختيار، وأن الكمال لا شك موجود في شخص آخر، وعندئذ يحصلان على الطلاق كي يستأنفا البحث.

ومن المحقق أن العلاقة الجديدة لا تؤدي بهما إلى الاقتراب من ذلك "الكمال" المستعصي على البحث، وهما يمضيان في تكرار الزواج والطلاق إلى أن تتقدم بهما السن، وتؤدي بهما التجربة التي اكتسباها بعد كل ما مر بهما إلى الرضا بذلك التسامح الزوجي الذي كان ينبغي أن يقنعا به في حالة غرامهما الأول.

وفي كثير من جامعات أمريكا اليوم، تدرس قليل من المبادئ الفلسفية الخاصة بالحياة الزوجية.

ومن النادر أن زوجًا وزوجة يرقدان في نومهما بطريقة واحدة، أو لهما نفس الأفكار عن القراءة في الفراش، وعن عدد الأغطية ودرجة حرارة الغرفة، ونوع وجبات الطعام، وهذه الأمور التي لا يمكن تسويتها إلا إذا كان كلاهما على أدب جم، ويمتاز بروح المرح، والمقدرة على بذل التضحيات الشاقة.

والتغاضي عن أسرة وأصدقاء الشخص الآخر الذين يوحون بعدم الثقة في بادئ الأمر، بل يوحون بالعداء في بعض الأحيان يتطلب جهداً عظيماً من قوة الإرادة وكثيراً من سعة الصدر، وبهذا وحده يمكن أن تأتلف مجموعتان مختلفتان.

وهناك حالات عرضية تحرز فيها العلاقة الجسدية الناجحة بين شخصين ملتهبي العاطفة نجاحاً مباشراً وممتعاً، وفي أحيان أكثر – على أي حال – تعطي المرأة رجلها المتعة دون أن تحظى بمثلها، ويزيد من عذابها ما قرأته من الروايات والقصائد الشعرية الحافلة بالسحر وما تلاقيه في الواقع من سوء العرض.

على أن المسايرة الصابرة والاحتمال المشترك والكثير من الفهم الذكي والانطواء على النفس تماماً، أحياناً كل ذلك يكون ضرورياً لا غنى عنه قبل تحقيق التوازن الجسدي، وهذا ينطبق على زواج الحب بقدر ما ينطبق على زواج "المصلحة"!

وقد عرض "بلزاك" في كتابه "مذكرات زوجتين شابتين" لوصف نوعي الزواج بكلام لا يزال صحيحاً حتى يومنا هذا بالنسبة لأولئك الذين يستطيعون إدخال التغييرات الضرورية على مفرداتهم اللغوية وعلى طباعهم.

فلقد كتبت إحدى بطلتيه "رينيه دي لستوراد" إلى صديقتها تقول: "إن الزواج يمنح الحياة، في حين أن الحب لا يمنح سوى لذة الجسد، والزواج يستطيع أن يبقى بعد انقضاء اللذة الجنسية، ويفسح المجال لاعتبارات أخرى أغلى قيمة إلى حد بعيد، ولهذا فإن الزواج السعيد قد يقوم على تلك الصداقة التي بفضل جوهره الممتاز، تغطي كثيراً من الضعف الإنساني بطبقة براقة ناعمة".

ومن الناحية الأخرى تتزوج صديقتها "لويز دي شوليي" زواج حب، وتفسده بغيرتها المسرفة، وتتسبب في موت زوجها وأخيراً تجلب الدمار على نفسها.

ونظرية بلزاك ترمي إلى أنه إذا أمكن الجمع بين الصحة والذكاء وطيب الأرومة والأذواق والمركز الاجتماعي استطاع الشابان الصحيحان إدراك الحب.

والواقع أنه منذ الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) أخذ زواج المصلحة يختفي من فرنسا شيئاً فشيئاً بعد أن كان شيئاً مألوفاً في عصر

"بلزاك" والجيلين اللذين جاءا من بعد جيله، كما يحدث في بلاد أخرى حيث تحتل مكانه الخيرة الحرة لشخصين يلتقيان بمحض المصادفة.

فما سر هذا التطور؟

السر فيه هو أن جمع الثروات الطائلة واختزانها قد أصبح أكثر الأفكار سذاجة وبعداً عن واقعية الحياة.

ولقد حدثت الكثير من التغيرات السريعة، ووقعت الكثير من الكوارث المالية غير المتوقعة حتى لقد طاشت أحلام الطبقة المتوسطة، وحين تختفي وسيلة النظر إلى المستقبل فمن العبث أن يكون الإنسان حكيماً.

يضاف إلى هذا حقيقة أخرى، وهي أن شباب اليوم يعيش حياة أكثر تحرراً مما مضى وأن فرص اللقاء المتاحة تزداد اتساعاً.

كما أن المركز الاجتماعي ومهر الزواج قد حل محلهما جمال الصورة ولين العريكة وتوافق الأذواق في الرياضة البدنية والجاذبية الجسدية أو الفكرية.

ومهما يكن من شيء، فإن الجاذبية المتبادلة من الناحيتين الجسدية والفكرية، لا تكفي وحدها لتحقيق السعادة الزوجية.

وبغض النظر عما إذا كان الدافع إلى الزواج هو الحب أو المصلحة، فإن المطلب الجوهري الذي لا غنى عنه هو وجود الرغبة الصادقة لدى كل من الطرفين المتعاقدين في وقت الخطبة في إنشاء علاقة دائمة.

وإذا كان "زواج المادة" عند الفرنسيين في القرن التاسع عشر بين أبناء وبنات الطبقة الوسطى ليس بالزواج الحقيقي إلا في أحيان نادرة، فذلك مرجعه إلى أن الرجل يتزوج "مهراً" كأن يقول لنفسه في أيام الخطبة "أنا مللتها، فسوف أخونها مع نساء أخريات".

والزواج القائم على رغبة الجسد يمكن أن يكون على درجة مماثلة من عدم النجاح إذا نظر إليه الزوجان باعتباره مجرد تجربة، وإذا كانت المرأة تقول لنفسها وهي مخطوبة: "إذا ظهر لي أنه لا يدخل السرور على نفسي، فسوف أحصل على الطلاق".

ويجب على كل من الزوجين أن يقسم قسماً غير منطوق به، إذا كان مقدراً لهما أن يكبحا جماح نزواتهما ونزعاتهما المختلفة، وإنه لقرار رائع ذلك الذي يتخذه الواحد من الزوجين حين يقول: "إنني أقيد نفسي مدى الحياة، وهذه هي خيرتي، وسوف تكون غايتي دائماً، لا أن أبحث عمن يدخل السرور إلى قلبي، بل أن أدخل السرور على قلب من وقع عليه اختياري".

ومع ذلك فإن هذا القرار وحده كفيل بأن يسفر عن زواج ناجح، وإذا لم يكن القسم مخلصاً فإن فرص السعادة تكون ضئيلة جداً أمام الزوجين؛ لأنها سوف تتعرض لاحتمال التبدد حين تصادفها العقبات الأولى، وصعاب الحياة التي لا مفر من مواجهتها.

والمصاعب العامة في الحياة أقوى كثيراً من الشخصين اللذين ينبريان للتغلب عليها، وأهم أسباب هذه المصاعب هو الاختلاف بين طرق الجنسين في المعيشة وفي التفكير.

ونحن في أيامنا هذه أكثر ميلاً مما ينبغي إلى تجاهل أهمية ذلك الاختلاف، فتعليم المرأة يشبه تعليم الرجل إلى حد بعيد، والنساء يقمن بأعمال الرجال بكفاية ملحوظة، ولهن حق الانتخاب في كثير من بلاد العالم.

وهذا عدل.

غير أن هذه المساواة لا ينبغي أن تجعل الرجال ينسون أن النساء لم يزلن نساء.

يقول "أوجست كونت" في تعريف الجنس المؤنث أنه هو الجنس المؤثر العاطفي، ويقول في تعريف الجنس المذكر أنه الجنس العامل.

وينبغي أن يفهم من هذا أن في النساء صلة أقرب كثيراً مما في الرجال بين العقل والجسم، وأفكار المرأة أقل غموضاً من أفكار الرجل.

والرجال يحبون أن يبتكروا الخطط، وأن يتخيلوا العالم على غير صورته الراهنة، وأن يحلقوا في أفكارهم، وفي أفعالهم أيضاً إذا سمحت الظروف.

ووقت النساء أضيق كثيراً، ولهذا لا يسمح لهن بعمل الكثير؛ لأنهن ينهمكن عن رغبة أو عن غير رغبة في الانشغال بالحب وشئون الأمومة.

وفي بعض أنواع الكائنات الحية تنفرد الأنثى وحدها بالأهمية، حيث لا يقوم الذكر بأي دور، إلا في لحظات الاتصال الجنسي، والنحلة تقتل ذكورها بعد انقضاء تلك اللحظات المثمرة.

ومزاج الرجل يختلف تبعاً لما يقدر له من فشل أو نجاح في المحاولات التي يبذلها في سبيل غزو العالم الخارجي، أما المرأة فإن مزاجها يختلف باختلاف خوالجها السيكولوجية، وهي تبدو في نظر الشاب الجاهل المتخبط كثيرة النزوات بل غير متماسكة وشديدة العناد.

يقول "بلزاك" إن كثيرين من الأزواج الشبان جاهلون بأمور النساء إلى درجة تجعله يفكر في القرد حين يحاول العزف على القيثارة.

والمرأة لا تفهم حق الفهم حاجة الرجل إلى العمل؛ لأن النشاط من دأب أجهزته الطبيعية، وهو لهذا ينشغل بالبناء والترتيب والصيد والقتال وغير ذلك، وهو في الأسابيع الأولى للزواج يخيل إليه أن الحب سوف

يحتل مكان كل شيء لأنه عاشق، وهو يرفض الاعتراف بالضجر، ويشكو أنه تزوج من مريضة مرغمة على أن تلزم جانب الراحة على الدوام، ولا تعرف ماذا تريد.

أما المرأة فإنها تكون ضيقة الصدر برفيقها الجديد الذي يذرع غرفة النوم بالفندق في عصبية ظاهرة، وهذا هو السلوك التقليدي لزوجين يقضيان شهر العسل، وفي معظم الحالات يكون مثل هذا الموقف قليل الأهمية ويمكن التصرف فيه بسهولة بقليل من الحنان وشيء من روح المرح، فالرغبة في المحافظة على الزواج ينبغي أن تكون فعالة على الدوام، كما يجب تجديد القسم على ذلك بصفة مستمرة.

وحتى في أسعد الزيجات وأطولها عمراً لا بد من استمرار تلك الاختلافات الجوهرية في الطباع، وهي خلافات ينبغي أن يعترف بها، وأن ينظر إليها بعين التقدير، وأنها لا يمكن أن تختفي، والرجل لا بد أن يصادف عقبات خارجية يتغلب عليها، والمرأة لابد أن تحب وتحب.

والرجل يسعده أن يتمكن من اختراع جهاز يغير الكون، والمرأة يسعدها أن تتفانى في أداء عمل صغير في هدوء ببيتها، وكل شيء يصنعه الرجل يحمل طابع الحاجة الخارجية، فسقف بيته معرض للأمطار والجليد ومحركه وزورقه تعبث بهما الرياح والمياه، وعلى العكس من ذلك كل ما تشغل به المرأة نفسها على صلة بالجسم الإنساني، فوسائد

الأريكة تستقبل ذلك الجسم وتعمل على راحة أطرافه، ومرايا مائدة الزينة تعكس صورته، وهذه سمات واضحة جلية لطرازين مختلفين من العقول.

والرجل يبتكر المبادئ والنظريات، فهو عالم رياضي وفيلسوف، والمرأة في انهماكها التام في الواقع لا تهتم كثيراً للنظريات المجردة، إلا إذا كان صاحبها رجلاً تشعر بالانجذاب إليه، أو إذا كانت تشعر باليأس إزاء ما يبديه ذلك الرجل من الإهمال لشأنها، وميل المرأة إلى التفلسف كثيراً ما يكون بمثابة حداد مستتر على حب ضائع، وكل حديث المرأة التي تتمتع بأنوثة حقيقية مقصور على رواية النوادر، أو التحليل للشخصيات، أو الثرثرة البارعة حول أعمال الناس، أو الحقائق العملية.

وأهم العوامل في تكوين شخصية الرجل الحق الرجولة صحبة امرأة ذات أنوثة حقيقية سواء أكانت حليلة أم خليلة أم صديقة، فهو عن طريقها يستطيع أن يظل على اتصال مستمر بالإدراك العميق البشري، وهذا ما يجهله الرجال الذين لا يعبأون بالنساء.

وأفكار الرجل تسافر بالطائرة، وتحلق فوق الفراغ والزمان، وهي تحيط بالمجالات المترامية التي قد لا تكون إلا خيالاً من الخيالات، وقد تخطيء فتأخذ قشور القول على أنه اللباب، في حين أن أفكار المرأة تسافر سيراً على الأقدام.

وهل ينبغي على النساء اجتناب السياسة؛ لأنهن لا يحببن الأفكار الخيالية؟ إن العكس من ذلك هو الصحيح، فما رأيك في أنهن يستطعن

أن يؤدين خدمة للرجال بتخليص السياسة من الأفكار الخيالية، وفيم الخلط بين السياسة العملية التي هي قريبة إلى حد بعيد بالتدبير المنزلي، وبين سياسة المبادئ التي تتصف بالغموض الشديد وانعدام الجدوى، وكثيراً ما تنطوي على الأخطار؟ والسياسة بالنسبة إلى النساء يتمثل فيها حسن الإدارك والصحة، والرجال أوفياء للأفكار، فالرجل يدافع عن حزبه، أما المرأة فإنها تدافع عن السلام وعن بيئتها حتى لو اقتضاها ذلك أن تغير الحزب الذي تنتمي إليه.

ولسائل أن يسألني: كيف تستطيع الاستمرار في التفرقة بين عقل الرجل وعقل المرأة في حين أن النساء يدرسن المناهج التعليمية نفسها التي يدرسها الرجال دون عناء، ويتفوقن عليهم في الامتحانات بسهولة؟ إننا لا نعيش في أيام يستطيع الواحد منا أن يكتب فيقول: "أم المرأة المتعلمة تعتبر سلاحاً جميلاً تحفة في معرض ليس لها أي فائدة علمية"، وحين تتحدث طبيبة مقيمة في مستشفى إلى زوجها الطبيب، ففي أي شيء يختلف عقلها عن عقله؟.

هذا الشيء هو ببساطة أن أحدهما عقل مذكر، والأخر مؤنث، فالشابة تستطيع إذا اقتضى الحال أن تشارك الشاب حياته الفكرية، والعذارى يستمتعن بالدراسة والصراع، إن عذراء الأساطير تكون في حصن منيع قبل أن يغزو الحب قلبها، أما بعد ذلك فماذا يحدث لها إنها لا تلبث أن تصبح عزلاء لا حول لها ولا قوة، وتصير امرأة أخرى.

أذكر أن فتاة من طالبات الطب (واحدة من عذارى الأساطير المنهزمات) قالت لي مرة: "إذا كان واحد من الرجال هنا غير سعيد بسبب غرامه الذي فشل، فإنه يزور مرضاه ويعنى بهم كمألوف عادته، أما أنا فإنني حين يستبد بي الحزن، لا أملك سوى الرقاد في فراشي والاستسلام للبكاء".

والنساء لا يعرفن السعادة إلا إذا عشن في دنيا حافلة بالعواطف، على أنه من الخير العميم لهن أن يتعلمن من العلوم نظام الرجولة، ومشكلة الإنسانية الكبرى هي التوفيق بين العلوم وبين طلاسم اللاهوت، وهي كذلك مشكلة الحياة الزوجية.

وتستطيع النساء أن يقمن بإدارة أعمال تجارية كبيرة، وبعضهن يقمن بذلك بمهارة مدهشة، ولكن القيام بهذا الدور لا يناسبهن، ولقد صرحت واحدة من أكثرهن نجاحاً بقولها: "هل تعلم أنني كنت دائماً أريد أن أجد رجلاً يشغل منصبي؟ وعندئذ أصير مساعدة له، وما أعظم ما يمكن أن تكون مقدرتي على مساعدته، لو أنني أحببته!"، ومما ينبغي إدراكه أن النساء مساعدات ممتازات، ولكن مقدرتهن محدودة في ميدان الخلق والابتكار، والشيء الحقيقي الذي تخلقه المرأة، إنما هو طفلها.

فماذا هنالك، فيما يعني النساء غير الأمهات؟ إن في كل حب عظيم شيئاً من الأمومة، والمرأة المخلصة تحب الرجل القوي لأنها تعلم ما فيه من مواطن الضعف، وهي تتولى حمايته بقدر ما يتولى هو حمايتها ونحن جميعاً نعرف نساء يغرقن من يخترن من الرجال، في لجة غامرة من الحب الغيور الرهيب.

وحتى النساء اللائي ترغمهن الظروف على القيام بأدوار الرجال يقمن بها كنساء، ولم تكن الملكة "فيكتوريا" ملكاً عظيماً، ولكنها كانت ملكة عظيمة تقوم بتمثيل دور الملك، ولقد كان "دزرائيلي" كما كان "روسبري" من وزرائها، ولكنهما كانا كذلك من المعجبين بها ، وكانت شئون الوطن في نظرها كشئون منزلها، كما كانت الخلافات الدولية عندها أشبه بالخلافات العائلية، ولقد قالت لوزيرها "روسبري" إنها تحب الجيش؛ لأن والدها كان ضابطاً، ولما جاءها خطاب من إمبراطور ألمانيا ذات مرة، سألت وزيرها: هل من اللائق أن يستخدم حفيد مثل تلك العبارات حين يكتب إلى جدته؟

وأنا لا أزعم بأي حال أن أحد الجنسين يمتاز عن الجنس الآخر، وأعتقد أن المجتمعات التي تفتقر إلى أثر المرأة تتعرض للتردي في حضيض من الانحراف عن الطريق السوي، الذي يدعو – زيفه وزيغه – إلى اصطناع العنف وسيلة للعود به إلى الصراط المستقيم.

ومن المؤسف أننا شهدنا كثيراً من مثل هذا، فالحضارة التي تقوم على الرجال وحدهم كحضارة اليونانيين القدماء مقضي عليها بالفناء لانهماكها في السياسة والغيبيات والغرور، والنساء وحدهن يستطعن أن يعطين رهبان العقائد والنظريات إحساساً بما في الحياة من قيم حقيقية غير معقدة، ومن المحال أن تقوم حضارة صحيحة بغير التعاون بين الجنسين، ولكن التعاون الحقيقي بين الجنسين لا يمكن أن يوجد إلا إذا اتفقنا على تقبل ما بينهما من الفوارق، ونشأ بينهما احترام متبادل.

من بين الأخطاء التي كثيراً ما يتورط فيها اليوم علماء النفس والكتاب القصصيون أنهم يضفون على الحياة الجنسية أهمية تزيد عما ينبغي، ففي فرنسا كما في إنجلترا وحتى في الولايات المتحدة، حفل أدب السنوات الثلاثين الماضية يذكر المدن الكبرى والثراء السهل، كما كان هذا الأدب موجهاً إلى النساء أكثر مما هو موجه إلى الرجال.

وفي هذا الأدب يبرز الرجل في صورة الناسي لدوره الحقيقي، وهو الكفاح مع آخرين من الرجال من أجل خلق عالم "ليس بالعالم الجدير بك يا حبيبي"، بل عالم قد يكون جميلاً في حد ذاته عالم مدهش يتيح له أن يشعر بأن رسالته هي التضحية بكل شيء حتى غرامه وحتى حياته، وكذلك الحال في السينما، فلقد أعطت الحب من الأهمية فوق ما يستحق، كما أعطت العقل دون ما هو أهل له.

على أن هنالك كثيراً من الوسائل لحسم النزاع الذي لا مفر منه، بين طبيعة المرأة – التي يحدد الحب أوضاعها تماماً– وطبيعة الرجل، الذي يشغله العالم الخارجي، والأولى: هي السيطرة الأنانية على الرجل الذي هو الخالق المبدع.

قال "د.هـ. لورانس" الكاتب الإنجليزي المعروف: "ليست المرأة هي التي تحدو الرجل إلى قمم غاياته ومثله، بل هو إيمانه الذي يدفعه إلى ما وراء حدود المرأة، حيث أقصى غايات مواهبه الكامنة، والرجل مسئول عن الوصول إلى هذه القمم أمام الله وحده، ومذ قال السيد المسيح: "أيتها المرأة، ماذا ينبغي أن أفعل بك؟"، وأصبح على كل رجل أن يعيد نفس العبارة لزوجته أو أمه، كلما كان لديه عمل من الأعمال، أو ألقى عليه ضميره رسالة من الرسالات".

وهذا يفسر وقد يبرر ثورة الرجل العامل أو الفنان في وجه ما يلقى في منزله من الطغيان.

ولقد كان هروب الكاتب الروسي الفيلسوف "تولستوي" من منزله عملاً جديراً بالرثاء؛ لأنه انتظر حتى أدركته الشيخوخة واقترب منه شبح الموت، ثم أقدم على ذلك العمل المنطوي على شجاعة غير ذات فائدة، على أنه هرب بذهنه قبل أن يهرب بجسمه بوقت طويل، لم يكن ثم علاج للتعارض بين مبادئه وأسلوب الحياة الذي فرضه نظام معيشته المنزلية.

ولقد هجر الرسام النابغة "جوجان" زوجته وأطفاله وثروته للعيش بمعزل عن الناس في "تاهيتي"، وأخيراً اكتشف حقيقة نفسه، ولكن الهروب في هاتين الحالتين كلتاهما كان دليلاً على الضعف.

فالرجل الخلاق المبتكر حقاً، كان جديراً به أن يصر على أن يكون موضع الاحترام من أولئك الذين يحيطون به، وفي بيت الشاعر الألماني "جيته" لم تتح السيطرة لأي امرأة؛ لأنه كان كلما بدا له أن امرأة منهن تعترض سبيله في أداء رسالته الحقيقية، أحالها تمثالاً، وأعني بهذا أنه كان يضعها في قصة أو قصيدة ثم ينصرف عنها.

وحين يتعين على الرجل أن يختار لنفسه بين الحب والعمل أو بين الحب والواجب تتألم المرأة وتقاوم جهد استطاعتها، ونحن جميعاً قد عرفنا من رجال البحر والجيش من ضحوا بمستقبلهم المهني لأسباب عاطفية.

ولقد كتب "أرنولد بينت" مرة مسرحية جاء فيها أن واحداً من مشاهير الطيارين قد تزوج المرأة التي كان يحبها بعد أن تغلب على مصاعب كانت تعترض سبيل ذلك الزواج، وكانت زوجته امرأة عادية ذات جمال وذكاء وجاذبية وخيال خصب، وقد استقر رأيها منذ البداية على أن تسيطر عليه بسحر لا يقاوم، وذهبا إلى فندق في الجبال رشفا فيه كؤوس السعادة الغامرة مترعة، ولكنه لم يلبث أن سمع أن الرقم القياسي الذي يعتز به أكثر من كل شيء آخر، يوشك أن يضربه واحد من

منافسيه، فاستولت عليه فور ساعته الرغبة في التغلب على هذا المنافس، ولكن زوجته تحدثت إليه عن حبها وأنصت هو إليها، غير أنه كان مشغولاً طول حديثها بالتفكير في محرك طائرته، فلما اقتنعت آخر الأمر بأنه يريد أن يذهب حقاً، سألته وهي حزينة الفؤاد عما إذا كان لم يفهم أن تلك الأيام القليلة لها من الأهمية بالنسبة لمستقبلها وعملها كامرأة ما يعادل أهمية الطيران بالنسبة لمستقبل عمله كرجل، على أنه لم يفهم ذلك ، ولا شك في أنه كان على حق.

إن الرجل يفقد رجولته إذا طغت العاطفة على أهدافه ومثله، لقد ركع كل من "شمشون وهرقل" عند قدمي حبيبته، وتغنى كل الشعراء القدامى بأساطير من استعبدهم الحب من الأبطال، وأضحى "باريس" جندياً تافها، كما أفسدت "كارمن" عاشقها، وجعلت "مانون" حبيبها لا يخرج من جريمة إلا إلى جريمة أخرى.

وعلى هذا النحو تماماً تخشى الزوجة حين تريد السيطرة على حياة زوجها من كل ناحية، وعندما يفقد الرجل إحساسه بأهمية النشاط الخلاق، فإنه يشعر بالضياع ويضيع فعلاً، فإذا أصبحت زوجته، أو زوجته وطفله محور حياته، فإن اليأس يصبح له بالمرصاد.

ومن نذر الشر دائماً ألا يجد رجل الجد والنشاط سعادته أبداً إلا في صحبة امرأة، فذلك يدل في أحيان كثيرة على أنه يخشى الصراع

الفعلي، فالرجال الذين يتمتعون بالرجولة الحقيقية، يحبون تصادم الأذهان كما كان أبطال التاريخ يحبون تقارع السيوف.

غير أن للمرأة دورها، كما أن لهذا الدور أوقاته في حين الزوجين السعيدين، ويقول "لورانس": إن الرجل لا يمكن أن يظل مخلوقاً معجزاً يتألق نضارة أربعاً وعشرين ساعة في كل يوم، أما "كونفوشيوس" أو "نابليون" أو من إليهما من الآخرين، فقد كان الأولى أن يكون لديهم من الرجولة ما يكفي لأن يعود إلى البيت في موعد تناول الشاي، وأن يضع قدميه في خفيه، ويجلس مأخوذاً بسحر زوجته، فبذلك يتاح للمرأة عالمها، وتنجاب شكوكها: في عالم الحب والعاطفة والحنان، ومن واجب كل رجل في ساعته المحددة أن يخلع حذاءه ويسترخي ويتسلم لهذه المرأة وعالمها، وخير للرجل أن يكون خارج البيت في وقت النهار مع رجال آخرين، وأن يعود في المساء إلى جو يختلف تماماً عن الجو الذي كان فيه.

والمرأة المخلصة لا يثير غيرتها انشغال زوجها بعمله، أو بحياته السياسية أو الفكرية، وهي تتألم بين الحين والحين، ولكنها تخفي تلك الحقيقة ولا تبخل عليه بالتشجيع، ولقد كتمت "أندروماك" دموعها عندما حانت ساعة رحيل "هكتور" لأنها كانت تدرك ما يراد من المرأة.

ومن المهم بوجه خاص أنه مهما بلغ من عمق الرغبة في الزواج، فإن من الصعوبة بمكان أن يحصل الرجل والمرأة على توازنهما، ومهما

بلغ من عمق حبهما وشدة ذكائهما، فإنهما سيجدان نفسيهما في الأيام الأولى على الأقل بحيث يكون كل منهما في صحبة شخص غريب سيكون مصدر مفاجآت لا حصر لها.

على أن الأسابيع الأولى للزواج قد سميت منذ عهد طويل شهر العسل، والواقع أنه إذا حدث اتحاد وثيق، فإن كل المصاعب تنسى في نشوة الليالي الأولى حيث يتخلى الرجل عن أصدقائه، والمرأة عن رغباتها الشخصية، وفي قصة "جان كريستوف" وصف صادق لامرأة في الأيام الأولى لزواجها، قد "وجدت متعة دون عناء، في قراءة كتاب عسر الفهم لم تكن لتستطيع أن تدرك معانيه في أي وقت آخر، ولقد خيل إليها أن الحب قد ارتفع بها عن الأرض، وعلى نحو ما يفعل من يمشي وهو نائم، كانت تطأ بقدميها أسطح المنازل، وراحت تسير ببطء، وهي لا ترى شيئاً، وتبتسم في حلمها، ثم بدأت ترى الأسطح، فلم يزعجها ذلك، ولكنها سألت نفسها: ماذا كانت تفعل هناك على ذلك الارتفاع وعادت إلى منزلها".

وعلى هذا النحو يعود كثير من النساء إلى بيوتهن بعد الزواج بأسابيع قلائل أو سنوات قلائل، لقد حاولن ألا يكن أنفسهن، فنال منهن الإعياء دون أن تنجح المحاولة.

وفي ذلك تقول الواحدة منهن: "لقد حاولت البقاء معه، ولكنني كنت مخطئة لأني لست مخلوقة لذلك".

أما الرجل فإنه يشعر من جانبه بأنه قد بلغ ما لا يزيد عليه، وأنه قد أدركه الإعياء بسبب الحب المتناهي، فيحلم بنشاطه السابق، وعندئذ لا يلبث "شهر العسل" أن يلقي سلاحه أمام ما يطلق عليه اللورد "بيرون" اسم "شهر العصير"، وهو فترة تسودها السخرية والانقباض بعد التحمس المسرف، وفي غضونها توضع أسس الزيجات غير المتكافئة، وهي في بعض الأحيان لا تكون كذلك تماماً، بل إلى حد محدود فقط، ومع هذا ينعدم التفاهم المشترك، حيث يحتمل كل من الطرفين الطرف الآخر في عطف متباعد.

وقد شرحت لي إحدى الأمريكيات هذه الحالة في بعض المرات فقالت: "إنني أكن لزوجي إعزازاً شديداً، ولكننا نعيش في جزيرتين منفصلتين، ولما كان كلانا يجهل السباحة، فإننا لن نلتقي من جديد أبداً".

ولقد كتب الفيلسوف الفرنسي "أندري جيد" يقول: "مما يثير بعض العجب، أن نجد زوجين يعيشان أولاً وأخيراً حياة واحدة يمكن أن يظل أحدهما غريباً عن الآخر".

على أن المسألة أحياناً تكون أكثر خطورة من كل ذلك، فإن انعدام التفاهم يؤدي إلى البغضاء، هل رأيت مرة زوجين يبغض كل منهما الآخر في صمت، وهما يتبادلان نظرات تنطق بالاستنكار؟ إن زواجهما غير سعيد، فهل تستطيع أن تتصور المحن الخفية التي لا يمكن الإفصاح

عنها بسبب انعدام وجود اللغة المشتركة، والسرير الذي يرقد فيه غريبان تمثالين من الحجر يفصل بينهما سيف، وفي صمت اتسعت الأعين المفتوحة، وأخذ الرجل ينصت إلى انتحاب المرأة وعبراتها تتساقط واحدة بعد أخرى في الظلام؟.

وليس في الإمكان الوصول إلى أي حل إلا عن طريق التغاضي والتسامح، و بصرف النظر عما إذا كانت المسألة مسألة زواج شخصين من الناس، أو مسألة إدارة شئون الحكم في أمة ينبغي أن يوضع نصب الأعين أن الكمال غاية لا يمكن إدراكها، وحتى إذا تم إدراكها بمعجزة من معجزات الحب، فإنها لا يمكن أن تدوم، وكل ما نستطيعه هو أن نحاول في صبر وباستمرار أن ندرك كمالاً نسبياً أو تقريبياً.

ولا جدوى أبداً من أن يتزوج الإنسان كأنه يشتري ورقة من أوراق اليانصيب، قائلاً لنفسه: "من يدري؟ ربما أصبح سعيداً!"، بل الأفضل جداً من ذلك أن يقدم الإنسان على الزواج وكأنه فنان يضطلع بمهمة خلق عمل فني.

ومن واجب كل من الزوج والزوجة أن يقول: "إن هذه قصة أريد أن أحياها، لا أن أكتبها، وأنا أعلم أنه ينبغي لي أن أضع موضع الاعتبار نواحي الشذوذ في الشخصيتين اللتين قد تم رسمهما فعلاً، ولكنني أريد أن أنجح ولسوف أنجح".

وإذا لم يكن لتلك الرغبة وجود في بداية الزواج، فإنه لا يكون زواجاً حقيقياً، بل مجرد علاقة غرامية مشروعة.

من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية أن قدسية الزواج تقوم على رعاية كل من الطرفين لعهده، وليس على مجرد البركات التي يمنحها القسيس، فإذا قال لك رجل أو امرأة: "إنني سأتزوج، ومن الطبيعي أنني سأحاول أن يدوم هذا الزواج، أما إذا مني بالفشل، فهنالك أوجه العزاء المألوفة، أو الطلاق" في هذه الحالة يكون من أوجه واجباتك أن تنصح بعد الإقدام على ذلك الزواج، فمثل هذا الإجراء لا يكون زواجاً.

صحيحًا إنه مهما توافرت النية الحسنة إلى أبعد حد مستطاع، فضلاً عن التحمس والحذر، فإن الإنسان لا يستطيع أن يتأكد من النجاح في أي شيء، لاسيما إذا كان الأمر يشمل أكثر من شخص واحد، أما إذا كان الإيمان غير موجود منذ البداية، فإن الفشل يكون محققاً.

وليس الزواج بالشيء الذي يمكن إدراكه دفعة واحدة، بل يجب أن تجدد إدراكه باستمرار، ولا ينبغي للزوجين أن يستسلما للهدوء الخامل قائلين: "لقد فزنا في المباراة، فلننعم بالراحة"، فهذه المباراة لا فوز فيها أبداً، وفرص الحياة تجعل كل شيء ممكناً، ولنتذكر كم من البيوت قد تقوضت أركانها بعد أن كانت تبدو حصناً منيعاً قادراً على الصمود في وجه كل الأحداث – في غضون سنوات الحرب العالمية الأولى

(١٩١٤)– ولنتذكر ما هي المخاطر التي يتعرض لها الجنسان جميعاً في متوسط العمر.

إن الزواج الناجح عبارة عن صرح لا بد من إعادة بنائه كل يوم، ومن الطبيعي أن إعادة البناء هذه لا ينبغي أن تصحبها تفسيرات أو تحليل أو اعتراف.

ولقد تحدث الكاتب الفيلسوف "ميريدث" عن الأخطار العظيمة التي ينطوي عليها تبادل النقد الموغل في البحث والاستقصاء، فالموضوع يجب أن يكون أكثر بساطة والتزاماً بجانب التكتم، والمرأة الحقيقية تشعر شعوراً غريزياً بهذه الدلائل المهددة، وهذا الضجر الذي لا يكاد يحسه أحد، وتصف لها غريزتها أنواع العلاج، والرجل نفسه يعلم أن النظرة أو الابتسامة تكون أحياناً خيراً من الشرح والتعليل.

على أنه مهما اختلفت الوسائل، فإنه لا بد من أن يكون هناك تجديد للبناء، وليس في حياتنا اليومية شيء يمكن أن يبقى مع الإهمال بما في ذلك البيوت والمواد المختلفة والصداقات والمباهج والأسقف تسقط والحب ينتهي، و"البلاط" يحتاج إلى التثبيت من جديد، و"التعاشيق" الخشبية لا بد من إصلاحها، وسوء التفاهم تجب إزالته، وبغير هذا تخلق المرارة، والأحاسيس المتغلغلة في أعماق الروح تصبح مراكز لنشر العدوى ويحدث في يوم ما أثناء مشاحنة أن ينفجر الدمل،

ويستولي الرعب على كل منهما، إذ يرى صورته وقد اكتشفها ذهن الآخر.

ولا يمكن أن يكون الزواج ناجحاً إلا إذا احترم كل من الزوجين ذوق الآخر، ونعود فنقول إن من السخافة أن نتصور أن شخصين من الناس يمكن أن يدور في رأسيهما نفس الأفكار، وأن تكون لهما نفس الآراء، ونفس الرغبات فهذا شيء مستحيل كما أنه غير مستحب.

وفي شهر العسل، كما قلنا آنفاً، يريد العاشقان أن يعتقدا أنهما متماثلان في كل شيء، غير أنه يحين الوقت – ولا مفر من ذلك – الذي تعود فيه الشخصيات القوية سيرتها الأولى، وتسترد حقوقها، وفي مثل هذا يقول "آلان" إنه "إذا أراد الإنسان أن يتخذ من الزواج ملجأ أميناً، فمن الواجب أن تحل الصداقة محل الحب تدريجياً".

كيف يحدث هذا الحلول؟ كلا .. إن المسألة أكثر تعقيداً من ذلك، ففي الزواج السعيد حقاً يجب المزج بين الصداقة والحب، وهنا تكتسب متانة آصرة الصداقة، ما يفوق الوصف من الاندماج والتعاطف.

وقد يدرك شخصان أنهما غير متشابهين من حيث العقلية والثقافة، ولكنهما يتقبلان في غبطة ما بينهما من فوارق الطباع، ويجدان في ذلك فرصة متاحة تمهد لهما سبيل الارتقاء الروحي.

والرجل الذي يبذل جهداً صادقاً في محاولة إزالة نسيج العنكبوت عن الشئون الإنسانية، يجد أكبر العون في قرب عقل امرأة يقظ ذكي، متحفز، لامع، يضيء ذلك النصف من دنياه الذي يمتد فوقه الظلال، وكذلك هي أفكار النساء، وكثيراً ما لا يكون بعد هذا موضع لمسألة الحب الجسدي في مثل تلك الحالات، ولو أنها ربما كانت في بداية الأمر على جانب من الأهمية، وفي مثل هذه العلاقات يتم تطهير الحاجات الأولية،ويتخذ العقل من اللذة الجسدية وسيلة للوصول إلى أشياء تفوقها في الأهمية إلى أبعد حد، ولا يصبح فقد الشباب نكبة على زوجين مؤتلفين حقاً، فإن اغتباطهما بتقدم السن بهما معاً يطغى على حزنهما لتقدم السن.

وللأديب الناقد "الكونت دي لاروشفوكو" في هذا كلمة مأثورة حيث قال: "هناك زيجات طيبة، ولكن لا وجود للزيجات الرائعة"، وأرجو أن أكون قد برهنت على أنه يمكن أن يبلغ الزواج حد الروعة، ولكن مثل تلك الزيجات ليس بأسهل أنواع الزواج، وكيف يمكن أن تكون حياة شخصين معاً حياة سهلة هينة في حين يكون كلاهما عرضة لنوبات من الغضب، ولارتكاب الأخطاء وللإصابة بالمرض مما يفسد طريقة معاملته للآخر؟.

والزواج الذي يخلو من المشاحنات يكاد يشبه أمة لا تتعرض لأي أزمة، من حيث كونه شيئاً لا يتصور وجوده أحد، على أنه بعد أن يجتاز الحب عقباته الأولى، ويذهب التعاطف بالكبرياء ويحل محلها اندماج

لين وادع، فإن الأزمة ربما تكون قد مرت بسلام، وبغير قليل من السهولة.

وعلى هذا فليس الحب ما يتصوره العشاق الخياليون، بل هو مؤسسة قائمة على غريزة، ونجاحه لا يتطلب التجاذب الجسدي وحسب، بل يتطلب قوة الإرادة والصبر وموافقة الشخص الآخر، وهو مطلب عسر على الدوام، وأخيراً – إذا نفذت هذه الشروط – يمكن أن ينشأ عطف جميل دائم، ومزج فريد وخفي بالنسبة لمن لم يعرفوه أبداً بين الحب والصداقة والحساسية والاحترام، وبغير ذلك لا يمكن أن يوجد زواج حقيقي.

فن الحياة العائلية

لو أنني أردت أن ألقي موعظة دينية عن موضوع الحياة العائلية؛ لاستشهدت بكلمة المصلح الاجتماعي الشهير "بول فاليري" حيث قال: "يوجد في كل أسرة من الأسر نواع معين من الضجر الداخلي المستور، ينجو بفضله أعضاؤها ويعيشون معيشاتهم الخاصة، وكذلك توجد في كل أسرة قوة قديمة مقتدرة تسجل وجودها حين يلتئم شمل الجميع في غرفة الطعام لتناول وجبة العشاء حيث يشعر أفرادها بالحرية في أن يكونوا على سجيتهم تماماً".

وأنا أحب هذه الكلمة لأنها تستدعي ما في الحياة العائلية من النبل، وما فيها من الشر على السواء، فإن الضجر الداخلي والإحساس العميق بالاندماج يوجدان في كل أسرة على وجه التقريب.

ومن منا لا يستطيع الملائمة بين تصريحي "فاليري"، هذين المتعارضين حين يستدعى ذكرى اجتماع أفراد بعض العائلات بعد فراق؟ ومن منا لم تعذبه الحياة في وقت ما، حتى التمس لنفسه ملجأ في جو منزل عائلي هادئ في الريف؟

إن الصديق يحبك لذكائك، والعشيقة تحبك لما فيك من جاذبية، ولكن حب أسرتك لك لا يعرف التسبيب والتعليل، فلقد ولدت في تلك الأسرة، وأنت من لحمها ودمها، ومع هذا فإنها قد تثير من غضبك فوق ما تثيره أي مجموعة من الناس في هذا العالم.

ومن منا الذي لم يقل في مرحلة ما من مراحل شبابه:"إنني أختنق هنا، لم أعد أستطيع الحياة مع عائلتي إنهم لا يفهمونني وأنا لا أستطيع أن أفهمهم؟"، ومع هذا فمن الرجال حين يجد نفسه وقد أحاط به قوم غرباء، مستحقراً أو مهملاً إهمالاً لا يحن إلى العودة إلى أولئك الذين كان في أعينهم هو محور الكون؟.

لقد صرحت "كاترين مانسفيلد" في يومياتها وهي في الثامنة عشرة، بأنها رأت من واجبها أن تهجر أسرتها؛ لأن عقلها لم يكن ليستطيع أن ينمو نمواً طبيعياً، وعندما كانت بمنأى عنهم فيما بعد، ومريضة بين غرباء تذكرت في نفس يومياتها كيف أن جدتها قد أحضرت لها وهي لا تزال طفلة بعض اللبن الساخن وشيئاً من الخبز، وضعتهما إلى جانب سريرها، وقالت لها بصوتها الناعم الجميل: "إليك هذا ياحبيبتي"، ولقد بدا لها في اشتداد عذابها أن تفكيرها في أن تجد نفسها قد عادت فجأة إلى الأسرة التي احتقرتها هي يوماً ما تفكير سعيد يفوق كل تصور.

والحق أن الأسرة كالزواج من المؤسسات التي تضفي عليها أهميتها تعقيداً، والأفكار النظرية تنفرد دون سواها بكونها أفكار بسيطة؛ لأنها لا

تتصل بالحياة إلا قليلاً، والأسرة ليست خلقاً تمخضت عنه نزوة مشروع يخبط خبط عشواء، بل هي نتيجة طبيعية لانقسام أنواع الكائنات الحية إلى جنسين، وعجز الطفل الآدمي فترة طويلة، وحب الأمومة الذي يرعاه في عجزه، والحب الأبوي الذي هو أكثر افتعالاً وأحدث عهداً في تاريخ الإنسانية، والذي هو مؤلف من مقدار من الحب للأم، ومقدار معادل له من الحب للطفل.

ونحن في حل من أن نقول عن الأسرة ما قلناه عن الزوجين، والعلاقات العائلية وثيقة لأن الغرائز تدعمها، والأسرة عبارة عن جماعة طبيعية أو غريزية قد استحالت إلى جماعة دائمة بفضل ما تلقاه من مساندة القوانين والعرف، وواجبات الأطفال نحو والديهم، وتشريعات المواريث .. كل هذه قد نمت وترعرعت من حول شعور طبيعي، وطبيعي إلى درجة أنه قد اكتشفت وجوده بين بعض أنواع الحيوان وهو غريزة الأمومة.

وشعور الأم نحو طفلها شعور نقي وجميل إلى أبعد حد، وليس ثمة خلاف في هذا، والأم بالنسبة لطفلها بمثابة بعض الملائكة، وهي في ذلك تتمتع بالقوة في كل ناحية، وإذا هي سهرت عليه فإنها تكون منبع كل المسرات، وكل الحياة، وإذا هي عنيت به مجرد عناية، فإنها تظل الشخص الذي يمحو الألم ويمنح الغبطة، فهي الملجأ العظيم الذي يجلب الدفء والراحة والصبر والحب، وطفل الأم بالنسبة إليها بمثابة إله، ومن كبرى حسنات الديانة المسيحية أنها قد أدركت هذا.

وفي الأمومة، كما في الحب يسهل التفاني والحدب، لأنهما من ضروب الأنانية، والأم تضحي بنفسها بمحض رغبتها في سبيل طفلها؛ لأن طفلها جزء من ذات نفسها، ومن لحمها، ولقد اقتضت الضرورة أن يتعلم الهمج الحب قبل وجود أي مجتمع إنساني والفضل في ذلك يرجع إلى الحب الجنسي، ثم إلى حب الأمومة، وهكذا وعوا الدرس.

والحب الجنسي قائم على رغبة الجسد، وحب الأمومة قائم على إنكار الذات، وهو بذلك أنقى أنواع الحب الغريزي، وحب النساء للرجال في حد ذاته مشوب بحب الأمومة، هل أحبت "جورج صاند" الشاعر "موسيه"؟ وهل أحبت الموسيقار "شوبان"؟ أجل، ولكن حبها كان أميل إلى حب الأمومة منه إلى الحب الجسدي، ولم يكن في حالتها تلك شذوذ، وحين وقع "روسو" في غرام "دارين" في شبابه، كان يدعوها "ماما"، ومع أنها كانت عشيقته فقد كانت تعامله بما تعامل به الأم طفلها من عناية ورعاية، وكذلك كان الموقف تماماً بين مدام "دي بيرني" وبين الأديب "بلزاك" في شبابه.

وعلى هذا النحو يمكن أن تقوم العلاقات بين الرجال في شبابهم وبين النساء الناضجات الأنوثة، بحيث تبلغ درجة الحب من جانب الشاب، وتصبح مزيجاً عجيباً مرتاباً من حب الأمومة والحب الجسدي من جانب المرأة في ثقة ممن لا تستطيع أن تحبه، إلا إذا شعرت بأنها تحمي شخصاً أضعف منها يوقظ فيها أعمق الغرائز.

والمرأة من هذا الطراز تصبح متعلقة بالرجل القوي في الظاهر فقط، وإذا هي أحبته فإنما تحبه لما فيه من مواطن الضعف، (وينبغي أن تقرأ في هذا المعنى ما كتبه "برنارد شو" في كتابيه المعروفين "كانديدا" و"الأسلحة والرجل").

ثم الطفل؟ إنه إذا أسعده حظه بأم هي أم حقيقية، تعلم منها في باكورة حياته كيف يمكن أن يكون الحب كاملاً وغير أناني، وحب الأمومة يدل الطفل على أن في الدنيا أناساً يمكن منحهم الثقة التامة في سذاجة وعدم تحفظ، ويمنحون كل شيء دون أن يطلبوا شيئاً في مقابل ما يمنحون، ومن أعظم الأمور بدء الحياة في مثل ذلك الجو.

والمتفائلون الذين يحسنون الظن بالحياة على الدوام، وعلى رغم الشقاء وسوء الحظ يكونون في معظم الأحيان أبناء أم رءوم حكيمة، ومن الناحية الأخرى يجوز أن تكون الأم ذات أثر فاجع السوء إذا كانت حمقاء كثيرة الأخطاء غير منصفة، وهي تجعل من أبنائها أشخاصاً متشائمين عصبيي الأمزجة.

ولقد عرفت فتيات كن في سن المراهقة على خلاف دائم مع أمهاتهن، وبمراقبة مراحل نضوجهن، وجدت أن الكثيرات منهن قد ظللن على ما في نفوسهن من مضض وميل إلى التحدي، وبقين على اقتناع بأن كل النساء يحملن لهن شعوراً عدائياً، كما بقين غير مستطيعات الحب

لأنهن في طفولتهن قد أفزعهن ما لمحنه أو حدسنه من أمور الحب، من أم لم يكن في وسعهن أن يعجبن بها.

وعلى العكس من ذلك فإن الأم المشرفة في العاطفة وفي الانسياق وراء العاطفة، قد تكون ذات أثر سيء على وليدها، إذ تثير فيه من الأحاسيس المرهفة ما لا يتلاءم مع سنه الصغيرة، ولا شيء يمكن أن يكون أخطر على الصبي من أن يشوب احترامه الواجب لأمه ما هو متصل بالحواس دون أن يدري، وهذا يصل إلى نوع من العلاقة الروحية الشاذة، وكان من ضحاياها الكاتب الفيلسوف "د.ه.لورانس" الذي أبدع في وصف مثل ذلك الوضع في قصته المعروفة "الأبناء والعشاق"، التي يشرح فيها كيف يمكن أن يصبح الشاب عاجز عن الحب بسبب ما ساد طفولته من الحيرة والاضطراب.

والحالات التي أشرنا إليها فيها تطرف، وهي حالات شاذة بعض الشيء، والحياة العائلية – في الظروف العادية – تتاح فيها فرصة التدريب على الحب، ولهذا السبب نشعر بسعادة غريبة في العودة إليها، برغم ما نكن لها من أوجه النفور، على أن ذلك التدريب إذ نتذكره لا يكون هو السبب الوحيد في المشاعر الوثيقة التي أعجب بها، وعش الأسرة هو المكان الوحيد الذي نستطيع فيه أن نكون على سجيتنا، كما قال "بول فاليري".

فهل هي ميزة عظيمة غير عادية أو ليس في استطاعتنا أن نكون على سجيتنا في أي مكان يقع عليه اختيارنا؟ كلا بالتأكيد! إن علينا أن نلعب دوراً في الحياة ونحن نختار وجهه النظر، ولكن شخصيتنا مقدورة علينا، وأمامنا واجبات رسمية نؤديها، كما أن الحياة الاجتماعية تفرض علينا مطالبها، والقسس والأساتذة ورجال الأعمال، من بين كثيرين غيرهم، ليس من حقهم أن يكونوا على سجيتهم في جزء كبير من حياتهم.

وفي الأسرة الموحدة يتضاءل الدور الاجتماعي حتى يصل إلى الحد الأدنى بالنسبة إلى أعضائها، فهم يجتمعون في البيت في المساء، ويجلس الوالد في مقعده المريح ليقرأ الصحيفة، أو تداعب أجفانه سنة من النوم، وتنهمك الأم في شغل الإبرة بينما تتحدث إلى ابنتها الكبرى عن المسائل الثلاث أو الأربع، التي تشغل فكر كل ربة بيت، ويقرأ أحد الأبناء قصة بوليسية، وهو يترنم بشيء من نغم الموسيقى، أما الابن الثاني فإنه مشغول بإصلاح بعض الأدوات الكهربائية، في حين يتلهى الابن الثالث بإدارة مفاتيح الراديو دون قصد معين، وكل هذا يفسد الهدوء والسكينة بعض الشيء، فالصوت الصادر عن جهاز الراديو يزعج الوالد في قراءاته وإغفائه، وصمت الوالد يضايق الأم، وحديث الأم مع ابنتها يغيظ الأولاد، وهذه المشاعر لا تخفى لأن محيط الأسرة لأكثر من قدر ضئيل إلى أبعد حد من التأدب، وكل عضو من أعضائها يعتقد في قرارة نفسه أن الآخرين مجانين لا ينبغي احتمالهم، ومع هذا فهو يحتملهم

ويعلم أنهم قد يضيقون به مثل ضيقه بهم، وأنهم لاشك محتملوه مثل احتمالهم لهم.

وهؤلاء الناس لا يجدون نشوة السعادة في الحياة العائلية، ولكنهم – كما أسلفنا – يمكنهم أن يكونوا على سجيتهم، وهم مقبولون لدى بعضهم بعض، ويستطيعون أن يجدوا الراحة هنالك، وهم يعرفون أنهم بين أشخاص قد اعتادوا الحياة معاً، وإذا اقتضت الحال فإنهم يتقاسمون المتاعب فيما بينهم، وإذا حدث أن واحداً من الممثلين على المسرح الذي نتحدث عنه الآن، قد شكا صداعاً على حين فجأة تصحبه حمى؛ لأن القلق لا يلبث أن يستولى على الآخرين على الفور، فتشغل الأخت نفسها بإعداد الفراش، وتعنى الأم بالسهر على راحة المريض، ويذهب أحد الأخوة إلى الصيدلي، ولا يجد المريض نفسه وحيداً.

والرجل الذي يعيش الحياة وحيداً بلا أسرة، جدير بأن يرتعد من شدة البرد، وفي البلاد التي تكون فيها الحياة العائلية أقل تماسكاً – لأسباب مختلفة – يشعر الرجال بحاجتهم إلى مزيد من الاندماج مع أخواتهم والتفكير بعقلية الجماعة، تعويضاً لما فقدوه من تلك العصبة الصغيرة التي يسود جوها الدفء والود.

ولقد تتجاوز الروابط نطاق محيط الأسرة التي قوامها الوالدان وأبناؤهم، ولقد حدث بين أفراد الشعب الروماني أن الروابط قد نشأ عنها نوع من القبائل كان قوامه –فضلاً عن الأقارب الذين تربط بينهم صلات

النسب – أشخاصاً يصل بينهم مجرد المصاهرة، وآخرين ممن يعولهم الغير وعبيداً.

وفي عالمنا الحديث، زاد تفكك الأواصر بين أفراد الشعب بسبب اتساع نطاق تشتت العائلات، وإن كانت لا تزال وطيدة الأركان، وفي كل عائلة فرنسية يوجد أبناء عمومة أبعدون، وعمات عانسات على استعداد للتضحية بحياتهم في سبيل الأسرة، وهنالك عائلات سياسية وجامعية كبيرة يحتكر أبناؤها المناصب والأوسمة والأرباح حتى الجيل الثالث والرابع.

ونحن جميعاً نعرف سيدات بهذه السن، لا يعنيهن أمر أحد في غير نطاق العائلة، في حين يعنيهن أمر كل أعضائها حتى إذا كن لم يقابلن مثل ذلك العضو أبداً، وبهذه الطريقة تتدهور العائلة فتصبح نوعاً من الأنانية الجماعية التي ليست حباً ولكنها حلف دفاعي ضد العالم الخارجي.

ومن الطبيعي أن مثل تلك الأنانية العائلية قد تصبح خطراً اجتماعياً إذا بولغ فيها، ومهما يكن من شيء فقد حدث في بعض مراحل الحضارة الباكرة، أن الحياة الاجتماعية كانت قائمة على غريزة الأمومة، ثم أصبحت بعد ذلك بوقت طويل، قائمة على غريزة الأبوة.

من الجلي أن الحياة العائلية تنطوي على أخطار لا يستهان بها، ويشهد على هذا ما يملأ أذهان كثير من المراهقين من النزوات الثائرة،

وليس الحب كل شيء في الأسرة، بل إنها قد تنشأ فيها كراهيات تزيد من حدتها المصالح المتعارضة، وتغذيها بحيث لا يجدي في إطفاء نيرانها أي قدر من التأدب.

ولقد وصفت مساء أسرة ساد فيه الاستجمام العقلي والجسدي معاً، حيث تصرف كل عضو بطريقة طبيعية تماماً مساء قضاه الجميع في الاستراحة .. أجل، ولكن إلى أين تؤدي هذه الحرية، تؤدي أحياناً إلى ذلك النوع من الفوضى الذي يجعل الحياة عسيرة إلى أبعد حد.

وقد كتب "آلان" عن عائلات قد اتفق أفرادها اتفاقاً صامتاً على أن كل شيء لا يتفق مع رغبات واحد منهم يصبح محرماً على الآخرين، ولا شيء في أحاديثهم سوى التبرم:

"إن أحدهم تضايقه رائحة الأزهار، والآخر تضايقه الأصوات العالية، فلا بد من أن يسود الصمت في الصباح حتى لا يتضايق هذا، وفي المساء حتى لا ينزعج ذاك" واحد لا يحتمل النقاش في المسائل الدينية، والثاني يكاد يتميز من الغيظ إذا تناول الحديث مسألة سياسية، والجميع متفقون على استعمال حق الاعتراض "الفيتو"، وهم يستعملون هذا الحق دون هوادة، يقول أحدهم للآخر: سوف يلازمني الصداع طول النهار بسبب أزهارك، ويقول ثالث منهم لرابع: لم يغمض لي جفن في الليلة الماضية؛ لأنك صفقت الباب بعنف في الساعة الحادية عشرة تقريباً.

"وهم في أوقات تناول وجبات الطعام، يجلسون في شبه مؤتمر، ويدلي كل منهم بشكواه، وجميعهم يعرف الخرائط المعقدة جيداً، ولا يكاد يعتني بغير ذلك في تعليم الأطفال".

وفي مثل تلك العائلات يتولى أتفه الأعضاء إعداد البرنامج اليومي، كما يتولى أبطأ الأفراد في السير، تنظيم نزهة عائلية يحدد هو فيها خطوات المشاة، إنكارا للذات؟ نعم، ولكن هناك أيضاً الانحطاط وتخفيض مستوى الحياة الفكرية، وتدل على هذا حقيقة ملموسة هي أنه كلما حضر زائر من أذكياء الناس وجلس إلى مائدة الأسرة، فلماذا في مثل تلك المناسبة نجد أن الشخص الذي من عادته أن يجلس صامتاً، أو يتحدث حديثاً كله لغو وتفاهة ينقلب فجأة إلى متحدث بارعٍ يكاد يكون عبقرياً؟ السبب هو أنهم يبذلون في حضرة الشخص الغريب عنهم مجهوداً لا يبذلون مثله فيما بينهم وبين أنفسهم أي في محيط العائلة.

ولهذا السبب نفسه لا يحسن بالعائلة أن تسرف في الانطواء على نفسها، إذ ينبغي أن تتدفق إليها تيارات جديدة، كما تتدفق إلى خليج مفتوح أمام مياه المحيط.

وذلك القادم من الخارجِ قد يكون غير مرئي، ووجوده فعلاً ليس بالضروري، فقد يكون موسيقياً موهوباً أو شاعراً عظيماً، وقراءة آيات من الكتاب المقدس كل يوم تهذب عقول الكثير من العائلات المتدينة،

وكثيرون من أبرع الكتاب الإنجليز مدينون بأسلوبهم لهذه القراءة الدائمة لكتاب عظيم.

وإذا كان هناك عدد من النساء في إنجلترا اليوم، يتمتعن بموهبة طبيعية في الكتابة، فقد يكون الفضل في ذلك راجعاً إلى أنهن قد اتخذن من هذه القراءة حصناً وقاهن شر الاسترسال في الثرثرة العائلية التافهة، وجعلهن يتعرفن في حداثتهن إلى أسلوب رفيع.

وكذلك كانت الدراسات اللاتينية مصدر مران مماثل بالنسبة إلى مدام "دي سفيني"، ومدام "دي لافاييت"، وغيرهما من السيدات الفرنسيات في القرن السابع عشر، وأعضاء بعض العائلات يكتسبون عادة مستهجنة خطرة هي عدم إتمام الجمل، فهم يفهمون بعضهم البعض بسهولة وبكلمات قليلة، دون أن يبذلوا أي مجهود على الإطلاق، ولمكافحة هذا الشر ينبغي رفع المستوى الفكري عن طريق التعرف المستمر على خير ما تمخضت عنه الإنسانية من الأشياء، وبالمعتقدات الدينية المخلصة، وحب الفنون (ولاسيما الموسيقى)، والاشتراك في المذهب السياسي، ونوع من العمل المشترك يمكن رفع الأسرة فوق مستواها.

وهناك خطر آخر، هو أن الأسرة تجد صعوبة على الدوام في أن تنظر إلى أحد أعضائها بعين الجد، وليس هذا عداوة ولا غيرة، ولكنه مجرد كون الأسرة معتادة أن تنظر إليه على ضوء مختلف، ولتقرأ سيرة

حياة الشقيقات الكاتبات الإنجليزيات الشهيرات اللائي يحملن اسم "برونتي"، فإنهن لم يكن قصصيات في تقدير والدهن، بل كان عملهن وفنهن بالنسبة إليهن مجرد عبث بالنسبة إلى والدهن المستر "برونتي" الذي لم يكن يقدر أهميته أبداً.

على أن زوجة "تولستوي" قد عرفت مدى عبقريته، كما أن أطفاله قد أعجبوا به وحاولوا أن يفهموه، ولكن – على رغم محاولاتهم – كانت زوجته وأطفاله يرون فيه كائناً بشرياً ممتلئاً بألوان الشذوذ والمعايب بنفس الوضوح الذي كانوا يرونه فيه الكاتب العظيم، ولقد كان بالنسبة إلى زوجته هو الرجل الذي يقول إن من الخطأ أن يستخدم السادة الخدم، ثم يطلب إليهم قبل موعد تناول الغداء بلحظات أن تعد غداء مناسباً يكفي خمسة عشر ضيفاً.

ولقد سبق لي أن قلت أن الإنسان يستطيع أن يكون على سجيته في محيط الأسرة، أجل، ولكن من غير المستطاع أن يكون أي إنسان آخر في ذلك الجو الذي لا كلفة فيه، فإن الإنسان لا يستطيع أن يرتفع فوق نفسه، فليس ثمة مكان للقديس ولا للبطل، وأعضاء الأسرة الواحدة قد لا يبخسون قدر العبقري فيما بينهم، ولكنهم قد يهبطون به إلى الحد الأدنى من تقديرهم بطريقتهم في التقدير التي هي ليست ميزاناً للقيم، بل هي مجرد اغتباط بأن مثل ذلك الرجل ينتمي إلى الأسرة، وإذا أصبح واحداً من أسرة "فلان" واعظاً عظيماً أو شهيراً من رجالات الدولة، اغتبط جميع أفراد تلك الأسرة، لا بسبب تأثرهم بمواعظه أو إيمانهم بقيمة ما

يدعو إليه قريبهم من وجوه الإصلاح، ولكن بسبب افتخارهم بنشر اسم عائلتهم في الصحف السيارة، والعمة العجوز تنصت لإذاعات محاضرات ابن أخيها في الراديو عن الموضوعات الجغرافية، لا لأنها مولعة بالجغرافيا، ولكن لأنها مغرمة بابن أخيها.

وأثر التفاهة المسئول عن تحديد المستويات مع تلك الأهمية القصوى التي يقترن بها النضج العقلي، هما السبب في كثير من الثورات على الحياة العائلية.

وهناك مناسبات كثيرة يعتقد فيها عظماء من الرجال أنه ينبغي لهم كي يساوقوا أقدارهم، أن يهربوا مما في عائلاتهم من دفء وارتباط، وفي إحدى تلك اللحظات يعكف "تولستوي" على حياة تشبه الرهينة، ويسمع بعض الصبية هتافه بقوله: "لسوف تهجر أباك وأمك".

ويهرب المصور الأشهر "جوجان" من أسرته ليعيش في "تاهيتي" حياة رهبان الفن، وكل منا يحدث له مرة واحدة في حياته على الأقل أن يسمع النداء الداخلي للأخ الأكبر ويشعر بأنه هو الابن الضال.

وإني لأعتقد أن فوائد مثل ذلك الهروب، هي خيال محض، فإن فرار الإنسان من عائلته، أي من الروابط التي تكون في بداية أمرها طبيعية، ثم تصبح اختيارية تصل ما بينه وبين قومه، ومعناه إنشاء روابط أخرى لا تبلغ مبلغ الأولى من حيث كونها طبيعية؛ لأن الرجل لم يخلق ليعيش وحيداً، فهو قد يمضي إلى حيث تحيط به عزلة حقيقية أو مبالغ

فيها، يوجد فيها كذلك الالتزام والتورط والهجر، كما أنه قد ينحرف إلى الجنون كما حدث للفيلسوف الألماني "نيتشه"، والحكمة الحقيقية – على نحو ما عرفها جيداً "ماركوس أوريليوس" – لا يمكن اكتسابها باعتزالنا هذا العالم، والفرار من الحياة العائلية سهل ولكنه لا يجدي، والارتفاع بمستوى الحياة العائلية هو شيء أنبل من ذلك وأصعب منالاً.

على أن هناك فترات معينة من حياة الشباب يكون فيها من الطبيعي تماماً أن يروا روابط الحياة العائلية أوضح مما يرون مميزاتها العظيمة، وهذا ما يقال له السن الحرجة، ولكي نتحدث عنها حديثاً واعياً ينبغي علينا أن نتوخى المزيد من صحة الحكم – من داخل نطاق الأسرة – على العلاقات بين الأجيال.

ولقد سبق لي فعلاً أن وصفت بدايات تلك العلاقات: عن الحنان الغريزي الذي لا يعرف التحفظ من جانب الأم، والعبادة والثقة من جانب الطفل، وهكذا تكون الحالة الطبيعية.

وأكثر الأخطاء شيوعاً فيما يظن أنه ليس بالمؤذي من بين ما يقع فيه الآباء والأمهات، تدليل الطفل إلى درجة مؤذية، أي السماح له بأن يعتقد أن لديه قوة خارقة في حين أنه إنما يبدو كذلك بسبب مواطن الضعف في والديه، ولا شيء أشد خطراً عليه من ذلك، فتكوين شخصية الطفل إنما يبدأ في غضون الأشهر الأولى من حياته، وهو في مدى سنة واحدة، إنما يصبح خاضعاً للنظام أو غير خاضع له على الإطلاق، وكثيراً

ما سمعت غيري يقول كما أنني أنا نفسي كثيراً ما قلت: "ما أقل تأثير الإنسان على أطفاله، فإن لهم شخصياتهم كما هي، والإنسان لا يستطيع أن يفعل شيئاً يكفل تغييرها!".

غير أنه كان من الممكن تغييرها في حالات كثيرة عن طريق التعليم المبكر الذي لا يكاد يفكر فيه، فالطفل في أول أيام حياته يجب حمله على الحياة في نطاق قاعدة مقررة، حيث يكون الألم في انتظاره آخر الأمر إذا هو لم يستجب لدواعي النظام.

وللمجتمع قوانينه التي لا تتغير، وعلى كل من الناس أن يتولى تعبيد طريقه بيديه، وهي مهمة عسيرة تتطلب صبراً وتسامحاً ومثابرة، والطفل الذي أفسده التدليل يعيش في دنيا من الأوهام، ويعتقد إلى آخر حياته أنه يستطيع بابتسامة أو إيماءة غاضبة، أن يحصل على ما يريده من نتائج، وهو يريد أن يحاط بمثل والداه اللذان لم يكونا على شيء من الصرامة معه، ولقد عرفنا جميعاً أطفالاً مدللين قد شبوا عن الطوق وكبروا: رجالاً وصلوا إلى المناصب الرفيعة ثم فقدوها بسبب سلوكهم الذي يشبه سلوك الأطفال، ونساء بلغن الستين ولا يزلن يعتقدن أن في وسعهن إدراك كل رغباتهن عن طريق إدعاء الغضب، والعلاج هنا بيد الأم التي تستطيع أن تعلم الطفل في أشهره الأولى التي يتلقى فيها تعليمه الباكر في الحياة، إن هناك قواعد يجب أن يذعن لها.

ولقد أوضح العالم النفسي الشهير "أدلر"، مدى الضرر الذي يمكن أن يقع، والأمراض النفسانية التي يمكن أن تحدث نتيجة لتخبط أمهات معينات لا يستطعن التزام خطة الحياد، والعلاقات بين الأخوة والأخوات هي نماذج للصداقة في كثير من العائلات، ولكن من غير الحكمة أن يعتبر ذلك وضعاً طبيعياً بين أوضاع الأمور ، ورواية "الأخوة الأعداء" تعالج موقفاً محزناً.

لوحظ مثله وعالجه المؤلفون منذ بدء الحضارة، ولا تزال مأساته تتجدد إلى ما لا نهاية، وفارق العمر بين أطفال الأسرة الواحدة يلعب دوراً ذا أهمية ملحوظة في تكوين الشخصية، والطفل المبكر يكون في الأغلبية العظمى من الحالات طفلاً مدللاً يفسده الإسراف في التدليل.

وإيماءاته وابتساماته تبدو في أعين زوجين شابين لا يزالان في نشوة الحب مدهشة ورائعة، وهو سرعان ما يصبح قطب الرحى في الأسرة، ولا ينبغي أن يتصور أحد أنه غير مدرك لذلك، فإن العكس من هذا هو الصحيح؛ لأنه لا يلبث أن يعتقد أن كل ذلك الاهتمام، وكل ذلك المركز الهام هما من حقه، فإذا ولد للأسرة طفل آخر واضطر الطفل البكر إلى اقتسام حب والديه مع هذا المنافس، أو إذا وجد نفسه متعرضاً للإهمال بسببه، فإنه لذلك يقاسي أهوال العذاب، حيث تحس الأم بطبيعة الحال أن الطفل الأصغر يحتاج إليها، ولقد راقبت هي نمو طفلها البكر بشعور من الأسف، وهي الآن تخص طفلها الثاني بالقسط الأوفر من حبها،

وهذا التحول المفاجئ يترك في الطفل الأول مرارة تستقر في عقله الناشئ لا يمكن محوها منه بسرعة.

ومثل هذه الأحاسيس يكون عميقاً في الأطفال إلى درجة أنه يتمنى الموت للدخيل الذي اغتصب منه قوته، وبعض الأطفال يحاول أن يستبعد الاهتمام به عن طريق الشكوى، كما أن المرض في كثير من الأحيان يكون طريق النصر الممهد أمام الأطفال المرهفين

والمرأة التي تعمد إلى استدرار الرثاء كي تصير موضع الاهتمام في دنياها طراز شائع معروف من النساء، ولكن الطفل أيضاً يستطيع أن يلعب مثل ذلك الدور.

والأطفال الذين يكونون حتى لهم أخ أو أخت لا غبار على سلوكهم، قد يصبح أحدهم بعد ذلك الحادث سيء السلوك إلى درجة لا تحتمل، وهم يثيرون سخط والديهم بما يصدر عنهم من تصرفات لا يمكن تعليلها، وهذه الحماقات التي قد تسبب الاشمئزاز والندم للأطفال أنفسهم، إنما هي في حقيقة أمرها جهود يبذلوها لكي يحملهم الوالدان على محمل الجد.

ومن رأي "أدلر" – وأعتقد أنه الحق في كثير من الأحيان – إنه يمكن التعرف بوضوح على الطراز السيكولوجي الذي ينتمي إليه الطفل البكر طول حياته من واقع اهتمامه بالماضي ومدى تحفظه، واكتئابه وحبه للتحدث عن الطفولة الباكرة بسبب كونها أسعد مراحل الحياة.

والطفل الأصغر يعيش من أجل المستقبل، المستقبل الذي ربما كان الطفل البكر قد حصل فيه على الامتياز، وكثيراً ما يكون شديد الاحتقار لغيره، وآراؤه السياسية كثيراً ما تكون أكثر نضوجاً من أخيه الأكبر، ومعظم السبب في ذلك في حالة المدنيات القديمة، راجع إلى وراثة الأخير، وآراء السير "ويليام هاركورت" السياسية المتطرفة كان يعارضها أخوه الأكبر، ولقد رد عليه بقوله: "أيها العزيز، إن الأراضي لك، فدع لي أفكاري"، وكذلك يجد الإنسان حين يدرس نمو "شاتوبريان" العقلي، أن مركزه باعتبار كونه الابن الأصغر، قد جعله يعطف على الأفكار الثورية في القرن الثامن عشر – في أيام شبابه على أقل تقدير.

وأصغر الأطفال تفسده كثرة التدليل هو الأخر، لاسيما إذا كان أصغر كثيراً من إخوته، ولكنه يكون طفلاً سعيداً لأن امتيازاته لن يغصبها منه أحد أبداً، وهو قرة أعين إخوته الكبار، الذين يحيطونه بعطف أبوي، وهو في كثير من الأحيان ينجح في حياته بسبب ثقته بنفسه أولاً، ثم لأنه – بالنظر إلى كونه يعيش مع إخوة أكبر منه – يتخذ من إخوته قدوة له، ويحاول أن يلحق بغبارهم، وهو يكتسب اللباقة والكياسة؛ لأنه أضعف الجميع، ومن ثم يتعين عليه أن يتفاهم ويتسامح.

ومن الأهمية بمكان أن يشعر الأطفال بأنهم يتمتعون بأنصبة متساوية من الحب، كما أنه لا ينبغي أبداً أن يسمح لهم باكتشاف وجود خلاف بين والديهم، فمثل هذه الأشياء تكون مصدر آلام لهم، والأطفال الذين يصبحون ثائرين على كل شيء عندما يكبرون كثيراً ما يكونون هم

الذين لاحظوا في طفولتهم وجود بون شاسع بين أقوال والديهم وأعمالهم، والبنت التي تنظر إلى أمها بعين الازدراء، جديرة بأن تنظر بنفس العين إلى كل النساء، والأب الطاغية قد يكون السبب في أن يعتقد أطفاله – ولاسيما البنات منهم – أن الزواج نوع من العبودية.

ويبدو لي أن من واجب الأب أن يبتغي فوق كل شيء، أن يمنح أطفاله أعظم قدر من السعادة على نحو ما يتفق مع نوع الحياة المقدر لهم أن يحبوها، وهذا الحد الأقصى من السعادة لا بد منه لأن الحياة قصيرة، ولأن ذكريات الطفولة هي أغلى ما يملكه الأطفال، وكذلك لأن شقاء الطفولة المكبوتة الكئيبة قد تلازم ظلاله حياة الطفل بعد أن يكبر.

وفي نفس الوقت، يجب أن يكون الوالد حازماً، وينبغي أن يجعل أطفاله يدركونه منذ بواكير أيامهم أن الدنيا لا يمكن غزوها بسهولة فهم إذا لم يدركوا ذلك، وجدوا بانتظارهم خيبة أمل فاجعة، وأنا أعرف أولاداً أنجبتهم أمهاتهم لا يتحملون مع كل صدام مع الحياة، حتى إن أول ما يصادفونه من لقاء زملاء خشنين غلاظ القلوب، يدفع بهم إلى اليأس، فهم عاجزون عن مجابهة الحياة، ولا يلبثون أن يستسلموا للفشل، ويبدو لي أن الإصرار على ضرورة مراعاة الطفل مراعاة دقيقة لعدد قليل من القواعد، فيما يتصل بالعمل والسلوك مع بذل الوالد كل ما في وسعه لضمان سعادة الطفل هي خير الوسائل للتأكد من أن الانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة، سوف يتم دون التعرض إلا للحد الأدنى من الألم.

على أن ألفة العمر بين الأم والابن قد تكون من أنبل العلاقات جميعاً، ولقد تحدثنا عن حب الأم لطفلها حباً يشبه العبادة، وعلى مر الأيام – ولاسيما بعد وفاة الوالد– تصبح تلك الألفة أقوى؛ لأن الابن يحب أمه ويحترمها، كما أن الأم بدورها تحيط رب الأسرة الجديد باحترامها الممزوج بحنانها ورعايتها، وهذا المزج الرائع بين المشاعر يتمثل بصورة أوضح في سن الشيخوخة، أو في المجتمعات الريفية، حيث تظل الأم مشرفة على إدارة المزرعة مع ابنها وزوجته.

وما أكثر ما رسم الكتاب الروائيون شخصية الأم المسيطرة التي لا تحب ولدها الحب الكافي الذي يجعلها تدرك أن سعادته قد أصبحت بين يدي امرأة أخرى.

ولقد سبق أن قلنا إن "د.ه.لورانس" قد عالج هذا الموضوع بصراحة، والأم من الطراز الذي يتحدث عنه، قد تظن أن حبها العميق لولدها أنها قد تكون مخطئة في ذلك الظن.

ولقد كانت "مسز رسكن" على حق حين قالت أن زوجها كان ينبغي له أن يتزوج أمه، ولم يكن في وسع "لورانس" أن يصف هذا الموقف مثل ذلك الوصف الذي ينبض بالإحساس، لو لم يكن يمسه هو من قريب.

على أن العلاقة بين الأم وابنتها تختلف عن ذلك من بعض الوجوه، ويحدث أحياناً أن يبلغ من اشتداد الألفة بينهما أن تصير البنت – رغم زواجها– غير قادرة على أن تصبر على رؤية أمها في كل يوم، ومن

الناحية الأخرى على أي حال، فإن تنفسا ينشأ بين المرتين، إما أن يكون سببه أن الأم لا تزال صغيرة السن، ومتحفظة وإما أن يكون السبب هو أن الابنة تغار من أمها بدافع من قلة ثقتها بنفسها، وفي مثل هذه الحالات، يكون من واجب المرأة الأكبر سناً، أن تكتم مشاعرها.

والحب الأبوي يختلف عن ذلك تماماً، والرابطة الطبيعية موجودة، ولكنها ليست عظيمة القوة، ولقد وصف "بلزاك" في قصته المعروفة "الأب جوريو"، والدا يضحي بنفسه تضحية تامة في سبيل أطفاله، ومع أننا لا ننظر بعين الاستنكار أو الدهشة إلى مظاهر الحب الأبوي مهما بولغ في إبدائها، فإنه يبدو لنا أن "جوريو" كان رجلاً مريضاً.

ونحن نعلم أن الآباء في كثير من المجتمعات البدائية لا يكون لهم أي شأن بتربية الأطفال، إذ يتولى الأخوالهم أمر تربيتهم، وحتى في الجماعات المتدينة التي فيها أرباب عائلات، يوكل أمر تعليم صغار الأطفال إلى المرأة، والطفل الصغير جداً ينظر إلى الوالد نظرته إلى المحارب أو الصياد، وفي العصور الحديثة ينظر إليه باعتباره رجل الأعمال الذي يعود إلى البيت لتناول طعامه، وكله شواغل غامضة ومشروعات ومناقشات.

والوالد يتمثل فيه العالم الخارجي، وهو الذي يشرف على أداء الأطفال لأعمالهم، وهو شخص لا يكاد يقنع بشيء؛ لأنه في معظم الحالات لم يظفر بالحياة التي كان يريدها، ولهذا فهو يرجو أن ينجح

أولاده حيث مني هو بالفشل، أما إذا كان هو رجلاً ناجحاً، فإنه يشتط إذ يتطلب أن يكون أولاده منزهين عن كل عيب أو نقص، ولما كان ذلك محالاً، فإن حبه المسرف لهم لا يلبث أن ينقلب إلى قسوة، وفوق هذا، فإنه يريد منهم أن يؤمنوا بما يؤمن به هو من المثل العليا، وهم لا يفعلون ذلك إلا نادراً.

ويحدث في بعض الأحيان، فيما بعد أن ينشأ تنافس بين الوالد وولده، على نحو ما يحدث بين الأم وابنتها: فالوالد لا يستطيع بسهولة أن يقنع نفسه بالتخلي عن إدارة أعماله، بل إنه ربما ساءه أن يجد ابنه أكثر منه كفاءة في تلك الناحية، ومن الجائز أن تنشأ بين الوالد وابنته ألفة مماثلة لتلك التي تنشأ بين الأم وولدها، وفي العالم الحديث نسخ مطابقة للأصل من "أنتيجون" مثل ابنة "تولستوي" الصغرى، أو بنات بعض الرجال الرسميين والسفراء، الذين اتخذوا منهن سكرتيرات سريات، وهنا أيضاً نجد حقيقة الحياة في إحدى القصص، فإن "الأب جراندي" كما صوره "بلزاك"، قد أراد أن يورث ابنته ما فيه من شراهة وبعد وفاته، كانت ابنته تشبهه فعلاً

وحين يلمس الوالدين المصاعب التي يواجهها أطفالهم في اتصالاتهم الأولى بالحياة الحقيقية يتذكرون أخطاء أنفسهم، ويتوقون إلى حماية أطفالهم المحبوبين، ويحاولون محاولات ساذجة أن يجعلوهم يستفيدون من تجاربهم، ولكن هذه التجارب يندر أن تكون ذات فائدة للآخرين على الإطلاق، فكل إنسان يجب أن يعيش حياته الخاصة به،

والأفكار تتغير بمرور السنين، وذلك النوع من الحكمة الذي يكتسبه الناس بفضل تقدم السن لا يمكن أن يكتسبها الشباب.

ولا يمكن أن تكون التجربة ذات قيمة إلا إذا كانت قد جلبت الألم، فترك الألم آثاره في كل من الجسد والعقل معاً، وليالي السهد، ومصارعه الحقيقية تجعل من الساسة رجالاً واقعيين، فكيف يمكن أن تعطي هذه التجارب إعطاء مفيداً شباباً مثالياً يعتقد أنه قادر على تحويل الكون دون أن يبذل في سبيل ذلك أي مجهود؟

إن نصائح "بولونيوس" كلها بديهي يشيع فيها الغباء، ولكن كلاً منا حين يبدأ في إسداء النصح لا يلبث أن يصبح هو "بولونيوس"، وهذه البديهيات الفجة تكون بالنسبة إلينا حافلة بالمعاني والذكريات والتصورات، و هي بالنسبة لأطفالنا شاردة عن واقع الحياة، وباعثة على الضجر، ونحن نتمنى أن نجعل من الفتاة ابنة العشرين ربيعاً امرأة ناضجة الحكمة، وهذا مما يستحيل تحقيقه استحالة مادية.

قال "فوفينارج" إن نصائح السن المتقدمة، كشمس الشتاء التي تمنح الضياء ولا تمنح الدفء، والشبان يثورون والكبار يصابون بخيبة الأمل، و يسود جو من التوتر والتأنيب، ونحن الوالدين لا نشكو أبداً من حماقة الأطفال التي لا بد منها.

وفي قصيدة من شعر "كوفنتري باتمور" سماها "اللعب"، كان أحد الآباء شديد الصرامة مع ولده، فهو في المساء يذهب إلى غرفة نوم

الصبي، فيجده مستغرقاً في النوم، ولكن أهداب عينيه لا تزال مبتلة من أثر الدموع، ويجد أنه قد وضع على مائدة مجاورة لفراشه في عناية وحذر حجراً فيه عروق حمراء، وبضع صدفات وعدد من الزهرات الزرقاء في زجاجة وقطعتين من قطع العملة الصغيرة، على أمل أن يتعزى في تعاسته برؤية الأشياء التي يحبها، وسذاجة الطفولة هذه التي تمس شغاف القلب، لا تلبث أن تجعل الوالد يحسن فهم عقلية ولده، ومن ثم يندم على قسوته.

وفي فترة مراهقة أطفالنا يجب أن نحاول استدعاء ذكريات فترة المراهقة التي مرت بنا، وألا نشكو ما لديهم من الأفكار والأحاسيس والحالات النفسية التي مصدرها فترة المراهقة، وهذا مطلب عسر، فنحن جميعاً حين نكون في سن العشرين، نقول: "إذا قدر لي يوماً أن يكون لي أطفال، فسوف أستطيع التقرب إليهم بحيث أكون لهم ذلك الأب الذي لم يستطع أبي أن يكون لي"

ولكننا حين نبلغ الخمسين نكون أشبه بوالدينا إلى حد بعيد، أما أبناؤنا على نحو ما كنا نرغب كثيراً، ومن غير فائدة أيضاً فإنهم يكونون أشبه بنا، على أن هذا يحدث بعد أن نمضي في سبيلنا، ويصبح دورهم على ظهر البسيطة مماثلاً الدور الذي لعبناه.

والإنسان خليق أن يرى كيف تسفر هذه الاصطراعات والمضايقات جميعاً عن وجود السن الحرجة، فالطفل الصغير الذي لم يشب عن

الطوق يمر بفترة يمكن أن نسميها "سن أرض الأحلام"، حيث يكون الطعام والدفء واللهو أرباحاً تمنحها آلهة مدبرة، واكتشاف وجود العالم الخارجي، وضرورة القيام بعمل يكون بمثابة صدمة تصيب أطفالاً كثيرين، والطفل يتخذ له من زملاء المدرسة أصدقاء يرى العائلة بعيونهم، وهو يدرك أن الأشخاص الذين جعلهم موضع ثقته على الدوام، والذين كانوا ضروريين بالنسبة إليه مثل ضرورة الهواء والماء، قد يبدو لأطفالهم أنهم مدهشون أو غير جديرين بالالتفات، وتنشأ كثير من العلاقات الجديدة، وتفتر الروابط التي تصل بينه وبين عائلته، ولكنها لا تنقطع أبداً، وفي هذه الفترة يتمتع الأشخاص الخارجون عن نطاق الأسرة بأعظم نفوذهم، وكذلك ينبغي أن تكون الحال، وفي هذه الفترة أيضاً ينقلب الطفل إلى ثائر، ولكن والديه يجب أن يظلا على حبهما له.

ولقد نوهت بأن الحياة العائلية تصبح بمثابة أمر واقع ممل، إلا إذا تأثرت بالدين والفنون، ولما كان المراهق شخصاً مثالياً على الدوام، فإنه تسوءه نصائح والده التي تشبه نصائح "بولونيوس"، وهو يصب اللعنات على العائلة وقوانينها، ويريد ما هو أكثر تمشياً مع العدالة، وهو يفكر في الحب باعتباره شيئاً عظيماً وجميلاً، كما أنه يحتاج إلى الصداقة والعطف، وذلك هو وقت خيبة الآمال؛ لأن العهود لا تصان، والثقات تخان والعشاق لا يستقرون على حال، وهو يريد أن تسير الأمور على ما يرام، ولكن الأمور دائماً تنحرف عن السبيل التي يريد، ومن ثم تنبع سحريته من المثالية المكبوتة، ومن اليأس بين أحلامه وبين الحقيقة التي يلمسها فيما حوله.

وهي فترة عويصة وفاجعة في كل حياة، والشبان لديهم أفكار كثيرة، ولكنهم لا يحملون أي تبعات، فهم لا يجدون أنفسهم في صراع يومي مع الناس والأشياء، وليست لديهم أسرة يعولونها، ولا أعمال يديرونها، ولا أي مسئوليات نحو المجتمع وهم يشغلون بالألفاظ والعبارات فحسب، وهذا يعطيهم فكرة غير حقيقية عن الدنيا كثيراً ما تكون عالية التحليق في سماء الخيال، ولكنها على الدوام غير صحيحة، والنساء والمجتمع، على بعد عظيم من تصوراتهم، وهذا يجعلهم غير سعداء.

ولكنهم لا يلبثون أن يودعوا عهد المراهقة، ومن ثم يتولى الزواج وميلاد الأطفال تقوية ذكائهم الخطر الواهم ودعمه بمسئوليات الأسرة، وبعد مران شاق على حياة العائلة، وكسب الرزق، ومعايشة الناس، يصبحون – رويداً رويداً– رجالاً حقيقيين، ويصيرون قادرين عل مساعدة أطفالهم المراهقين على اجتياز التجارب التي مروا بمثلها.

ولهذه الأسباب يحسن قضاء الجزء الأكبر من السن الحرجة خارج محيط الأسرة، وبهذا يتم اكتشف العالم الخارجي في المدرسة، ومن ثم تصبح الأسرة بمثابة بر الأمان إذا قورنت بما في خارجها، فإذا أمكن تدبير ذلك كان من واجب الوالدين أن يتذكروا أيامهم الباكرة، وأن يتسامحوا في حكمهم على الأخطاء التي وقعوا في مثلها من قبل، ويحدث في بعض الأحيان أن يكون ذلك التسامح عسيراً على الوالدين، في حين يكون الجدود أقدر على فهم الجيل الناشئ؛ لأن أعمارهم قد جعلتهم أقل تشدداً، فصارت عقولهم أكثر تحرراً؛ لأن زمنهن قد مضى.

إن فن الحياة العائلية على أعظم جانب من الأهمية، والأطفال الذين تشاء تربيتهم يمكن في بعض الأحيان أن يعيدوا صب شخصياتهم في قوالب جديدة، و قد يسفر افتقارهم إلي التوازن عن ظهور عبقريات، ولكننا نستطيع أن نضمن لهم حياة أسهل، إذا عرفنا كيف نتيح لهم طفولة هادئة سعيدة، والطفولة السعيدة هي تلك التي يشرف عليها والدان يحبان أطفالهما حباً مترفقاً حنوناً، ويفرضان عليهم نظاماً دقيقاً، ويحرصان على المساواة الظاهرة بينهم، ولا سبيل هناك إلي تجنب حدوث تغييرات قهرية في فترات معينة، وهنا ينبغي إسداء النصح السديد في غير إسراف، وأبعد النصائح أثراً هو ضرب المثل الصالح، وأخيراً، من الضروري تجديد جو العائلة بالسماح لتيارات من هواء العالم الخارجي بأن تنفذ إليه.

ولا بد الآن من توجيه سؤال أخير: هل الحياة العائلية مؤسسة مقدر لها البقاء؟ إنني أعتقد أنها شيء لا يمكن استبداله بغيره، لنفس السبب الذي يجعل من الزواج شيئاً لا يمكن استبداله بآخر يعوض الناس عنه، لأنه يحول غريزة الفرد إلى حساسية اجتماعية، وإذا كان قضاء السنوات الباكرة بعيداً عن الأسرة فكرة طيبة، فإنه بالنسبة إلي كل رجل تقريباً، بعد قضاء سنوات فى التدرب على الحياة، وفى المغامرات التى لا مفر منها، تأتى الساعة التى يعود فيها وهو قرير العين غير مكترث، أو حافل بضروب القسوة، يسعد التلاميذ، والفلاسفة، والوزراء، والجنود أن يرتدوا أطفالاً، أو آباء، أو جدود ، أو مجرد رجال حيث يجلسون إلى مائدة العشاء بين أفراد الأسرة.

فن الصداقة

تختلف روابط الصداقة كثيرًا، عن تلك الروابط التي تصل ما بين الزوجين، وبين الأسرة وإن كانت لا تقل عنها أهمية في حياة المجتمع والأحاسيس الفكرية تحتل مكان الصدارة في الصداقة، وتسيطر على الأحاسيس الغريزية، فما هو السبب في أن هذه الأخيرة غير كافية؟ ألا تسمح الأسرة للجميع بأن يعثروا بأقل صعوبة ممكنة على الرفقاء الذين يحتاجون إلي وجودهم أثناء رحلتهم عبر الحياة ؟

الجواب على هذا السؤال هو أن عدداً كبيراً من الناس يعيشون طوال حياتهم وهم يجهلون أمر الزواج، ومعظمهم لم يدرس موضوعه على الإطلاق، وبعضهم يهرب منه عامداً، وأنا أعتقد أن الحقيقة هي أن عدد النساء في العالم يزيد قليلاً عن عدد الرجال، ومن ثم لا تتاح لهن فرصة اختيار الأزواج، وإلى جانب هذا فإن هناك نساءً ورجالاً يبلغ من تمسكهم بآرائهم أنهم لا يقدمون على الزواج لمجرد الرغبة في الزواج؛ لأن لديهم أفكاراً وأذواقاً خاصة مقررة، إذا حان الوقت لاختيار شريك الحياة، ويخيل لمعظمنا أن من المستحيل أن يقضى أحد حياته دون لقاء رجل واحد أو امرأة واحدة – على الأقل – يمكن أن يتحقق معه أو معها اقتران سعيد.

ومهما يكن من شيء، فهناك أشخاص معينون يعيشون بمعزل عن العالم إلى درجة أنهم لا يلقون أحداً، كما أن هناك آخرين قد سادت حياتهم أجواء من العداوة والبغضاء، فهم دائما ممتعضون غير راضين، هذا فضلاً عن وجود أشخاص غير هؤلاء وهؤلاء، قد أعرضوا عن الزواج بسبب ما تعرضوا له في بواكير أيامهم من الوهم، أو الخوف، أو النفور الجنسي، أو بعض العقد النفسية الغامضة، ورابطة الزواج تتطلب شجاعة، والواجب أن يقذف الإنسان بنفسه إلي الزواج كما يقذف السباح بنفسه إلي البحر، وتلك شجاعة لا توجد لدى كل الناس.

والرغبة في الزواج تشتد في بعض الأحيان، غير أنه يتضح أن الشخص الذى وقع عليه الاختيار، قد رسم لحياته طريقاً آخر، وهنالك يلعب الكبرياء، أو الأسف الموحش لعاطفة لم تظفر بما يرضيها دوره، ويجيء الوقت الذي تصبح فيه هذه الذكرى الراسبة في الأعماق رسوب الدين، مجرد نحلة جوفاء، على أن السيف يكون قد سبق العذل؛ لأن الشباب قد ولى، بما فيه من قابلية للملاءمة، وبما يتاح له من فرص الغزو.

والنجاح في الزواج يستلزم كثيراً من التسامح، وبطريقة طبيعية يصبح الأعزب معتاداً، إلى درجة تزيد عما ينبغي لحياة الوحدة، بحيث لا يعود في وسعه أن يجعل من نفسه زوجاً سعيداً، حتى لو أراد ذلك.

ومن المحال أن يتصور الإنسان "ستندال" رجلاً متزوجاً، والحياة يجب أن يكون فيها حلولًا أخرى لأمثال هؤلاء الناس فأين يستطيعون أن يجدوا الوسيلة التي تمكنهم من الخروج من عزلة تامة غير إنسانية، ويحتمل أن تؤدي بهم إلى الجنون وهل تستطيع عائلات تهيئة تلك الوسيلة؟ ولكننا شرحنا السبب في أن العائلات لا تغير نفسها للنمو المتحرر للكائنات البشرية، والتورط في محيط أسرة عقبة في سبيلها.

ومن السهل أن تتصور كهلاً أعزب لا ملجأ له سوى ذلك الذي تستطيع أن تقدمه له عائلته، وفي قصة "ابن العم بون" تصوير لمثل تلك الحالة، وإن كان "بلزاك" قد شرح إلي أي درجة يمكن أن تكون تلك الرابطة من عدم الاستقرار، وإلى أي حد يمكن أن تكون غير مرضية، فلقد تم إنقاذ "بون" بفضل الصداقة وحدها.

وحتى بالنسبة إلي أولئك الذين أنشأوا أسرة، وبالنسبة إلى الزوج والزوجة اللذين يحب كل منهما الآخر حباً صادقاً، والأطفال، الذين يعيشون فى صفاء مع والديهم، وبالنسبة إلى "دون جوان" أيضاً، بعشيقاته الثلاثة بعد الألف، لا بد من وجود شيء آخر إلي جانب هذا.

ونحن كثيراً ما نجد أنفسنا غير قادرين على التحدث عن أقرب شيء إلي قلوبنا مع عائلاتنا أو مع الأشخاص الذين نحبهم؛ لأن الروابط العائلية من الدم، و ليست من العقل، ولأن العاطفة تعطى بسهولة متناهية، ولأن كلاً من الشخصين المتحابين إنما يقوم بتمثيل دوره،

وهكذا نجد أن في عقول الجميع – الأطفال، والأب، والأم، والزوج، والزوجة، والعشيق، والعشيقة – شكاوى لا يتحدث عنها أحداً.

وهذه الأحاسيس المكظومة المكبوتة تسمم عقول الأشخاص الذين يحاولون اختبار أفكارهم ومشاعرهم، كما تتسمم الأنسجة نتيجة لوجود أجسام غريبة تحتوي عليها بعض الجروح، ومن واجب هؤلاء أن يتحدثوا، ويفتحوا عقولهم، ويكونوا على سجيتهم من تلك الناحية يعني محيط العائلة، أو الحب.

ويجب الإفصاح عن الأحاسيس الخفية أو الثائرة، وينبغى مناقشتها مع أصدقاء حميمين حتى لو رفضوا النصيحة، فإنهم سيفضون بما يكتمونه من سوء النية والحقد، فهناك حاجة ماسة إلى رابطة أخرى غير رابطة الحب، كما أن هناك حاجة إلى جماعة أخرى من الناس، غير جماعة الأسرة.

كيف تولد الصداقة؟

إن الحب الجنسي يمكن تعليله بسهولة، فالنظرة واللمسة، واللقاء بمحض المصادفة، قد ينجم عنها إعجاب ورغبة، والحب يبدأ بالحب، وأعمق الحب وأصدقه، هو عادة ما يجيء فجأة ودون مقدمات.

تقول "جولييت": تعالي أيتها الممرضة، من هذا السيد الذي هناك؟ إنه إذا كان متزوجاً، فإن قبري سيكون أشبه بمخدع عرسي.

وليس للحب علاقة تكاد تستحق الذكر، بالقيمة الأخلاقية، ولا بالذكاء، ولا حتى بالجمال الذي يتمتع به الشخص المحبوب، ولقد كانت "تيتاليا" تشعر بأرق الأحاسيس نحو "بوتوم" الذى كان له رأس حمار.

والمثل السائر الذي يقول "إن الحب أعمى"، إنما هو بديهة لا حاجة إلى التنويه بها، ولكنه حقيقة جوهرية أيضاً، و غراميات الآخرين يشوب بواعثها الغموض على الدوام، وعبارة: "ماذا تستطيع أن ترى فيه؟" هو سؤال توجهه كل امرأة عن كل امرأة أخرى، ولكنه بالنظر إلى أن الشعور تغذيه الرغبة يزدهر في التربة التي يبدو لعابر السبيل إنها قاحلة.

و ميلاد الصداقة أكثر بطء، وهي فى مراحلها الباكرة تبدو كأنها نبات غض إلى أبعد حد، حتى إن الحب قد يخنقه وهو ينمو ويترعرع بجوار ساقه الشاحبة الضعيفة، ويقول "لاروشفوكو" إن النساء قليلات الميل إلى الصداقة؛ لأن الصداقة لا طعم لها إذا قورنت بالحب، حقيقة لا طعم لها! كلا، بل هي واضحة في مراحلها الأولي وضوحاً مؤلماً، وعمى "تيتانيا" لا يؤثر على أولئك الذين ينشدون الصداقة؛ لأن رأس الحمار عندهم هو رأس الحمار، وكيف يستطيع الإنسان أن يحب شخصًا له رأس حمار؟ وكيف يمكن أن تنشأ رابطة الصداقة الوثيقة، بين شخصين يتضح كل الوضوح، أن أحدهما لا يشعر بالجاذبية الجسدية نحو الآخر؟.

وهذه الرابطة الوثيقة تكون في بعض الحالات طبيعية تماماً، وذلك لسبب بسيط هو أن الشخص الذي يتم اللقاء به يملك من المواهب النادرة ما يجعله يدرك حقيقته الشخص الآخر، وهناك صداقة من أول نظرة، كالحب من أول نظرة حيث ينجم عن كلمة، أو ابتسامة، أو نظرة، إماطة اللثام عن روحٍ متآلف، والعمل الجميل يؤكد لنا أننا قد اكتشفنا شخصية نبيلة.

وهكذا تبدأ الصداقة بالصداقة، كما يبدأ الحب بالحب، وهذه الصداقات المفاجئة يمكن أن تنشأ، حتى إذا كان الصديق المختار لا يمتاز بشيء من المواهب العالية، لأن التقدير نسبي في جميع الأحوال، ويحدث أن تصير فتاة صديقة لأخرى لا تكاد تفارقها، ومستودعاً لأسرارها أيضاً، فجأة ودون مقدمات في حين تكون عند فتاة ثالثة مكروهة إلى أبعد حد، ففي الحالة الأولى، ينجم عن محض المصادفة والاتفاق، ومن ثم تنشأ الصداقة.

وفيما عدا الحالات الشاذة، لا يحتمل أن يسفر مثل ذلك اللقاء العارض عن صداقة دائمة، إلا في النادر القليل، والزواج يدعم أركان الحب في أحيان كثيرة، أما الصداقة في أولى مراحلها، فإنها تستفيد أيضاً من بعض أنواع ضبط النفس، فالكائنات البشرية من طبعها الكسل، وكثيراً ما يمل الإنسان شعوراً حديث الولادة، بغير سبب معقول، إلا إذا كان هناك شيء من ضبط النفس يقوي ذلك الشعور ويدعم كيانه: "إنه يكرر نفسه .. إنها تروي نفس القصة مرة بعد مرة .. إنها تتأخر عن موعد

حضورها دائماً .. إنه كثيراً ما يثير الضجر في نفسي ... إنها لا تكف عن الشكوى"، في مثل تلك الحالات يكون ضبط النفس ضرورياً لا غنى عنه، وفي الكليات الجامعية، والمجتمعات الخاصة، والجيش، والبحرية، ومطاعم الضباط في زمن الحرب، وعلى موائد الطعام التي يتردد عليها ويلتقي موظفو المدن الصغرى يومياً، وفي النادي يوجد في كل تلك الجماعات نوع من الالتزام العائلي على جانب ملحوظ من الفائدة.

فالناس مضطرون إلى أن يعيشوا معًا، وهذا يجعلهم أقدر على أن يقدر بعضهم بعضاً، ومن ثم ينتهي بهم إلى احتمال كل منهم للآخر.

ومهما يكن من شيء، فإن هذه الصداقات العارضة ليس من الضروري أن تكون صداقات حقيقية، ويقول «آبيل بونار» في هذا المعنى «نحن نتعزى بوجود عدد من الأصدقاء، عن عدم عثورنا على صديق حقيقي واحد»، والصداقة الحقيقية لا يتطرق إليها أي شك في الاختيار الذي روعي فيه مزيد من التأكد، ولقد كان «مونتاني» يخص «لابواتي» بمزيج من الاحترام العظيم والحب، وليس في مقدور كل النساء وكل الرجال أن يتفانوا على هذا النحو في أولئك الذين يحترمونهم، وبعض الناس تستبد به الغيرة ممن يفضلونهم حتى أنهم يكونون أكثر انشغالاً بكشف أخطأ الشخصية التي تفوقهم نبلاً، منهم بمحاكاة فضائلها، كما أن بعض الناس يخشون الرأي الصادر عن عقل راجح نير، ويفضلون صداقة شخص أقل تشدداً في طلب الكمال.

«إن الرجل اللائق للصداقة، هو ذلك الذي لم يعثر الناس فيه شعورًا بالاشمئزاز من الجنس البشري والذي يعتقد ويعلم بوجود قليل من الرجال النبلاء، وقليل من العقول العظيمة، وقليل من الأرواح السارة المبعثرة بين الزحام، لا يمل البحث عنهم، ومن ثم يحبهم حتى قبل أن يعثر عليهم»، وأحب أن أضيف إلى كلمات «نوبار» هذه، إن قليلاً من نواحي الضعف اللطيفة، إذا أضيفت إلى تلك المواهب السامية، فإنما تنمي حبنا لشخص ما بدلاً من أن تحول دونه ولا يمكن أن نكون مضمرين الحب الكامل لأولئك الذين لا نستطيع أن نبتسم لهم، على أن هناك شيء غير إنساني في الكمال المطلق يحير العقل والقلب ويطالب بالاحترام، ولكنه لا يسمح للصداقة بأن تقترب كثيراً، وذلك بفضل ما يعمد إليه من وسائل الزجر والتعذيب، ونحن نفرح دائماً حين يؤكد لنا أحد العظماء الإنسانية، بالكشف عن بعض نواحي الشذوذ فيه.

وعندها قد تميط الكلمة أو النظرة العابرة اللثام عن تشابه في الشخصية والذكاء. وضبط النفس، وقوة الإرادة، يسمحان لهذا التعاطف المبكر بأن ينمو ويشتد ساعده، ويتم تبادل الثقة، وسرعان ما تكتسب من حرية الفكر مع هذا الغريب عنا نسبياً، ما يزيد كثيراً عما يتاح لنا مع أولئك الذين تصل بيننا وبينهم روابط الدم، أو الحب الجسدي.

ومن الخير هنا أن نسأل أنفسنا: ماذا يميز بصورة أدق، بين الصداقة – وهي عاطفة لا تقل نبلاً عن الحب الملتهب إلى أقصى حد – وبين مجرد الزمالة، وهي أكثر تفاهة وأقل اكتمالاً؟.

يقول «لاروشفوكو»: «إن ما يسميه الرجال صداقة ليس سوى اتصال اجتماعي، وتبادل خدمات ومنافع، وهي تصل إلى حد أن تصير صفقة تجارية يتوقع تقدير الإنسان لنفسه أن يربح فيها»، ولقد كان «لاروشفوكو» ساخراً فيما قال: أو على الأقل، كان يجب أن يظن نفسه كذلك، ولقد شرح هنا بدقة ما هو الشيء الذي ليس بالصداقة في العلاقات بين الرجال: صفقة تجارية! كلا فالصداقة لا يمكن أن تكون كذلك أبداً، بل الأمر على العكس من ذلك، لأنها تنطوي على انتفاء الأغراض تماماً.

ونحن لا يمكن أبداً أن نتخذ صديقاً من رجل يبحث عنا حين نكون قادرين على أداء خدمة له، ثم يهملنا بعد أن يتم أداؤها.

وليس من السهل دائماً أن نشتم وجود الغرض في نفوس الآخرين، لأن المغرضين من الناس يتقنون إخفاء أغراضهم، ولقد ترامى إلى سمعي الحديث الآتي مرة من المرات:

قال الزوج: « كوني لطيفة بنوع خاص مع أسرة (س)».

وأجابت الزوجة بقولها: « لماذا؟ إنهم قوم يبعثون على الضجر إلى أبعد حد، وأنت لست في حاجة إليهم».

وقال الزوج: «لا تكوني غبية، إنني سأكون في حاجة إليه عندما يعود إلى الوزارة، وهو متأكد من هذه العودة إن عاجلاً وإن آجلاً، وسيكون تقديره لاهتمامنا أعظم، حين لا يكون في منصبه».

ووافقت الزوجة المعجبة قائلة: «أنت على حق، فسوف يبدو ذلك الاهتمام من جانبنا عملًا ينطوي على مزيد من المودة».

ولقد بدا فعلاً أن ذلك الاهتمام فيه مزيد من المودة، ولكنه لم يكن صداقة، وفي كل مسالك الحياة، من الطبيعي أن يدوم هذا النوع من المعاملة بين الرجال الذين يمكن أن يتبادل بعضهم المنافع مع بعض، وهناك تقدير متبادل، وخوف متبادل، والذين يتبادلون الخدمات يسجلونها تسجيلاً: «سوف أعينه سفيراً: وسوف تكف صحيفته عن مهاجمتي».

ولا شأن للصداقة بمثل هذا التعامل، ويجب على الصديقين بلا شك، أن يساعد كل منهما الآخر كلما سنحت الفرصة، ولكن مثل هذه الخدمات يجب أن تؤدى بصورة طبيعية تدفع به إلى زوايا النسيان، فإذا لم يكن نسيانه ممكناً، وجب اعتباره شيئاً لا أهمية له، وهنا لا ينبغي أن يكون ثم موضع للرضا عن النفس، والطبيعة الإنسانية تجعل منظر ضعف الشخص الآخر يوقظ –حتى في خير الناس– شعوراً بالقوة، يجمع بين أصدق الرثاء وبين مزيج من الإحساس بالاغتباط لا يكاد يدركه الإنسان.

يقول «لاروشفوكو» صادقاً: «إننا نجد دائماً فيما يحل بخير أصدقائنا من النكبات، شيئاً لا نشعر نحوه بالاستياء». وفي كتاب الريف، يقول «موريال»: «إننا نتوق دائماً إلى مساعدة من يخونهم الحظ، ولكننا لا نحب احتفاظهم بساعة الحائط في غرفة الجلوس».

وكثيراً ما يقال إننا في أوقات الرخاء نحظى بأصدقاء كثيرين، وإننا في زمن الشدة يكون نصيبنا الإهمال، وأنا لا أوافق على هذا، فالأمر لا يقتصر على تجمهر الأخساء اللؤماء حولنا كي يشهدوا ما حل بنا من الخراب، بل إن تعساء آخرين يحذون حذوهم، فبعد أن كانت سعادتنا تحول بينهم وبيننا، قد أصبحوا الآن يشعرون بأنهم صاروا أقرب إلينا، بسبب ما نعانيه من متاعب، ولما كان الشاعر «شيللي» فقيراً مغموراً، كان لديه من الأصدقاء أكثر مما كان لدى الشاعر «اللورد بيرون» وهو في قمة مجده، والإنسان لا بد أن يكون على قدر عظيم من النبل، كي يستطيع أن يصادق سعداء الحظ، دون أي شائبة من الأغراض والغايات الشخصية.

وانعدام الأغراض والأهواء الشخصية، من المميزات الضرورية للصداقة الحقيقية، ومن واجب الصديق أن يعمد إلى الحدس والتخمين في معرفة مشاكل صديقه، وأن يبذل له العون قبل أن يطلب منه صديقه عونًا، وإذا كانت لأصدقائنا حاجات نستطيع قضاءها، فمن واجبنا أن نعفيهم من ضرورة طلب العون منا، وفضلاً عن الرضا الذي يسفر عنه

العمل عادة، فإن هذه المقدرة الدائمة على منح السرور قد تكون هي الميزة الوحيدة للثراء والقوة.

ومن مميزات الصداقة كذلك – فيما أعتقد– تبادل الإعجاب، ولعلك تقول: «ولكن لي من الأصدقاء من لا يحوزون إعجابي، ومع هذا فإنني أحبهم برغم ذلك، ولا أتورع عن أن أقول لهم بصراحة أنني غير معجب بهم» ، وهنا خلط يحتاج إلى مزيد من الغوص إلى أعماق الحقيقة، فنحن جميعاً لنا أًصدقاء نجابههم بالحقيقة القاسية، والواقع أنه لا يمكن أن تكون هناك صداقة حقيقية بغير هذا النوع من الإخلاص، ولكن إذا كنا نستطيع احتمال النقد من صديق، في حين أنه لو جاء من سواه لأشعل فينا نيران الغضب، أو ليس السبب في ذلك هو أننا نعلم ما يكنه لنا من إعجاب جوهري؟ وأنا لا أعني أنه يظن أن فينا كل الفضائل، أو أننا نمتاز بذكاء خاص، فالأمر أشد تعقيداً من ذلك، فإنني أعني أنه قد درس أخطاءنا وصفاتنا الحميدة ثم وقع اختياره علينا، والأحسن من هذا أنه آثر تفضيلنا على غيرنا.

ومن الأهمية بمكان عظيم أن ندرك أن الإخلاص ممكن لسبب واحد، هو هذا الإعجاب، ونحن نتقبل أي نقد من ذلك الشخص الذي يحبنا أو يعجب بنا، لأن ذلك لا ينال من الثقة بالنفس التي بغيرها تصبح حياتنا شيئاً لا يحتمل، وكان هذا وحده سبباً في نشوء صداقات عظيمة بين عدد من الكتاب، فلقد نقد «لوي بويليه» كتابات «فلوبير» نقداً

مخلصاً، ولكن «فلوبير» لم يغضب لذلك النقد لأنه كان يعلم أن «بويليه» يعتبر أستاذاً.

ولتتولى السماء حمايتنا من «الصديق المخلص»، الذي يتكون إخلاصه من شيء واحد هو تكدير خاطرنا، والذي يحرص على تحذيرنا مما يقال عنا من أحاديث النشر، ويبدو أنه مصاب بصمم غريب لا يسمح له بأن يسمع ما يقال عنا من أحاديث الخير.

ولتحمنا السماء أيضاً من الصديق الذي يستاء بسهولة، والذي يرفض أن يضع نصب عينيه على الدوام أننا متعلقون به، ولكن الحياة قصيرة وصعبة، والكائنات البشرية متقلبة الأهواء، ومن ثم يظل يراقبنا دون كلل، على أمل أن يفسر كل بادرة من بوادر نفاد الصبر أو انحراف المزاج بأنها نذير.

على أن الشخص الذي يستاء بسهولة لا يمكن أن يتاح له أصدقاء حقيقيون. والصداقة الحقة، تعني الثقة الكاملة، التي يمكن منحها إلى أبعد حد، أو الضن بها إلى أبعد حد، وإذا لم يكن بد من أن تكون الصداقة باستمرار موضوعاً للتحليل والرعاية والعلاج، فإنها تسبب فوق ما يسببه الحب نفسه من العذاب، دون أن يكون فيها مثل ما في الحب من القوة والإسعاد، أما إذا وضعت هذه الثقة في غير موضعها! فلا بأس، إنني أفضل أن يخونني صديق زائف، عن أن أخدع صديقاً صدوقاً.

هل الاعتماد الكامل يقتضي تبادل الثقة تماماً؟ إنني أعتقد أن الصداقة الحقة لا يمكن أن يكون لها وجود بغير ذلك، وقد قال «يونج» إن من أهداف الصداقة إعادة إدماج الأفكار والمشاعر المكنونة مع الاتصالات الاجتماعية العادية، وكيف يمكن أن تكون لإعجاب الصديقة أي قيمة، إذا كان من آثار ذلك الإعجاب هو «أنا» الزائف وليس أنا الحقيقي؟

وحتى يستطيع اثنان من الناس، التعمق إلى مستوى ذكريات الأحلام، فإن حديثهما يكون غير ذي موضوع في حقيقته، ولا يلبث أن يدركه ذبول الفناء، في حين أنه بمجرد أن يبلغ البحث العميق الكافي، فسرعان ما تنبعث الثقة، ولا شيء أبعث على الغبطة من الانتباه –أثناء حديث ممل لا حياة فيه حتى ذلك الحين– إلى تلك الحيوية المتزايدة شيئاً فشيئاً، ومن الناحية الأخرى، فإن المحافظة على الثقة مطلب عسر، وصواب الحكم لا يكتسب بسهولة، ومن اليسير أن تكون مركز اهتمام جماعة ما، بإفشاء حقائق غير معروفة، وإذا لم يكن لدى الإنسان ما يقوله من عندياته، استبد به إغراء شديد كي يدهش الناس بسر خفي يفضي به إليهم، وبهذه الطريقة، تخان الثقة من غير قصد.

قال «باسكال»: «لا يوجد إنسان يقول عنا في حضورنا ما يقوله في غيابنا، وجميع المشاعر الودية أساسها هذه الخديعة المتبادلة، وما أقل الصداقات التي كان يمكن أن تستمر، لو أننا علمنا ما قاله أصدقاؤنا من وراء ظهورنا».

وقد أشار «بروست» إلى مدى ما كان يمكن أن يتملكنا من الدهشة لو أننا نظرنا في لمحة خاطفة إلى صورتنا كما تبدو في عقول الآخرين، ولا بأس بأن أضيف إلى هذا قولي: في عقول أولئك الذين يحملون لنا الود، وكثيراً ما ينفصل أقرب الأصدقاء بسبب واحد هو مجرد الأقاويل التي يتخرص بها قالة السوء، والتي تكون صحيحة في بعض الأحيان، ولكن طائشة على الدوام.

ويحدث أحياناً أن تكون الأسرار خفية وهامة إلى أبعد حد، حتى إنه لا ينبغي أن يؤتمن عليها أحد سوى أولئك الذين يعتبرونها من أسرار المهنة: مثل القسس والأطباء، وقد يحق لي أن "أضيف إليهم الكتاب القصصيين، وهم كثيراً ما يتوخون حسن التقدير، حين يضعون ما يسمعون من أسرار الناس في مؤلفاتهم، في صورة تختلف عما سمعوه".

ومن الواجب أن نعامل بمنتهى القسوة، أولئك الذين يخبرون الناس بما سمعوه من غيرهم، فالأحاديث المكذوبة أو الصحيحة، قد تسبب الألم، وقد تفرق بين الأصدقاء، وهناك قاعدة مثلى ينبغي اتباعها هنا: لا تخاصم من قيل عنه أنه خاض فيك، بل خاصم من نقل إليك ما قال، ولا سيما إنه ليس هناك سبيل للتأكد من أنه قاله.

وكذلك ينبغي علينا أن ندافع عن أصدقائنا في كل الحالات، لا بإنكار شهادة الشهود – فليس أصدقاؤنا قديسين، وربما كانوا قد أخطأوا بل قارفوا أخطاء جسيمة – بل بتوكيد كل احترامنا لهم في شجاعة فائقة،

وأنا أعرف سيدة كلما هوجمت إحدى صديقاتها الحميمات في حضورها، لا تزيد عن أن تقول: «إنها صديقتي»، وترفض أن تقول أكثر من هذا، وهذا فيما أعتقد، حكمة لا يتطرق الشك إلى حقيقتها.

والصداقة – كالزواج– معناها عهد عبر عنه «آبيل بونار» بقوله: «إن الصداقة هي اختيار أكيد لا يتغير لشخص اصطفيناه، لأنه يملك صفات تحوز مزيداً من إعجابنا» ، على أنه لا ينبغي أن يكون هناك أي اشتراط، فإذا نشأت الصداقة وجب على الصديقين أن يظلا كذلك على الدوام، ولكن داعية من دعاة الأخلاق والمبادئ لن يلبث أن يهتف بقوله: «وماذا عسى أن يحدث، إذا أثبت صديقك أنه لا يستأهل صداقتك؟ هل تظل تحبه إذا ذهب إلى السجن، أو إلى المقصلة؟» بكل تأكيد! اقرأ في قصة «ستندال»، «الأحمر والأسود»، عما حدث لصديق «جوليان» المدعو «فوكيه»، والذي ذهب معه إلى المقصلة.... أو اقرأ قصيدة «كبلنج» التي عنوانها «الرجل الألف»، والتي يقول فيها:

إن تسعمائة وتسعة وتسعين رجلاً.

لن ينتظرون الوقت المناسب..

للخجل، أو السخرية، أو الضحك.

ولكن الرجل الألف سيقف بجانبك.

عند وصولك إلى المقصلة... وبعد ذلك!.

وإني لأعتقد أننا لا نحتاج إلى أكثر من تأمل الحياة، كي نقتنع بأن النساء يمكن أن يصبحن صديقات، على أنه ينبغي التنويه بأن الصداقات بين الفتيات الشابات تتمخض عادة عن مشاعر حقيقية، تزيد في عنفها عن عواطف الشبان، كما أن فيهن عنصراً من التآمر والتحالف السري يقف في مواجهة كل الأعداء، وهنالك أعداء مختلفون فالأسرة في بعض الأحيان، والرجال في أحيان أخرى، يعتبرون كجنس معاد يشعر إزاءه الجنس الأضعف بضرورة تكتل القوى، كما أنه يحدث في بعض الأحيان أن يكون العدو جماعة أخرى من الفتيات، وهذه الحاجة إلى التآمر وتبادل المساعدة، مرجعها إلى شدة ضعف الأنثى المراهقة، وإلى ما تعرضت له من شدة الكبت زمناً طويلاً، وفي القرن التاسع عشر، لم تكن تستطيع أن تذكر في محيط العائلة شيئاً من الأشياء التي تشغل فكرها باستمرار، ولهذا كان عليها أن تتخذ لها فتاة تجعلها موضع أسرارها.

والزوج الناجح يضع حداً للصداقات النسائية، ولكن الزوج إذا فشل، فإن الزوجة الشابة يتعين عليها أن تفضي بأسرارها إلى امرأة أخرى، ومن ثم ينبثق التآمر من جديد، لا ضد الأسرة، بل ضد الزوج، والكثيرات من الزوجات يبقين طول حياتهن مخلصات لفكرة الاتحاد بقصد الدفاع عن أنفسهن ضد قبيلة الرجال الخطرة.

وهذا الاتحاد يصبح لا أثر له بغير شك حين تتنافس امرأتان في حب رجل واحد، ويجب أن يكون لدى المرأة نبل روحي عظيم، وإيمان وطيد بأنها سعيدة الحظ، كي تستطيع أن ترضى دون تحفظ، عن سعادة

صديقة لها مع رجل كان من الممكن أن تمنحه هي حبها، وبعض النساء، بسبب مركب النقص بلا شك، لا يمكنهن أن يشهدوا مثل هذه الحالات دون أن يرغبن على الفور في القضاء عليها لمصلحتهن الخاصة، فهن يرغبن في الحصول على الرجل لا من أجل نفسه، بل لكي يثرن غيظ المرأة الأخرى.

على أنه من الجائز أن تنشأ أصدق الصداقات وأصفاها بين النساء الموفورات الحظ من الثقافة، ولقد نشأت مثل تلك العلاقات بين مدام «دي لافاييت» ومدام «دي سيفيني» ، من عهد المراهقة حتى آخر أيام الحياة، دون أن يطرأ عليها أي انقطاع أو فتور، ولم تكن هناك أي خلافات سوى تلك التي كانت تحاول فيها كل منهما أن تثبت للأخرى أيتهما أكثر حباً لصديقتها.

والعائلات تغار كثيراً من الصداقات بالغة الوثاقة، وهذا أمر واضح لا يصعب فهمه، فالصديق مستودع الأسرار لا مناص من أن يكون موضع عداء الأسرة، ولقد قيل دائماً إن المرأة متى تزوجت، أفسدت ما بين زوجها وبين أصدقائه، على أن هناك نوعاً من الأحاديث المقصورة على الرجال يقرب ما بينهم دائماً، ويثير الضجر في نفوس النساء، ويتيح للصداقة أن تثأر لنفسها بأساليب مستغربة.

***

وكثيراً ما قيل إن الصداقة بين الرجل والمرأة لا يمكن أن ترتفع إلى مستوى الصداقة بين الرجال، وقد اعترض بعضهم على هذا بقول: وكيف يمكن ألا يكون لمسائل الجسد وجود في مثل تلك العلاقات؟ وإذا هي لم توجد، أفلا تكون أقل النساء جدارة بوصف «اللعوب»، جديرة بأن تشعر بأنها أهينت؟ أنه ليس طبيعياً أن يتصل رجل بامرأة اتصالاً طليقاً على نحو ما يحدث عادة في الصداقة دون أن يشعر أحياناً بوجود رغبة الجسد، فإذا هو شعر بها فإن جهاز المشاعر كله لا يلبث أن يتحرك.

وحين يعزم رجل على غزو امرأة، يختفي إخلاصه، حيث تتسلل الغيرة، وتفسد ما لا غنى للصداقة عنه، من الهدوء والسكينة، والصداقة تعني الثقة الطبيعية، والمشاركة في الأفكار، والذكريات، والآمال، أما في الحب، فإن الرغبة في إرضاء الحبيب تحتل مكان هذه الثقة، وتصب الأفكار والذكريات في مصفاة من العاطفة الواعية، والصداقة تعيش على الأمن وحسن التقدير، والكياسة، أما الحب فيعيش على القوة، والغبطة، والخوف، «في الحب، يعفو الإنسان عن الاستهتارات المؤذية، أكثر مما يعفو عن الخيانات الضئيلة». والسكينة الوادعة التي هي أعظم مميزات الصداقة، يحتل مكانها في الحب خوف دائم من فقد المحبوب، وماذا يعني الرجل وهو في نوبة من نوبات «الحب العظيم»، من أمر الانسجام الفكري والتفاهم المتبادل؟ إن هذه الأشياء تعني أولئك الذين لم يعرفوا الحب، أو الذين نفضوا من الحب أيديهم.

ونحن نعرف قصصاً من التاريخ نشأت فيها صداقات نقية بين رجال ونساء، وسيوافق المعترض على هذا، ولكنه لن يلبث أن يصرح بأن تلك الحالات يمكن تقسيمها إلى ثلاث شعب غامضة خادعة: الأولى تضم الخياليين ممن اكتووا بنار الحب، الذين يقبع غرامهم اليائس سجيناً في غيابة العاطفة، وقد كتب «بروست» عن أولئك المستضعفين الذين تعرفهم النساء على الفور، وبفضل قليل من الكلمات الودية، والإيحاءات التي لا تضر، يبقينهم في حالة من الإعجاب الطيع بقصد الاحتفاظ بصحبتهم، وهن ينادين هؤلاء الرجال بأسماء التدليل، ولكنهن يضحين بهم دائماً في سبيل عشاقهن.

ويحدث أحياناً أن تكون المرأة أيضاً شديدة الانسياق لعواطفها وخيالاتها، ومن ثم تنشأ صداقة غرامية، وفي قصة حياة مدام «ريكامييه» مثل حي لمثل تلك الحالة. وهذا النوع من الصداقة، بسبب الشبه الزائف بينه وبين الحب، يكون على الدوام عرضة لأن يقع فيه رجل من نوع «شاتوبريان»، كما أنه يكون –حتى ينتهي أجله– غير جدير بالاهتمام.

وفي الحلقة الثانية من هذا التطهير العاطفي، نجد رجالاً تقدمت بهم السنون ينشدون في الصداقة ملجأ أميناً لأنهم لم يعودوا في سن تتناسب مع الحب، فلماذا يكون تقدم السن هو أنسب الأوقات لنشوء الصداقة بين الرجل والمرأة؟ ذلك بأنهما لم يعودا –من ناحية معينة– رجلاً وامرأة، ولم يبق لديهما من الغزل إلا صبابات، ومن الغيرة إلا

ذكريات، ولكن هذا لا يكفي لأن يضفي نوعاً من البهجة التي تظللها الغيوم، على الصداقة المستنيرة، وفي بعض الأحيان يكون أحد الطرفين هو الطاعن في السن دون الآخر، ومن ثم يصبح الموقف أشد صعوبة ولكن قد تنشأ صداقات يطول مداها من شبان خلعاء وغوان فرغ منهن الدهر، كما حدث بين لورد بايرون وليدي ملبورن، أو بين شابة فتية وكهل محنك، كما حدث بين الملكة فكتوريا ولورد ملبورن

ومهما يكن من شيء فان الشخص الأكبر سنا من الطرفين، هو الذي يقاسى أكثر مما يقاسيه الطرف الآخر على الدوام، لأن الأخير لا يتجاوب معه، كما حدث بين الروائي المعروف «وولبول» ومدام «دي ديفان». والواقع أن توخي الدقة لا يسمح بإطلاق اسم الصداقة على مثل تلك العلاقات، لأن هناك حبا تعسا من إحدى الجهتين، وقلة اكتراث يشوبها العطف، من الجهة الأخرى.

وأخيرا يمكننا في الحلقة الثالثة التي يسودها جو لطيف، وإن كان يعكر صفاءها التكرار الممل الأليم، أن نضع أولئك الذين نجحوا، بعد أن كانوا عشاقا، في الانتقال من الحب إلى الصداقة دون عراك، وهذه هي أدنى الصداقات بين الرجال والنساء قربا إلى الطبيعة، حيث تكون هناك ترضية للناحية الجسدية، غير أن ذكرى الامتزاج التام تحول بينهما وبين الشعور بأن كليهما غريب عن الآخر، لأن عواطف الماضي تجعلهما بمأمن من مخاوف تأثيرات الغزل والغيرة، حيث تقوم العلاقة بينهما على أساس مختلف تماما –أكثر حظا من الرجولة– في حين أن معرفة كل

منهما للآخر معرفة جيدة تتيح لهما توطيد صداقة يتوافر فيها ما يزيد على الألفة المعتادة.

وهذه هي الحال في مواجهة الصداقة الغرامية، والتصريح بمثل هذا لا يكاد يكون من الصعوبة في شيء، ومن ضيق آفاق الفكر ألا يستطيع الإنسان أن يتصور نشوء علاقات بين الرجال والنساء دون أن يكون أساسها الرغبة الجسدية. فالاتصال الفكري بين الجنسين ليس ممكناً وحسب، بل هو في معظم الأحيان أسهل منه بين رجلين، وفي هذا قال الشاعر الألماني الفيلسوف «جيته» في بعض مؤلفاته: «إن الصداقة بين الشاب والشابة تكون ممتعة، حين تريد الشابة أن تتعلم، ويريد الشاب أن يقوم بدور المعلم». وربما قيل أن هذا الفضول المبكر ليس أكثر من رغبة جسدية غير إرادية، ولكن، ما أهمية ذلك، إذا كانت تلك الرغبة تشحذ العقل، وتضعف الغرور؟ والتعاون بين الرجل والمرأة، وتبادل الإعجاب بينهما، أقرب إلى الطبيعة من التنافس، والمرأة توافق بمحض رغبتها على أن تقوم بالدور الثانوي، وهي تعطي الرجل ما يحتاج إليه من التشجيع والمساعدة الروحية.

وإذا أدى هذا النوع من الصداقة بين شاب وشابة إلى زواجهما، فقد يكون في حبهما التهاب العاطفة دون أن يكون فيه تزعزعها، فتبادل الانشغال على نحو ما، يسفر عن عنصر من عناصر الدعم، ويحول دون التأملات غير المجدية، وينظم التصور بفضل تقليل الفراغ، ولقد وضح أن كثيراً من الزيجات السعيدة يمكن أن تتحول فعلاً بعد سنوات عديدة،

إلى صداقات حقة بكل ما فيها من المشخصات. وحتى إذا لم يكن الرجل أو المرأة متزوجين فليس هناك ما يحول بينهما وبين أن يصيرا صديقين جديرين بالثقة والتقدير، ولكن هذه العلاقة لا يمكن أن تحتل مكان الحب.

وأنا متفق مع «د. هـ. لورانس» في الرأي، حيث يقول: إن الصداقة الفكرية أو العاطفية، لا يمكن أن تكون عاطفة جوهرية بالنسبة إلى امرأة، فالمرأة تعتمد على جسدها أكثر كثيراً مما تدرك، وهي تعطي المكان الأول دائماً لمن تحبه حب الجسد، كما أنها إذا صح زعمه، تتنكر لخير صداقاتها، ومن أخطر الأمور على المرأة أن تحاول إقحام الاعتبار الجسدي على الصداقة العاطفية، وأن تغازل الأصدقاء وتخفي الرغبة البدنية بالكلمات، وهذا أكثر خطورة على الرجل إلى حد كبير، فإذا هو عمد إليه، استحال عليه اكتساب الثقة بالنفس التي تصحب الغراميات السعيدة على الدوام.

على أن الكثير من الرجال لا يستطيعون أن يجدوا في غير الصداقة الرفيعة غير الشخصية لناصح روحي حكيم، المناجي العلوي الذي هم بحاجة إليه، وأولئك الذين لا يؤمنون بشيء، أو أولئك الذين ليست لهم عقيدة دينية راسخة، قد يكتسبون التحرر الذي يريدونه من طريق استشارة أطباء معينين ينظرون بإكبار إلى زياراتهم لهم، وينصتون بإمعان ودون تحامل إلى ما يدلون به إليهم من اعترافات مذهلة إلى أبعد حد، ويقول العلامة «يونج» في هذا: «إنني لا أعني أبداً أنه ليس ينبغي لنا أن نحكم

على سلوك أولئك الذين يحضرون إلينا ليلتمسوا مساعدتنا، ولكني أقول إن الطبيب لا يمكن أن يكون عونا لمرضاه، إلا إذا تقبلهم على علاتهم».

وأحب أن أضيف إلى هذا: إن الطبيب يجب أن يكون فنانا، كما يجب – في فهمه لمرضاه– أن يعمد إلى أساليب الفلاسفة وكتاب القصة، فالطبيب العظيم لا يعالج العقل من طريق الجسم، بل يعالج الجسم أيضاً من طريق العقل، وهو بهذا صديق روحي حقاً.

والكاتب القصصي قد يصبح بالنسبة إلى فريق معين من القراء، الصديق المجهول الذي ينقذهم من أنفسهم، فقد يعتقد رجل ما في نفسه أنه غير طبيعي، إذا كانت تراوده دائماً فكرة أن إحساساته خاطئة وغير إنسانية، ولكنه على غرة – حين يكون منصرفاً إلى قراءة كتاب جيد– يكتشف وجود آخرين يشبهونه، ومن ثم يستعيد ثقته بنفسه، وتتخذ السكينة طريقها إلى عقله، وينصرف عنه الشعور بالوحدة، وتعود إحساساته إلى الحياة العادية، لأن آخرين قد مرت بهم بتجربتها، ولقد ساعدت أبطال روايات تولستوي وستندال مراهقين جديدين، على اجتياز ما اعترض سبلهم من العقبات.

ويحدث في بعض الأحيان أن يعتمد رجل ما في توجيه أفكاره على شخص يعتبر أن عقله أقوى من عقله، ومن ثم يجله ولا يناقشه، لأنه يرى فيه أستاذاً وصديقاً في آن واحد، ولقد كان من حسن حظي أنني كان لي

أستاذ هو الفيلسوف الفرنسي الذي كان يكتب باسم «آلان». وآراؤه لها من القيمة عندي فوق ما لآراء أي رجل آخر في العالم، وبعبارة أخرى: إنه لا يزال أستاذي حتى الآن، ولا أعني بهذا أنني أفكر مثل تفكيره في كل الموضوعات، فإن مثلنا العليا تختلف، كما أنني أخالفه في الرأي تماماً في عدة مسائل هامة، غير أنني لم أكف أبدأ عن الاقتداء بعقله، مع التعصب له.

ولا بد من قدر معي من الإيمان، كي يتسنى هضم أي تعاليم، فلتكن حريصاً في اختيار أساتذتك، وبعد أن يقع اختيارك عليهم، حاول أن تفهمهم قبل أن تحكم عليهم بأنهم مخطئون، وليس ثمة صداقة روحية أو غير روحية دون أن يتوفر الإيمان والولاء.

إنك تستطيع أن تجمع حولك عقولاً عظيمة – فيما يشبه أسرة روحية، ولقد سمعت مؤخرا عن تاجر أخشاب في مدينة «جرينوبل»، اتخذ من «مونتاني» صديقاً له، فهو لا يذهب إلى أي مكان إلا وفي جيبه كتاب من مؤلفات أستاذه، فلا تتردد أنت في تنمية مثل هذه الصلات، حتى وإن بلغت في قوتها مبلغ العواطف، فإن هذه العقول العظيمة سوف ترتفع بك معه إلى مشارف ترى فيها الجانب الأفضل من نفسك، وأكثر الناس تحفظا، يرفعون أقنعتهم كي يتاح لهم أن يندمجوا مع «أفلاطون» أو «باسكال».وقراءة كتاب جيد هي حوار متصل يتحدث فيه الكتاب وترد عليه أرواحنا.

ويحدث أحياناً أن يكون الأستاذ المختار من غير الفلاسفة أو الكتاب، بل رجلا عملياً، يعمل معه الأصدقاء بتوجيه من أوامره، وهنا تكون الصداقة على مستوى رفيع، فهي خالية من الغيرة بسبب وجود الهدف المشترك، وتسود السعادة لأن الكل مشغول، ولا يوجد وقت يمكن أن يسمح بنمو

شعور بغيض، وفي المساء بحلول الاجتماع والتحدث عن عمل النهار، والجميع شركاء في آمالهم، ويجب عليهم أن يواجهوا ما هو مقدار لهم من خيبة الأمل، ومثل هذه الصداقة توجد في منتديات الضباط، وكذلك بين جماعات الشبان التي تلتف حول «ليوتي» أو «روزفلت». والرئيس لا يفرض سلطانه بالقوة، فهو صديق كذلك، على طريقته الخاصة، وفي بعض الأحيان يكون جم الأدب، والجميع يتقبلونه بقبول حسن ويحترمونه، بوصف كونه الروح المحركة للجماعة.

والمجتمع سواء صغر أو كبر، لا بد لضمان بقائه من أن يكون مؤلفاً من أزواج وعائلات يجوز اعتبارها خلايا أصلية، وكما هي الحال في الجسم الإنساني، لا توجد هناك أنسجة رابطة وأخرى مخاطية وحسب، بل هناك أيضاً خلايا أكثر من تلك تعقيداً، وهي الخلايا العصبية التي تتولى أمر توحيد الأخريات جميعا.

ولهذا أعتقد أنه ينبغي أن نفكر في المجتمع باعتبار أنه مكون من عائلات لا تلبث أن تضيف إلى كثير غيرها إضافات دقيقة على الفور تجمع بينها، كما ينبغي أن ننظر إلى الصداقة والإعجاب باعتبار أنها الخلايا العصبية الأكثر تعقيداً ... وهكذا ينسج الحب الروحي بين خيوط الحب الجسدي خيوطاً أضعف منها وأدق، لا يمكن بغيرها أن يكون للمجتمع الإنساني وجود.

وقد يكون في وسعنا الآن أن نظفر بلمحة خاطفة من هذا النسيج المعجز، نسيج الحب، والثقة، والولاء الذي تستند إليه كل الحضارات.

فن التفكير

إنني أنظر من خلال زجاج النافذة في غرفة مكتبي فما تلبث أفكاري أن تختلط لحظة بالصور التي تبدو لي كأنها مرسومة على الزجاج، وفيما وراء الشكل الهندسي الجاف الذي أراه في سور الشرفة، أستطيع أن أرى أمواج الغابة الخضر، وقد التفت بها غلالة زرقاء باهتة اللون من ضباب صباح يوم من أيام "باريس". وينهض على الأفق صف من التلال، ويبدو المستشفى القائم على مندر «مونفاليريان» الكثير الأشجار، كأنما هو دير من أديرة «فلورنسا» تحيط به أشجار السرو السوداء.

وينطلق عبر السماء الشاحبة سرب من «عصافير الجنة» قد أسدلت عليه السحب ستاراً شفافاً، وتلوح على البعد من جهة «فرساي»بعض طائرات تحلق وبتحليقها تثير الذكريات عن الحرب، والغارات الجوية، والصفارات التي تعكر سكون الليل. ومن ثم لا ألبث أن أنسى أوراق الشجر الخضراء، وتغريد الأطيار، وأنصرف إلى التفكير في انهيار إحدى الحضارات، وفي نهاية الإمبراطورية الرومانية، وفي بلدة صغيرة على الساحل المراكشي، كان يسودها الرخاء وتنضح بالفتنة، في القرن الثالث، ثم أصبحت، بعد قرن واحد من الزمن، لا شيء أكثر من

أنقاض وأطلال، تبعث على الحسرة، وتتجه أفكاري إلى المصير المحتمل، الذي ينتظر عواصم أوطاننا.

وهكذا لا تشمل تخيلاتي الأشياء المتصلة بالحاضر وحسب، بل تشمل كذلك صوراً من البلاد البعيدة، وتستذكر أحداث الماضي القديم، وتقلب وجوه النظر في المستقبل المجهول، ويبدو عقلي شبيهاً بعالم داخلي صغير ينعكس فيه العالم الخارجي الضخم، الذي لا يحدده زمان أو مكان.

ولقد أطلق الفلاسفة أحياناً على هذا النموذج المصغر المكون، اسم «العالم الصغير»، كما أطلقوا على العالم الضخم الذي نعيش فيه ونتمنى أن نفهمه ونغيره، اسم «العالم الكبير». وقال واحد ممن اشتغلوا بالكيمياء السحرية في العصور الوسطى: «إن عقل الرجل ليستولي على كل شيء يحتويه العالم الكبير، شأنه في ذلك شأن الملائكة». ولنقنع بأن نقول أن العقل "يحاول" أن يستولي على كل شيء، وإن انعكاس العالم في أنفسنا يكون مشوهاً، مثل انعكاس صورة السماء والأزهار على صفحة الماء في الحديقة.

ويزيد من اختلاط أفكاري أن كل من المرأة والأشياء، وكلا من العالم الكبير والعالم الصغير، لا يكفان عن الحركة أبداً، وأمامي الآن صورة تبدو لي واضحة لا يكاد يشوبها غموض: سور الشرفة الحديدية، وأوراق الأشجار، والأطيار، والتلال المرتفعة على الأفق، ولكن الذاكرة،

والتوقع، والتعليل، جميعها تحت رحمة أمواج البحر الزاخر في أنفسنا... وجهالاتي، ورغباتي، وأخطائي، ونسياني، تسفر عن تشويه، ولكن كل شيء يتعرض دائماً لتغييرات جديدة وغريبة، والعالم في عقولنا مثله مثل خريطة اختلطت فيها الخطوط وانتقلت الحدود، مع هذا فلا غنى لها عن الرجوع إلى هذه الخريطة باستمرار.

والرغبة في أن نفكر تكفيراً صافياً، ينبغي أن تجعلنا نتردد طويلاً ونبحث بحثاً دقيقاً، ولكن الحاجة إلى التصرف ملحة عاجلة، فهذا طفل تتدهور حالته الصحية تدهوراً سريعاً، فما هو مرضه؟ هل هو مرض جسدي أم مرض نفسي؟ ومن الذي نستطيع استشارته؟ وهل للطلب أي فائدة؟ وهل هو علم حقيقة؟ وما هو العلم؟ ودراسة كل هذه الأسئلة بصورة جدية، تقتضي إنفاق عمر بأكمله، ولكن ماذا عسى أن نفعل؟ يجب العثور على إجابات، لأن مريضنا يعاني سكرات الموت، وليس هنالك ما يكفي من الوقت لاستكشاف العالم الخارجي، والصورة الوحيدة له التي في متناول أيدينا، هي الصورة الصغيرة المشوشة التي يرسمها عقلنا.

والشيء الذي نطلق عليه اسم التفكير، هو الجهد الذي يبذله الإنسان في محاولة الحدس أو التكهن، عن طريق الجمع بين الرموز والصور، بالتأثيرات التي سوف تنتج عن أعماله في دنيا الحقيقة، والتفكير كله عبارة عن رسم تحضيري للفعل، ومن واقع هذا الرسم التحضيري، وبعد تصحيح ما فيه من الأخطاء، ترسم صورة حياتنا، ولكي

تكون أفعالنا صحيحة، كما قال «باسكال»، يجب أن يكون تفكيرنا صحيحاً، فما هو التفكير الصحيح؟ هو جعل نموذجنا الداخلي الصغير للعالم الخارجي مطابقاً للأصل بقدر المستطاع، إذا كانت قوانين عالمنا الصغير تشبه إلى حد معقول قوانين العالم الكبير، وإذا كانت الخريطة التي نستهدي بها تمثل بدقة نسبية حقيقة الطبيعة التي يتعين علينا ارتيادها، فإنه يكون هناك أمل في الملاءمة بين أفعالنا وبين حاجاتنا، أو رغباتنا، أو مخاوفنا.

وهل هناك وسائل يستطيع بها الرجل أن يسيطر على أفكاره حتى تصبح أفعاله منسجمة مع نظام الأشياء القائم دون عناء؛ وهل في الإمكان أن نرسم خريطة دقيقة للكون بقصد بلوغ غايات معينة بفضل تلك الخريطة، والوصول إلى موانئ مختارة؟

يبدو أن أكثر الأفكار فائدة في عالم الأشياء، هي تلك المسجلة على الأجسام الحية في صورة غرائز أو عادات، فالقطة تقفز إلى مائدة حافلة بالأشياء، وتقف عليها وادعة ودون أن تبذل أي مجهود، فلا تحطم قدحاً أو تحتك بإصيص زهر، وهذه السلسلة من الحركات تنطوي على تقدير دقيق لما يلزم من القوة، واختيار محاذر للمكان الذي تهبط فيه من المائدة، ولكن التقدير وذلك الاختيار لم يكن فيهما أي أثر للوعي، فلقد فكرت القطة بعينيها، وعضلات جسمها، وأتاح لها منظر المائدة أن تقرر ما هي بحاجة إليه من الحركات، كما أن تصور تلك

الحركات أسفر بدوره عن تحديد الأوضاع التي تتخذها أقدامها وظهرها ورأسها.

وعلى هذا النحو يفكر لاعب «التنس» بجسمه، وكذلك يفعل لاعب كرة القدم، و «البهلوان» ولاعب السيف لا يتسع وقته أبداً لأن يقول لنفسه، إن منافسة قد فعل «كذا»، ولهذا سيفعل هو «كيت». لأنه يفكر بسيفه وبأصبعه، ولقد كنت في صباي أمارس الألعاب الرياضية، وكنت أعلم إنني حين ألعب على «المتوازيين» يجب أن يكون تقديري صحيحاً تماماً، فإذا كان يمكنني أن أتصور جسمي محتفظاً بتوازنه في الهواء، وأن أقيس سلفاً مدى تأرجحه، وأن أختار (في أثناء هذا التفكير السابق) الجزء من الثانية الذي يجب فيه أن أقبض عضلات ذراعي وأرفع ساقي لأزيد قوة الاندفاع، فعندئذ يتم كل شيء بسهولة، وكأنه معجزة خارقة، أما إذا كان هناك أقل انقطاع في شريط تلك الصورة، أو كان بعيداً عن ثورة التركيز بضعة مليمترات، فإن الإيقاع المتزن لا يلبث أن يختل، ويصبح العمل المزمع أداؤه ضرباً من المستحيل.

والمثال لا يقرر تعديل جزء من تمثاله بناء على التعليل العقلي، بل إن اتصالاً مباشراً يحدث بين عينيه المسلطتين على النموذج، وبين أصابعه التي تحتضن التمثال، فالمثال كمن يمارس الألعاب الرياضية، كلاهما يفكر بجسمه، وبعض الكائنات الحية تتعلم التفكير بأجسام غيرها، والحيوان يفكر مع القطيع، فإذا استولى الذعر على قطيع، جرى كل حيوان مع بقية القطيع، لا لأنه يفهم السر في ذلك الذعر، ولكن

لأن الغرائز الأساسية في نوعية تعلمه أن الحمل إذا لم يتبع القطيع، أصبح تحت رحمة أعدائه، وكما هو الحال في الحيوان، يكون غير كامل النضج العقلي من الرجال والأطفال والجماعات ... عرضة للتفكير الغريزي والجسدي، إلى أبعد حد.

والطيار عنده حاسة دقيقة تمكنه من الهبوط إلى الأرض بسلام، ولكنه لا شأن له باختراع الطائرة، والاقتصادي الذي يشرف على مالية بلده لا يفكر بجسمه، بل إنه لا يستطيع حتى أن يفكر بشكل رياضي، عن طريق صور عقلية للحركات، لأن تلك الصور سيكون عددها ضخماً إلى أبعد حد، وإذا كان عمله هو تحسين المركز الاقتصادي لملايين من الناس، فإنه لا يستطيع أن يقول لنفسه: «إنني أعمل من أجل ذلك التاجر أو الفلاح الذي رأيته، أو من أجل ذلك الرجل المتعطل الذي أعرف متاعبه». وهو لكي يزيد من سرعة تفكيره، يجب عليه أن يبدل صور تلك المخلوقات البشرية، والحقول، والمنازل، والصناعات، ويستعيض عنها بعلامات ورموز تمثل شيئاً أو شخصاً، أو كل الأشخاص الذين ينتمون إلى طبقة معينة، وهذه الرموز هي الكلمات.

فالعامل أو المشعوذ أو الرياضي، الذي يفكر بيديه، إنما يستخدم أشياء لها وزن ومقاومة، كالحجارة، أو الكرات، أو جسمه نفسه، أما الرجل الذي يفكر بالكلمات فيستخدم مجرد أصوات أو رموز، وهذا يسهل الفعل بصورة عجيبة، وإذا كنت في فندق فإنك ترفع سماعة التليفون وتنطق بكلمة «شاي» وبعد لحظات يحضرون لك – بما يشبه

المعجزة – فنجانا، وصحنا، وملعقة، وخبزاً، وحليباً، ومربى، وإبريق شاي، وماء حاراً، فتصور تعقيد الأعمال اللازمة لتحضير كل هذه الأشياء من أجلك، فكر في الفلاح الصيني الذي يزرع الشاي، وفي اختيار أوراقه، والباخرة التي تحمله، والربان والنوتية وهم يصارعون إحدى العواصف، والراعي وهو يسوق الأبقار إلى المرعى، وحلب الأبقار، وعامل القطار وهو يأخذ اللبن، والخباز وهو يعجن العجين ليصنع منه الخبز، والفتاة الريفية التي تجمع ثمار الفاكهة التي تصنع منها المربى – لقد استطاعت كلمة واحدة نطقت بها أن تضع كل هؤلاء الناس في خدمتك.

والرجل الذي يفكر بيديه، يكون تأثيره على الكون محدوداً، إذ لا يتأثر به سوى ما يلمسه، أما الرجل الذي يفكر بالكلمات، فإنه يستطيع دون عناء أن يحرك شعوباً، وجيوشاً، وقارات، فإذا ما نطق رئيس حكومة بكلمة «تعبئة»، فإنه بهذا العمل الضئيل الذي لا يقتضيه أكثر من تحريك شفتيه حركة لا يكاد يراها أحد، ينتزع كل رجال أوروبا من ديارهم وعائلاتهم، ويملأ السماء بقاذفات القنابل التي تستطيع تدمير مئات المدن، ويجلب خراب العالم ونهاية حضارة، وحين يفكر الإنسان فيما قد يكون للكلمة الواحدة من الآثار، فإنه يدرك أن اللغة ربما كانت منظوراً إليها باعتبارها قوة سحرية عند الشعوب البدائية، ولقد بحث «الهندوس» الذين تحدث عنهم «كبلنج» في شعره، عن «كلمة السر» التي تمنحهم المقدرة على قهر الناس والأشياء، وبحث «فاوست» في كتب الكيمائيين السحرة عن تعاويذ تستحضر الأرواح أو تطردها بعيدا، وفي «ألف ليلة» انفتح الباب بسحر «كلمة السر»، ولقد كان ذلك

أسطورة، ولكنها أسطورة حقيقية، وفي كل المجتمعات كلمات تفتح الأبواب وكلمات تستحضر الأرواح الخبيثة وكل متحدث يكسب قوته بفضل «كلمة السر»، وكل ثورة تبدأ «بكلمة سر».

والرجل الذي يفكر بيديه يحرك الأشياء الثقيلة، ويحركها ببطء، حجراً بعد حجر، ويخلي منها أماكنها على التوالي، وهو لا غنى له عن الحذر بسبب صعوبة العمل الذي يقوم به، كما أنه مرغم على مداومة هذا الاتصال بين العالمين الخارجي والداخلي، الذي ناقشناه باعتباره ضماناً للتفكير الصحيح، لأنه لو لم يفعل ذلك لجرحت الأحجار يديه، أو تخبط في تناول الكرات التي يلعب بها، أو سقط من فوق ذراعي «المتوازيين» في ساعة الألعاب الرياضية.

ولكن الأمر أكثر سهول بالنسبة إلى من يفكر بالكلمات، ففترة ما بين الخطأ والعقاب تبلغ من الطول حداً لا يكاد يدرك معه العواقب، فهو يعبث برموز واهية، وينسى ما قد ينتج عن ذلك من وخيم العواقب، وهو – على نحو ما قيل– يخلط بين قشور الألفاظ ولب الحقائق، كما أنه يغري بأن يظن أن كل شيء قد تم، حين تكون الكلمات وحدها قد قيلت وحسب.

ومنشأ الصعوبة أن الأشياء فيها مقاومة، فالإنسان يستطيع أن يقول كل شيء بالكلمات، قال نابليون الثالث: «إن مبدأ القوميات يجب أن يحترم». وهذه العبارة النظرية التي يمكن أن تؤخذ على أنها حقيقة، لأنها

لا توحي بأي صورة محددة، قد تسبب في دمار أوروبا الحديثة، ويجلس رجل الاقتصاد إلى مكتبه ويكتب: «إن زيادة المرتبات تعني زيادة القوة الشرائية، ومن ثم توضع نهاية لهذه الأزمة". وقد كانت هذه كلمات طيبة كأي كلمات أخرى، لأنها كانت تلمع ببريق الحقيقة، كما أن رجل الاقتصاد كتبها بدافع من إيمانه، غير أن الإجراءات التي أوحت بها لم تضع حداً للارتباك الاقتصادي في الواقع، فلماذا؟ لأن العالم الصغير لم يستطع أن يؤثر على العالم الكبير حيث كان هناك فرق بين الكلمات والأشياء، لأن العبارة البسيطة لم تكن تمثل تعقد الوضع بالدقة الكافية.

ولو أنه كان على الإنسان أن ينتظر حتى يرى النتائج الطيبة أو السيئة، قبل أن يحكم على قيمة عبارة أو مشورة، لكان ذلك أمراً خطراً وشنيعاً، ومن الطبيعي، منذ بدء الحضارة، أنه كان على حكماء الرجال أن يبحثوا عن طريقة تجنبهم سوء عاقبة الألفاظ ذات البريق الخاطف، وبمثل طريقة تنظيم حركة المرور في يومنا هذا، حاول الناس تنظيم حركة تداول الكلمات، وأطلقوا على ذلك اسم «المنطق».وينبغي أن يصبح المنطق فن استعمال الكلمات مع اتباع قواعد معينة تكون بدورها بمثابة ضمانات تكفل لقوانين العالم الداخلي أن تطابق قوانين العالم الخارجي، وما نسميه نحن قوانين العقل البشري هو قواعد للتفكير تصلح لكل الناس في جميع الأعمار. وبعض هذه القواعد بديهي – مثل نظرية عدم التناقض: أي أن الشيء الواحد لا يمكن أن يكون نفسه وضده في آن واحد، كما أن الواحد منا لا يستطيع أن يقول: «اثنان واثنان مجموعهما أربعة»، ويقول في الوقت نفسه: «اثنان واثنان مجموعهما خمسة». أو

«إن هذا الثوب أبيض» و «إن هذا الثوب أسود» أو «أريد تحرير هذا الشعب» و «أريد استعباد هذا الشعب». ولقد تمنى الناس منذ سنوات طوال أن تكون لهم قواعد تفكير منزهة عن الخطأ تقوم على مبادئ أساسية واضحة، وهذا المنطق الذي كان منطق «أرسطو»، ثم اعتنقه فلاسفة القرون الوسطى – هو مذهب خليق بألا يطرح، بل هو مذهب لا غنى عنه، فهو يحمى تفكيرنا من أخطاء معينة، ولكنه لا يستطيع أن يتكون منه فن التفكير، للأسباب الآتية:

إن المنطق لا يمكنه الاختراع، وهو إذا أضاف جديدا، كان عليه أن يستعين إما بالتجربة وإما بالإلهام، وكلاهما خارج عن نطاق المنطق، والمنطق يسمح للإنسان بأن يقول: «هذا الثوب ثوب». ولكن التجربة وحدها هي التي تسمح للإنسان بأن يضيف إلى تلك العبارة قوله إن الثوب رقيق، أو إن فيه طيات كثيرة، ولقد تخلص «كانت» من حماقة التفكير في احتمال استطاعة العقل الصرف أن يستغنى عن التجربة فقال: «إن العقل بدافع من رغبته في الاستزادة من المعرفة، وبعد أن اكتسب الثقة بنفسه بفضل هذا الدليل على قوته، يتصور أن فضاء اللا نهاية يزداد أمامه اتساعا، واليمامة ذات الجناحين سريعي الخفق، إذ تشق الهواء وتشعر بمقاومته، يخيل لها أن طيرانها يكون أفضل كثيراً لو طارت في فضاء مفرغ من الهواء، وهكذا نجد أن أفلاطون في تحقيره للعالم المادي الذي يحتجز العقل في مثل تلك الحدود الضيقة، يغامر فيقتحم فراغات الفهم البحت الخاوية، وهو لا يتصور إنه لا يحرز أي تقدم برغم الجهود التي يبذلها، فهو يعوزه الأساس المتين الذي لا غنى عن

مساعدته، والذي بفضله يتحرك فكره». وبيننا كثير من دعاة الإصلاح السياسي لا يزالون يصفقون بأجنحة خيالهم عبثا في خواء البحوث النظرية.

ولا شك في أن المنطق قد جعل عقول الناس مرنة، ولقد منح تلك العقول ما كان ينقصها من المقدرة على خفة الحركة ولكنه منحها كذلك عادة خطرة، هي اعتقاد أن كل شيء يتم، بعد دخولها في سلسلة من التحليل والتعليل، لها مثل مظهر الحقيقة.

وتاريخ النظريات الفلسفية يشهدنا على أن الناس على تعاقب الأجيال، قد استطاعوا أن يثبتوا صحة كل شيء تقريباً، فلقد أثبتوا صحة فلسفات متعارضة، كما أثبتوا زيفها، كما أثبتوا انفصال قبائل الجنس البشري وانفرادها بسمات، ثم عادوا فأقاموا الدليل على اختلاطها.

قال الفيلسوف «آلان»: «إن من الواضح عندي أن كل الأدلة مشكوك في أمرها». والواقع أن الإنسان يستطيع أن يثبت صحة كل شيء، إذا كانت الكلمات التي يستعملها غير واضحة وغير دقيقة.

والمسألة من مسائل علم الجبر لا يمكن التنازع عليها لأن كل مصطلح فيها دقيق إلى درجة تجعل من يقوم بشرحها غير قادر على أن يقول شيئاً لا يستطيع سامعه أن يفهمه، والحقائق في المنطق حقائق فعلاً، ولكن الكلمات المستعملة في الحديث عن المشاعر، وإدارة الحكومة، والاقتصاديات، كلمات غير واضحة المعاني، يمكن

استخدامها في نفس المناقشة، بحيث تكون لها معان أخرى مخالفة، ومحاولة التنافس بكلمات أسيء اختيارها، أشبه باستعمال ميزان غير متعادل الكفتين.

وطريقة «ديكارت» هي محاولة القصد منها التخلص من أخطاء معينة في مثل هذه المناقشات، وهو يقول في ذلك «إنني شديد الرغبة في أن أتعلم كيف أميز الصحيح من الزائف، حتى أستطيع أن أتصرف ببصيرة نيرة، وأمضي في سبيل حياتي بمزيد من الثقة». ومن واجبنا أن نتذكر قواعده الشهيرة في فن التفكير. والقاعدة الأولى هي: «تقبل الشيء على أنه صحيح في حالة واحدة، وهي حين تدرك بوضوح أنه كذلك».

وقد يبدو هذا أكثر بساطة مما ينبغي، وقد تسأل أنت قائلا: "ولماذا أتقبل شيئاً على أنه صحيح، إذا كنت لا أعتقد أنه كذلك؟». ويتولى «ديكارت» الإجابة على سؤالك بأن يضع قاعدة أخرى: "احرص على اجتناب التسرع والتحيز».

والتسرع لا مندوحة عن اجتنابه لأن الإنسان لا يستطيع فهم الأمور الصعبة على وجه السرعة، والطالب الذي يمر بصفحات كتاب النظريات الهندسية مر الكرام، لن يتعلم الهندسة أبداً، ولكن الناس في عجلة من أمرهم في معظم الأحيان، وبعضهم مضطرون إلى ذلك، فإن موع الامتحان يحدد له يوم من الأيام ومن ثم تتعين دراسة علم كامل أو حفظ

تاريخ حقبة بأسرها من التاريخ قبل حلول ذلك اليوم. ويقطع الخبير على نفسه عهداً بأن يقدم تقريره في ميعاد معين، وتنتظر الحكومة، فإذا تأخر الخبير كثيراً في تقديم التقرير، صدر ضده قرار جزائي، فتقديم التقرير ناقصاً، خير من عدم تقديمه على الإطلاق، والصحفي يفضل زيادة ساعات قلائل، يتمكن فيها من دراسة مسألة جديدة وغامضة، ولكن عمال المطبعة يلحون في طلب مقاله، وإعداد الجريدة يجب أن تلحق بقطار الساعة الثانية صباحا.

وهنالك، غير هؤلاء، من يكونون في عجلة من أمرهم، بسبب غرورهم، وهم يكرهون أن يعترفوا بجهلهم بأي أمر من الأمور، والأخصائي يظن أنه من العار عليه أن يجيب بقوله: «يجب على أن أبحث هذا الموضوع». وفي الحكومات، وفي أوساط الأعمال، وفي المجتمع أيضاً، رجال يتحدثون تحدث الواثق عن أمور لا خبرة لهم بها، وقد يحدثك بعضهم عن «تشيكوسلوفاكيا» دون أن يذهب إليها أبداً، بل دون أن يقرأ شيئاً عن تاريخها وعادات أهلها، ويبدي شخص آخر رأيا سيئاً في تقدم الطيران عندنا في حين أنه لا يعرف عنه شيئًا سوى ما سمعه ممن لا يوثق بمعلوماتهم.

وهنالك أيضاً من قصص مختلفة عن تمزيق عرض سيدة بما يروي من قصص مختلفة عن حياتها الخاصة، على أن في وسعنا أن نرتفع كثيراً بمستوى قيمة محادثاتنا، بالمواظبة على استعمال عبارة لا مزيد على بساطتها: لست أدري، أو بترديد الملحوظة اللطيفة التي أبداها لويس

الرابع عشر حيث قال: «سوف أرى». وإذا نحن أقسمنا على ألا نفاجئ أحداً بطلب قراره أو حكمه على شيء، وألا نتعجل نحن في إصدار أحكام سريعة، فإننا نكون قد خطونا بذلك خطوة هامة نحو حكمة «ديكارت».

على أن العجلة ليست السبب الوحيد في ارتكاب الأخطاء، فهناك التحيز أيضاً. ونحن نتناول مسائل سبق أن كونت الأسرة والجماعة فيها رأياً، فيكون استعدادنا، ووراثتنا، وتعليمنا، قد فرض على أفكارنا صورة معينة لها، وإذا أنت أردت أن تختبر تأثير جماعتك على تفكيرك، فعليك أن تحاول أن تتذكر حكمك على كل من كلمينصو، كايو، ودلادييه، بعد قراءتك مقالات مادحة وقادحة عنهم في مختلف الصحف، ولا بد أنك قد كرهتهم أو أكبرتهم، عن حسن نية، لا عن حسن إدراك.

واهتمامنا بأنفسنا سبب آخر من أسباب التحيز. قال «باسكال»: لو كانت الهندسة تثير مشاعرنا بالدرجة التي تثيرها بها السياسة، لما كان في وسعنا أن نفسرها بمثل هذا الوضوح.

وهناك رجال قليلون جداً لا يدركون قيمة نظام ضرائبي ما بالنسبة إليهم، قبل الموافقة عليه، ولنتصور طبيباً قد ابتكر طريقة للعلاج يستطيع بها أن يعيش معيشة ممتازة، وأن يزيد من شهرته كطبيب ... إذا حدث أنه اكتشف أن طريقته قائمة على نظرية زائفة، أليس من المعقول أن يخطر على باله مائة سبب للشك في صحة الاعتراض على طريقته؟.

إن كل شيء يتفق مع رغباتنا الشخصية، يبدو لنا أنه صحيح، وكل شيء لا يتفق معها يثير غضبنا، ولنتأمل حياة «شاتوبريان» السياسية، ففي فترة نفيه، أصبح من وجهة نظر الثورة الفرنسية، من دعاة الملكية الدستورية على الطراز الإنجليزي، بعد عودة النظام الملكي، حاول «لويس الثامن عشر» أن يقيم في فرنسا حكومة على ذلك الطراز، ولو أن «شاتوبريان» لم يستسلم لمشاعره الخاصة، لكان قد ساند محاولات الملك بكل قلبه، ولكنه كان مغيظاً محنقاً بسبب عدم اختياره لرياسة الحكومة الجديدة، ولقد تولدت فيه عداوة عنيفة للملك منشؤها تلك المعاملة الظالمة فراح يعارض سياسته نفسها بمناقشات كانت تبدو جديرة بالإعجاب، بفضل فصاحته، وإن لم تكن في حقيقتها سوى الحقد، والانفعال من شأنه أنه يستطيع أن يؤدي بالإنسان إلى أي سخافة أو تناقض، وحين يسيطر الحب أو البغض، فإن على العقل أن يلقي سلاحه ويستسلم ... فلن يكتشف عندئذ ما يبرر حماقة ذلك الحب أو هذا البغض.

ويظن بعض الناس أنهم متحررون من المؤثرات المحيطة بهم، لأن حياتهم قد جعلت منهم ثواراً متمردين، ولكن التمرد ليس دليلاً قاطعاً على التحرر، بل التمرد – على العكس من ذلك– صورة واضحة قاطعة من صور التحيز، والكاتب الذي قاسى في طفولته ما لا يحتمل من آلام التربية الصارمة، لا يستبعد عليه التشدق بأنه مفكر حر التفكير، في مهاجمته للدين وحياة الأسرة، ولكن ثورته إنما هي ثورة عبد.

ومؤلف كتاب «المقال في المنهج»، ينصحنا أولاً بأن نحرر عقلنا من العاطفة، لم نستخدمه على الوجه المرضي: وهو في سبيل هذه الغاية، يقرر بضع قواعد: نظم أفكارك تنظيماً محكماً من أكثرها بساطة إلى أشدها تعقيداً، قسم المشكلات إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء، اجعل حصرك كاملا تاماً، ودراساتك شاملة، بحيث تتأكد من أنك لم تغفل شيئاً، ولقد كان لهذه الطريقة نفع عجيب، أولاً، بالنسبة إلى «ديكارت» نفسه، ثم لعلماء عصره الذين أصبحوا فيما بعد خبراء في الرياضيات، والهندسة الميكانيكية، والفلك، وبعض فروع علم الطبيعة، ولا يزال لمنهج «ديكارت» آثاره المدهشة في كل المسائل المتصلة بالعقل، سواء ما يعني اكتشاف قوانينه الخاصة، كما يحدث في الرياضيات، أو ما يعنى بدراسة الظواهر التي بسطها التصور أو التجريد، كما يحدث في علم الفلك، على أن تلك النظرية لم يبد أنها عديمة الجدوى فحسب، بل غير كافية، عندما طبقوها على العلوم الأكثر تعقيداً.

في فروع كثيرة من العلوم الطبيعية: في الكيمياء، وعلم الأحياء، والطب، والاقتصاد، والسياسة، لا يزال منهج «ديكارت» عاملاً ضرورياً، ولكنه لا يجعل حل المشكلات ممكنا، كما أنه غير كاف لتوجيه تصرفاتنا.

وكيف يستطيع الإنسان أن «ينظم أفكاره تنظيماً محكماً» في حين أن «الزمن» هو العامل الرئيس؟ وكيف يمكنه ألا «يغفل شيئاً»، في حين

أن جوانب المشكلة تفوق في تعددها كل حصر؟ على أن هذه الطريقة تبني فينا عالما صغيراً من الزجاج والفولاذ، تتلاقى أجزاؤه المحكمة الصنع إلى أبعد حد، في نظام دقيق للغاية، بيد أننا نعلم أن العالم الخارجي ليس على طراز الآلة المضبوطة الشفافة، فأوراق الشجر التي تعصف بها الرياح، والسحب التي تقتادها العواصف، والفلاحون في الحقول، وعواطف أهل المدينة... ليس لها مكان هنا.

والاستقرار مهما بلغ من حسن توجيهه وتنزهه عن المجاملة والتحيز، لا يمكن أن يوصلنا – حين ننظر إلى بذرة تفاحة – إلى التكهن بشكل الشجرة بعد نموها، أو معرفة طعم ثمارها، وليس هناك من القواعد أو النظريات ما نستطيع به أن نصف المرض الذي قد يصيب شخصاً مريضاً قد طعم بجرثومة غير معروفة، ومثل هذه الأسئلة يجب توجيهها إلى الطبيعة بدلاً من توجيهها إلى أنفسنا.

وهناك قصة تروى عن طالب في «أوكسفورد» كان من عادته أن يشرب في كل ليلة عدداً من كؤوس «الويسكي» الممزوج بماء «الصودا». فما لبث بعد فترة من الزمن أن أصيب بالاختلاط، فعدل عن شرب «الويسكي» واستبدل به آخر من الشراب هو «الجين» الممزوج «الصودا» أيضاً، ثم استبدل بهذا نوعاً ثالث «البراندي» الممزوج بماء الصودا كذلك، دون تحسن في حالته، وأخيراً استنتج أن العلة كانت في الصودا دون سواها! ولو أنه كان مجرباً أكثر حكماً لكان خليقاً به أن

يجرب كلا من المشروبات الثلاثة دون أن يمزجه بماء «الصودا»، وبذلك كان يستطيع أن يكتشف خطأه.

والعالم هو الرجل الذي يستعين بالملاحظات والتجارب على استخلاص الفروض من الصلة الدائمة بين الظواهر وإذا دلت كل التجارب الممكنة على صحة فروضه، يعتبر أنها من قوانين الطبيعة بصفة مؤقتة.

في مرة أمسك فيها بشيء ويدي مرتفعة عن سطح الأرض أفلته، فإنه يسقط وسرعة سقوطه يمكن حسابها كما أن سرعة سقوطه إلى نقطة معينة يتزايد باستمرار، وعلى هذا فإن وجود قوانين خاصة بسقوط الأشياء شيء ينبغي الاعتراف به، والعلم الذي هو مجموع مثل هذه الملاحظات، لا يستطيع بأي حال أن يفسر لنا الكون، وقصارى القول فيه، كما يقول «بول فاليري»: «إنه مجرد مجموعة من (الوصفات) الناجحة». غير أن هذه (الوصفات) قد لا يقدر لها النجاح، فلو أنني أفلت الكتاب الذي في يدي الآن، فلم يسقط، بل رأيته قد ارتفع إلى السقف، لاستولت علي الدهشة، ولكن العلم لن يختلط عليه الأمر، بل يكون عليه مجرد البحث عن قانون أكثر تعقيداً، ليفسر تلك الظاهرة.

والعلم التجريبي ليس فيه سوى فرض واحد من ذلك النوع الذي يطلقون عيه اسم «ما وراء الطبيعة»، وذلك الغرض هو أن قوانين الطبيعة ثابتة، وإذا كنا لا نؤمن بخضوع الطبيعة، أو ما يبدو أنه خضوع من

جانبها، فالقوانين محدودة، فمن الواضح أنه يكون من السخف بالنسبة إلينا أن نعني بملاحظة الظواهر، فإذا نحن لاحظنا أن الماء – تحت ضغط ثابت – يغلي يوماً على درجة ٥٠ سنتيجراد، ويغلي يوماً آخر على درجة ٧٥، ويغلي يوماً ثالثاً على درجة ١٠٠، دون أن نتمكن من معرفة السر في تلك الاختلافات، كان معنى ذلك أنه لا فائدة ترجى من دراسة علم الطبيعة، ومن حسن الحظ أن مثل هذه الأشياء لا يمكن أن تحدث. فالظواهر لها ثبات عجيب، لماذا؟ إن علماء ما وراء الطبيعة، وعلماء اللاهوت، بل حتى علماء الرياضيات، لديهم بعض الأفكار عن هذا الموضوع، ولكن من يقوم بالتجارب لا يعلم عنه شيئاً، لأن أمره لا يعنيه، فهو يجد أن طريقة ملاحظة الظواهر، واستخلاص الفروض من هذه الملاحظات، والتأكد من صحة هذه الفروض بطريق التجربة، وإغفالها إذا لم يمكن التأكد من صحتها، وتنظيم سلوكنا على وفق ما يبدو لنا أنه قوانين راسخة، هي الطريقة التي يقول عنها «بيكون»: أنها «تسيطر على الطبيعة وتخضع لها في آن واحد».. طريقة تسفر عن نتائج باهرة مدهشة لا يتطرق إليها الشك.

وبالنظر إلى المنهج التجريبي على إنشاء علاقات دائمة بين ظواهر معينة، على نحو ما تستطيع إنشاءه القوة البشرية وعلاقات أخرى معينة (إذا أريد إنشاؤها بصفة مباشرة) تزيد عن طاقة القوة البشرية، فإن المنهج التجريبي يمكن الإنسان من أن يصير إنساناً متفوقاً، وعندما يضغط طفل في معرض على زر، فتدور كل الآلات، فإن عمله هذا إنما هو رمز للقوة التي يضعها العلم تحت تصرف أضعف المخلوقات البشرية جميعاً، ويا

لها من قوة مدهشة! وما أعجب أن تستطيع حشرة صغيرة هي الرجل، رمي بها في الكون فوق بقعة من طين، أن تنجح فضلاً عن قياس البعد بين بقعتها وغيرها، في تغيير مناخها، وزراعاتها، وحيواناتها، في غضون أشهر قلائل! وما أعجب مقدرته على صنع آلات تدور به حول كرته الأرضية في ساعات معدودة، ومقدرته على التغلب على البرد والظلام والمجاعات!.

على أننا نجد، مرة أخرى، أن المنهج العلمي لا يشرح لنا الكون، ولن يستطيع أن يشرحه أبداً، غير أنه بالنظر إلى القوة التي وهبها للإنسان فاستطاع بفضلها أن يتغلب على شتى الظواهر الطبيعية والكيميائية بل الحيوية أيضاً، فمن الطبيعي أن يسأل الكثيرون أنفسهم: لماذا لا يطبق على الكائنات البشرية فن التفكير قد يقدر له أن يحرز نجاحًا باهرًا في دنيا المادة؟ ولماذا لا يستخدم المنهج الذي مكن الإنسان من إنشاء المصانع الكبرى التي حلت فيها الآلات محل الرجال، في جلب السعادة إلى أولئك اللذين استغنى عنهم بهذه الصورة؟ ولماذا لا يخلق الإنسان المتفوق أيضًا، ذلك المنهج الذي خلق أجناسًا من الحيوان وأنواعًا مختلفة من الأزهار؟.

عندما حمي وطيس مناقشة سياسية بين نجلي اللورد "سالزبري" حتى فقدوا أعصابهما، التفت إليهما قائلاً: "فلنفكر في الأمر من وجهة نظر كيميائية، ولنحاول أن ننظر إلى المواد البشرية كأنها مواد كيميائية في إحدى التجارب، ولا يحاول أحد منكما أن يتكهن بنتائجها، بل عليه أن

يضع المواد الكيميائية في البوتقة ويصهرها ويراقب ما يطرأ عليها من التفاعلات، فإذا هي أثبتت عكس ما نعتقد، وجب علينا أن نغير ما نعتقد". وعلى هذا النحو تكون المعتقدات العلمية، فهل هذا ممكن؟ وهل يجد الإنسان في العلم، الكلمة الأخيرة في فن التفكير؟.

بعد عدة عشرات من السنين حفلت بالآمال العظيمة، توقع في بدايتها "ربنان" أن يرى عالمنا وقد سيطر عليه بالعلم أعضاء الأسرة البشرية، وتخيل في نهايتها "برتراند رسل" أنه سوف تكون لدينا آلة نستطيع بها أن نعرف على وجه الدقة مواقيت أحداث الماضي والمستقبل– ينبغي، للأسف، أن ندرك أن المنهج التجريبي، بعد أن منحنا تلك المقدرة المدهشة، التي سبق الحديث عنها، على التغلب على العالم الخارجي، قد أسفر عن قليل جدًا من النتائج الطيبة في ميدان الحياة الخلقية والسياسية والاجتماعية، ومن السهل أن نفهم السبب في ذلك:

أن القيام بالتجارب يتطلب أداء عمل محدد يمكن فيه "العزل الصناعي"، فإذا نحن أردنا أن نعرف الحالة التي يجب تهيئتها لكي يغلي الماء، فإننا نعزل مجموعة من العوامل: مصدر الحرارة، والوعاء، والسائل، ونستعين بدرجة معينة من الضغط، وننجح في استبعاد معظم المؤثرات الخارجية.

ولكن تجربة من هذا النوع لا يمكن إجراؤها فيما يعني المجتمع الإنساني المعقد الذي يستحيل فيه عزل "عينة" بذاتها.

ولا بد من تكرار التجارب إذا لزم الأمر، كما يجب إثباتها بوساطة السلبي منها والإيجابي، وهذا أمر عسير في علم النفس، ومستحيل في علم الاجتماع.

أي حصيف من رجال الدولة، ذلك الذي يحاول أن يحمل طبقة بأسرها من المجتمع على أن تنتظر حتى ترى ماذا عسى أن يحدث؟.

أي شيوعي ذلك الذي يوافق على عودة النظام الرأسمالي، في سبيل القيام بتجربة مضادة أمينة؟.

وأخيرًا، فإن المنهج التجريبي يتطلب الإخلاص والنزاهة ممن يقوم بالتجربة، وهاتان الفضيلتان على ندرتهما في التجارب العلمية التي لا موضع فيها لأعنف العواطف، تصبحان فوق طاقة البشر إذا أثيرت مثل تلك العواطف.

على أن البحث العلمي عن الحقيقة يتطلب ألا يتشبث العقل بأي نظرية تشبثًا شديدًا، "إذا كان أول واجبات العالم هو أن يخترع جديدًا فإن واجبه الثاني هو أن ينظر إليه بازدراء"، أو على الأقل، أن ينظر إليه بغير اكتراث، ولكن الإنسان هو الإنسان، وقد تؤدي رغبة القائم بالتجربة

في اكتشاف قانون جديد، إلى اعتسافه دون قصد في نتائج عمله، على نحو يتفق مع ذلك الاكتشاف.

وفي الطب، يعتقد كل أخصائي، عن عقيدة في معظم الأحيان، أن كل مرضاه يشكون نفس الأمراض التي تخصص فيها، وقد يقول لك العالم النفساني: إن كل أنواع الأمراض يكاد يكون مرجعها إلى أسباب نفسية، وأخصائي الغدد قد يكتشف مرضًا من أمراضها، حيث يجد أخصائي المعدة مرضًا داخلاً في نطاق اختصاصه.

وما الطب إلا علم من العلوم، وهو يتناول أجسامًا بشرية معينة، يمكن عزلها جزئيًا أثناء القيام بتجربة، إذا كان ذلك ضروريًا، أما إذا كانت المسألة تتصل بمشاعر وانفعالات الملايين من الأجسام البشرية، كما هي الحال في الاقتصاد والسياسة، فإن الحقائق قد تؤيد أشد النظريات تناقضًا، ويستطيع الإنسان أن يقول إن التجربة قد حكمت بالإعدام على الاقتصاد الحر للقرن التاسع عشر، لأنه انتهى بقيام النظام الجماعي في زمننا، ولكن الإنسان يستطيع أيضًا أن يقول إن التجربة قد حكمت بالإعدام على النظام الجماعي، لأنه في سبيل إنقاذ المجتمع الذي غزاه، قد اضطر إلى مواصلة السير على المبادئ التقليدية تقريبًا لنظام الملكية الخاصة، أو العودة إلى العمل بتلك المبادئ تحت أسماء جديدة.

فهل من الممكن بناء القوانين على أساس مثل تلك التجارب؟.

من الواضح أن هذا مستحيل، فإن الشيء الذي يضفي على تلك التجارب صبغة العلم، هو عددها الضخم، وإمكان تكرارها، وكل تجربة في الاقتصاد تحتاج إلى أجيال عدة، وما يقال له تجربة "روزفلت"، وتجربة "بلوم" ليسا سوى حلقتين قصيرتين من التطور السياسي، أبهظ ثمنًا من أن توضعا موضع التنفيذ بمحض الرغبة، وأضخم من أن توضعا تحت رقابة دقيقة، وأشد تعقيدًا من أن تكون لهما أي قيمة دراسية بالنسبة إلى الأجيال القادمة، التي لن تكون نظرتها إلى المستقبل مماثلة أبدًا لما جاء فيهما.

وكل ما هو صحيح في الاقتصاد، صحيح أيضًا في السياسة، لقد قيل لنا: "إن إنجلترا قامت بالتجربة الديمقراطية". غير أنه لا يمكن الوصول إلى أي نتيجة علمية، فهناك شعوب أخرى غير الشعب الإنجليزي، الديمقراطية ليست سوى كلمة يجب أن تكتب تحتها حقائق، والحقائق الإنجليزية ليست حقائق فرنسية أو إسبانية أو إيطالية.

والديمقراطية الإنجليزية من معانيها الحياة السياسية الإنجليزية، والميل إلى الجدل الحر، والتساهل، واتساع نطاق الحياة المحلية، وحسن الإدراك من جانب أرستقراطية رحبة الآفاق، إزاء الطبقة المتوسطة التي تخالطها دون تقيد، والتفاهم بين البرلمان وبين وجهاء البلاد، وبعبارة موجزة– ملكية دستورية.

والتمييز بين الديمقراطية والفاشية، معناه التمييز بين كلمتين، وليس بين حقيقتين، أو تعريفين محددين، وبين الحرية التامة والسلطة المطلقة، يمكن التكهن بل التحقق من وجود أنواع لا حصر لها من المجتمعات، فكيف يمكن أن يكتشف الإنسان بطريق التجربة، ما إذا كانت الحرية أفضل من السلطة، في حين أنه لا توجد أي وسيلة لتقدير مدى حرية شعب؟.

وليس معنى هذا أن حريات معينة ليست بالمرغوب فيها، ولا إنه توجد حقائق سياسية للشعب في أوقات معينة، بل معناه أن هذه الحقائق يجب اكتشافها بطرق غير الطرق العلمية.

ولعله ينبغي للمرء أن ينظر إلى المشاكل السياسية والاجتماعية من وجهة نظر "الكيميائية" ولكن لا بد من الاعتراف بأن هذا يستحيل في معظم الحالات، وهذا هو السبب في أن رجالاً كثيرين يستطيعون إقناع الغير حين يتحدثون عن خصوصياتهم، ولكنهم لا يلبثون أن يقولوا هراء بمجرد أن يبدؤوا في الحديث عن المبادئ العامة.

وعندما يقتضي الأمر إصلاح جهاز كهربائي، في العالم الصغير الذي يمثله في عقل المهندس يكون بمثابة خريطة دقيقة إلى درجة تجعله واثقًا من معرفة كل الأسلاك والأزرار، غير أنه حين تقتضي الضرورة بإعادة بناء دولة من الدول، فإنه لا يكون هناك رسم لحياتها الاجتماعية نستعين به على وضع خطة مؤكدة تؤدي إلى الرخاء والسعادة، ومهما بلغ

من توخي الدقة في اتباع المنهج التجريبي، فإنه يكون في مثل ضعف العقل البحت، في توجيهه لرجل من رجال الدولة، أو رجال الصناعة، أو قائد جيش.

ومع هذا كله، فإن هؤلاء رجال من واجبهم أن يتصرفوا، وأن يتخذوا القرارات، فعلى أي شيء يبنونها؟.

يقول "الين" كلمته الحكيمة: "إن العمل يجب أن يسبق الإرادة". وإذا ألقينا بكلب صغير في الماء، فإنه يسبح، مع أنه لم يسبح أبدًا من قبل، وهو يسبح لأنه صح عزمه على ذلك.

ونحن جميعًا، لدى ميلادنا، حيوانات صغيرة ألقي بها في خضم الأشياء، ونحن نسبح بقدر ما نستطيع، وحين يبدأ الكاتب في تأليف رواية، لا تكون لديه فكرة دقيقة عما يريد أن يكتبه، ولو أنه عرف ذلك كلمة كلمة، فإن روايته تكون قد كتبت فعلاً، وهكذا يلقي بنفسه في الماء، ثم يوحي إليه كل فصل بالفصل الذي يليه. وهكذا يسبق العمل الإرادة.

على أن رسم الخطط يكون ضروريًا في بعض الأحيان، لكن رسم الخطط، غير التنفيذ والرجال يضعون مشروعات جديرة بالإعجاب: "لو أنني كنت وزير الطيران!.. لو أنني كنت موسوليني!.." لوضعت مشروع لتحقيق السلام الدائم!! عبث أطفال، ولقد نجح "ولسون" في ذلك

بعض النجاح، ولكن لصيانة السلام في أوروبا لمدة عامين أو شهرين؟ معجزة تفوق طاقة البشر.

قال "جيته": إن التفكير سهل، والعمل عسير، وتنفيذ ما يفكر فيه الإنسان فعلاً، هو أصعب شيء في العالم، وقال "تولستوي": إن إنتاج عشرة مجلدات من الكتابة الفلسفية، أيسر من تطبيق مبدأ واحد.

وفي الجانب الأعظم من أهم الأمور في حياتنا نجد أنفسنا مرغمين على أن نجد طريقنا بين مجاهل من الأعمال غير معروفة المعالم، فأين مكان فن التفكير في هذا؟.

لقد أوضحنا صواب التفكير الغريزي، وحدود ميدانه الضيق، ورجل العمل يحلم بالاكتشاف، وفي حالات متناهية التعقيد، كيف يحصل على الثقة بغريزته، وبعبارة أخرى: إن فن التفكير بالنسبة إلى رجل العمل، هو الفن الذي يجعل التفكير غريزيًا.

ولا نقصد بذلك أبدًا إلى القول بأن رجل العمل يجب عليه ازدراء العقل– فهو ينبغي أن يفكر فيما ينوي عمله ويتكهن– كما فعل نابليون في شبابه في "طولون"– بالمشكلات التي سيكون عليه أن يحلها في يوم من الأيام، وأن يلاحظ كثيرًا من الحقائق، وأن يستخلص قوانين من ملاحظاته.

ولكن هذا التفكير، وهذه الملاحظات، وتلك القوانين، يجب أن تحفر في داخل جسمه، يجب أن يوغل التفكير بعمق، ويجب عليه أن يخف لتلبية دعوته على الفور، وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن يكتسب السرعة الخاطفة في اتخاذ القرارات، التي تتطلبها الحوادث دائمًا، إلا في حالات قليلة نادرة.

تصور ما عسى أن يحدث حينما يحضر مريض إلى طبيب كهل، إنه قد يعمد إلى ما يعمد إليه زملاؤه من طلب تحاليل، وهذه التحاليل قد تساعده، في البحث الذي يقوم به عقله الباطن، ولكن غريزته التي ولدتها آلاف الحالات التي لاحظها، سوف تملي عليه تشخيصه للمرض.

والأسباب التي تجعله يشعر بالقلق أو الاطمئنان على المريض، تكون كثيرة حتى إنه كثيرًا ما يجد من العسير أن يعبر عنها بالكلمات، وهو إلى جانب عالم شاب نابغة، لن يبدو على كثير من العلم، ولكنه "يعلم"، وتكون أخطاؤه أقل من أخطاء الآخر فعلاً.

والقائد العظيم في حلبة القتال، لا يعمد إلى مألوف التعليل والموازنة، فإن الحل يومض فجأة أمام عينيه، بفضل علمه بالتاريخ، وتجاربه، وما يتلقاه من المعلومات. وهكذا يكرر "بيتان" في معركة "شامباني" مناورة سبق أن قام بها "ولنجتون".

والكاتب العظيم ينقح صفحة كتبها، بحذف عبارة أو كلمة، أو بتغيير مكان إحدى الأفعال، ولو أننا حاولنا شرح السبب في أن هذه

التصحيحات تحسن سياق الكلام المكتوب، لنجحنا في ذلك دون شك، ولكن الكاتب ليست به إلى ذلك حاجة، لأنه اكتسب سليقة اللغة، بفضل دراسته الطويلة الواعية لأساليب الكتاب الأعلام.

يقول "فاليري": إن أصعب الأشياء ليس العثور على الأشياء، ولكنه استيعاب ما نجده، إننا لا نملك المعرفة حقًا، إلا إذا هي قدمت نفسها إلى العقل في وقت الحاجة، دون ما لا يتسع له الوقت من القياس والتدليل.

والعالم الداخلي بالنسبة إلى رجل العمل العظيم يحتوي على صورة صادقة من تلك الأجزاء من العالم الخارجي التي سيحدث فيها عمله.

ورجل الدولة الحقيقي يحمل وطنه معه، فهو يعلم خيرًا مما يعلم موظفوه ماذا سيكون رد فعل الشعب، فقد اكتسب هذه المعرفة التامة بمواطنيه بفضل الملاحظة، والقراءة، والتفكير، والصلة الشخصية الوثيقة بمواطنين من جميع الطبقات، وهذه المعرفة تعبر عنها قراراته السريعة العادلة.

والسياسي الذي ليس له مريدون، يعمد إلى استشارة الصحافة، والإحصائيات، واللجان، ومن العجيب أنه يقترف الأخطاء باستمرار.

والمعلومات ليست ثقافة، ففي عقل الرجل المتعلم حقًا، تنتظم الحقائق وتؤلف عالمًا حيًا في صورة تتفق مع عالم الحقائق.

ورجل الإحصاء يمزق الدنيا ويقتلها، والشاعر يصب عالمًا في قالب يمنحه الحياة. أما رجل العمل العظيم، فيشبه الشاعر أكثر كثيرًا مما يشبه رجل الموسوعات.

ولقد وضح الآن المعنى العميق الجاثم وراء هذين المثلين الشهيرين: "إن الرجل أقوى مما يعلم"، "الإيمان يجب أن يسبق المعرفة"– إن من واجبنا أن نؤمن قبل أن نعرف، لأن الأفعال يجب أن تسبق المعرفة.

وفن التفكير هو أيضًا فن الإيمان، لأنه ليس هناك كائن بشري في المرحلة الحاضرة من مراحل المدنية يمكنه أن يعيد البحث، آمنًا، في كل معتقداته الفردية والاجتماعية، أو يسلمها إلى ضميره.

وتغيير آراء الإنسان جميعًا هو تحول يتطلب فراغًا من الوقت لإدراكه، ولكي يحيا الرجل حياة عمل، يجب عليه أن يتقبل القوانين الأخلاقية والاجتماعية والدينية، التي اعترف أسلافه بضرورتها.

وتغطي عقولنا طبقات متتالية، أولها عقائد رجل الفطرة، وثانيهما أديان الأسيويين، والإغريق، والرومان، والمصريين القدماء، وأكثر هذه الطبقات سمكًا الديانة المسيحية، أما أقلها سمكًا فهو الأفكار المصرية التي تتصل بنظام الكون، ومن هذا كله خلقنا، بآثارنا الفنية، وتذكاراتنا، وشعائرنا، وأفكارنا، ولا يستطيع الإنسان أن يتخلص من الماضي بأسهل مما يستطيع أن يتخلص من جسمه.

والتفكير الصحيح هو ذلك الذي توغل أسسه في أعماق الطبقات الباطنة للغريزة، في حين ترتفع أبراجه وذراه إلى آفاق العقل الصافية النيرة، ومثل هذا التفكير يخضع لقوانين المنطق، التي هي قوانينه هو، ويراعي ما أمكن، قواعد البحث العلمي التي أثبتت سلامتها بما أحرزت من الانتصارات، ويطمئن إلى التقاليد الإنسانية الباقية في كل واحد منا، وأخيرًا، إنه تفكير صادر من الجسم، وعلى هذا، فإنه لا يلبث أن يصير عملاً، شعرًا.

وإذا كان علي أن أشرح في كلمات قلائل، الصلة بين التفكير النظري والتفكير العملي، فإني أعتقد أن في وسعي أن أستفيد من المقارنة الآتية:

في وقت المعركة، تتعاون الطائرات وقوات المشاة، فتعبر الطائرات خطوط العدو، وتستكشف، وتصل إلى الأماكن المحتمل أن تكون فيها خنادقه، وعلى الطائرات أن تبعث بإشاراتها إلى قوات المشاة، فتخبرها عن الاتجاه الذي يحتمل يكون الزحف فيه ممكنًا، ولكن الطائرات لا يمكنها احتلال المنطقة، وكثيرًا ما تقع أخطاء خطيرة قهرية في الوصف لا تلبث المشاة أن تكتشفها في زحفها العسير.

والمشاة لا تستطيع الطيران فوق العوائق، بل لا بد من أن تدمرها أو تتسلقها، وقد يبدو بعض هذه العوائق من مكان قريب، أخطر كثيرًا مما اعتقدته الطائرات التي نظرت إليه من ارتفاع شاهق، فإذا ارتبكت

قوات المشاة وسد العدو أمامها طريق التقدم، كان دور الطائرات هو أن تظل متصلة بالمشاة، بدلاً من استمرارها في تقدم لا يجدي، وأن تدرك أخطاءها في الاستطلاع، وتجد وسيلة لتقديم مساعدتها، وبعد ذلك تبدأ الطائرات من جديد في عمليات الاستطلاع، وبهذا يتحقق النصر آخر الأمر، بفضل التعاون الدائم بين المحاربين على الأرض والمراقبين في السماء.

وعلى هذا النحو يستطيع التفكير البحت- بل يجب عليه- أن يطير إلى ما وراء مناطق قد احتلتها العادة والملاحظة فعلاً، حتى يبلغ مناطق لا تزال معادية، وهو بتفسيره الإشارات تفسيرًا فرضيًا، يصف الأشياء التي يعتقد أنه قد رآها، ثم يجيء دور العمل، الذي يحاول احتلال تلك المناطق بمساعدة الخطط التي رسمها التفكير، وهو ينجح في ذلك أحيانًا، ولكنه يرتد مخذولاً في أحيان أكثر.

وعلى الفكر عندئذ أن يعترف بأخطائه، ويتصل بالحقيقة الواقعة، ويستبعد الخواطر المتباطئة التي قضت عليها التجربة، ويقترح فروضًا جديدة، وبغير التعاون المستمر بين الموازنة والتجربة والعمل لا يمكن الحصول، لا على نصر دائم- فهذا ليس من طبيعة الأشياء- ولكن على لحظة راحة واستجمام في ملجأ من تلك الملاجئ الهشة، التي نسميها الحضارات.

هل نستطيع أن نرسم في أذهاننا خريطة دقيقة للكون، وأن نصل إلى الموانى التي يقع عليها اختيارنا؟.

يخيل لي أنه يمكن الإجابة على هذا السؤال بأن الفكر الإنساني لا يستطيع أن يرسم خريطة دقيقة للكون بأسره، ولا يستطيع أن يصل إلى شواطئ أراضي الأحلام البعيدة التي جاءتنا بحديثها الأساطير.

ولكن الفكر الإنساني يستطيع – على نحو ما كان يفعل الملاحون في العصور الأولى، حيث كانوا يستعينون بمعلومات أسلافهم ويزيدون عليها ما كانوا يلاحظون في النجوم، وجزر البحر ومده، والرياح– يستطيع الفكر الإنساني على هذا النحو أن ينطلق بشجاعة من حطام سفينة إلى حطام أخرى في كثير من البحار، ولم يسأل "أوليس" الحكيم آلهته أكثر من هذا..

فن العمل

ما هو معنى كلمة "يعمل" على وجه التحقيق؟.

في قاموس "ليترى"، نجد التعريف الآتي: "يعمل، أي يتعب في أداء مهمة".

ويبدو لنا أن هذا ليس بالتعريف الجيد، ألا يستطيع الإنسان أن يشعر بالغبطة في العمل؟.

فلنطوي القاموس، ونتأمل بعض الأمثلة:

إن نافخ الزجاج يعمل، فماذا يصنع؟ إنه يتناول كتلة لا شكل لها، فيعطيها شكل شيء نافع.

وماذا يصنع عامل المنجم، إنه يقتطع المواد الخام من تربة الأرض، مثل الفحم والحديد، ويعطيها رجالاً فيحيلونها إلى طاقة، وحرارة، وآلات.

وماذا يصنع الفلاح؟ إنه يحرث الأرض، ويقوم بإعدادها، ويبذر فيها البذور.

وماذا يصنع الكاتب الروائي؟ إنه يضع في قالب قصصي، المادة الناتجة عن ملاحظاته على الناس– وعلى نحو ما يصنع نافخ الزجاج، كذلك يخلق هو عملاً فنيًا من الكتلة التي لا شكل لها من هذه المادة.

وماذا يصنع طالب العلم؟ إنه يحاول أن يستوعب المعرفة التي اكتسبها أولئك الذين سبقوه، فهو ينظم عقله، ويصنع نفسه.

إن العمل هو تحويل أو تحريك الأشياء أو المخلوقات بطرق تجعلها أكثر نفعًا أو أكثر جمالاً، وهو أيضًا دراسة القوانين التي تسيطر على تلك التحويلات، من حيث رسم مناهجها أو تطبيقها.

وعلى رغم تعدد أعمال الرجل وتنوعها، فإن هناك أمثالاً قليلة يجب أن تنطبق على جميع العاملين، يجب على المرء أن يختار ما يمكنه عمله، هناك حدود معينة لقوة الرجل وذكائه، فمن يريد أن يفعل كل شيء، لن يفعل شيئًا.

إننا نعرف جيدًا أولئك المشكوك في مقدرتهم الذين يقولون:"أستطيع أن أكون موسيقيًا عظيمًا"... "من السهل أن أصبح من رجال الأعمال".. "يمكنني التأكيد أن أنجح في السياسة"... ولنا أن نثق في أنهم سيصبحون في كل الأحوال من هواة الموسيقى، وفاشلين كرجال أعمال، وسياسيين مغلوب على أمرهم.

ولقد كان من رأي نابليون أن فن الحرب ينحصر في أن يجعل الإنسان نفسه أقوى الجميع في ناحية واحدة وفي الحياة، يجب أن نختار نقطة للهجوم ونركز عليها قواتنا.

واختيار العمل يجب ألا يترك لمحض المصادفة والاتفاق "لأي عمل أليق؟ ما هي قدراتي الطبيعية؟" هذا ما يجب أن يسأل المبتدئ نفسه، ولا فائدة من الإصرار على المستحيل، فإذا كان لك ولد لا يتطرق الخوف إلى قلبه، فاجعل منه طيارًا بدلاً من أن تجعل منه رئيس مكتب، أما إذا تم الاختيار، فلا ينبغي الأسف عليه إلا إذا وقع حادث جلل.

وفي حدود العمل المختار، سيكون هناك مجالاً لأكثر من اختيار واحد، فالكتاب لا يستطيع أن يؤلف كل أنواع الروايات، ورجل الدولة لا يستطيع إصلاح كل وزارة. والرحالة لا يستطيع أن يزور كل بلاد العالم، وهنا أيضًا يجب أن يستبعد المرء بإصرار، وبصورة قاطعة، إغراء الاضطلاع بمشروعات هو غير كفء لها.

أنفق الوقت اللازم للاختيار، لكن لا تتجاوزه. إن ضابط الجيش بعد أن ينتهي من التفكير بإمعان في نتائج الأمر الذي يوشك أن يصدره، يضع حدًا لتردده بإصدار أمره بالتقدم.

وعلى هذا النحو ينبغي أن تضع أنت أيضًا حدًا لما يساورك من تردد، "ماذا عسى أن أفعل في السنة القادمة؟ هل أستذكر دروسي استعدادًا لدخول هذا الامتحان، أم الامتحان الآخر؟ أم أسافر إلى

الخارج؟ أم التحق بذلك المصنع؟". من الطبيعي أن تدرس هذه الأسئلة بعناية، ولكن يجب الوصول إلى قرارات حاسمة في موعد معين– وبعد ذلك، لا أسف، ولا تغيير.

ولتأكيد التقيد بالاختيار الذي تم، يحسن بين الحين والحين، تدوين برنامج ينص فيه على كل من النتائج المطلوبة فورًا، وتلك المطلوبة في آخر الأمر، وعند الرجوع إلى ذلك البرنامج، بعد أعوام أو أشهر، ندرك مدى قوتنا وحدودنا، وهذا الجزء من المشروع، الذي يتطلب عملاً ناجزًا، يجب عزله، كما يجب أن نركز عليه كل اهتمامنا.

افعل ما تفعل، وأقبل عليه بكل قلبك، كافح بجسدك وعقلك معًا في سبيل الوصول إلى هدفك، وحين تصل إليه، يمكنك أن تتباطأ في السير، وأن تستكشف الطريق المتقاطع مع طريقك، وأن تمتع عينيك بالمنظر، ولكن إياك أن تستكشف أو تتباطأ، قبل أن تؤدي المهمة.

والرجال المقبولون هم أولئك الذين يهتمون بكل شيء: الرجال الذين يفعلون الأشياء، الذين يفرغون من مهامهم، والذين في فترة معينة من الزمن، يحصرون اهتمامهم في شيء واحد فقط، وفي أمريكا يسمون هذا النوع من الرجال "العقول ذات الطريق الواحد". وإن عزمهم الأكيد، والأفكار المسيطرة على عقولهم، لشيء يبعث على الضجر أحيانًا، ولكنهم يحرزون النجاح، بفضل الهجوم المتكرر، وإزالة العوائق التي تعترض سبيل ندمهم.

يجب على المرء أن يؤمن بأن النجاح غير مستحيل، وإذا أنت أحسنت اختيار الهدف، فإن قواك سوف تعينك على إدراكه، إلا في حالات الطوارئ.

ومن العبث والخطر أن تضطلع بتحقيق غايات لا سبيل إلى تحقيقها، والفشل قد يقضي على الثقة بالنفس، وعلى النشاط، وقد نصح "جوته" للشعراء الناشئين بأن ينظموا قصار القصائد، بدلاً من طول الملاحم.

ويقول "ساموبل بتلر" إن من واجبنا أن نأكل من عنقود العنب خير حباته أولاً. ولعل من المستحسن أن يبدأ المؤلف كتابه الطويل المعقد، بتسجيل أجزائه أولاً.

والمهمة التي يبلغ من عظم طولها أن يستحيل إنجازها في مرحلة واحدة، يحق تقسيمها إلى مرحلتين، ثم يركز كل الاهتمام على كل مرحلة على حدتها، ولا ينبغي أن ينظر الإنسان إلى أبعد من المرحلة التي هو بصددها... على نحو ما يفعل متسلق جبال الثلج، الذي يقتطع من الثلج ليشق طريقه خطوة بعد أخرى، ويرفض أن يرفع نظره إلى القمم، أو يخفضه إلى الأعماق، لأنه إن فعل هذا أو ذاك، لم يلبث أن يستولى الرعب على قلبه.

إن كتابة تاريخ شعب من الشعوب، تبدو أنها مهمة تتجاوز حدود الطاقة البشرية. فلتقسمه إلى فترات، وابدأ بالفترة التي تعرفها خيرًا مما

تعرف سواها، ثم انتقل إلى تاليتها، وسوف تعجب في يوم من الأيام لأنك وصلت إلى نهاية مهمتك، وسوف تنظر بعين الدهشة إلى ضخامة العمل الذي قمت بإنجازه، وبعد تجارب متعددة يتشجع القلب، ويصير التنفس أكثر انتظامًا.

والمؤلف الذي كتب عددًا كبيرًا من الكتب لا يشك أبدًا في مقدرته على إتمام الكتاب الذي يبدأ كتابته، وهو يجسر– كما فعل "مارتن دى جار" و"دوهاميل" و"جول رومان"– على تكديس تل كبير من الكتب، واثقًا من بلوغ قمة ذلك التل في يوم من الأيام.

وعلى هذا النمط يعمل الفلاح الذي يحصد القمح، فإنه لا يمتد ببصره إلى نهاية الحقل البعيدة، وهكذا تفعل ربة البيت التي تأخذ على عاتقها تنظيف بيتها، فإنها تتناول كل أجزائه واحدًا بعد الآخر.

والأحمق يظن كل شيء سهلاً، فتوقظه من غفلته صدمات عنيفة كثيرة، والمتخاذل يظن كل شيء مستحيلاً، فلا يأخذ على عاتقه أن يفعل شيئًا على الإطلاق. والعامل المجد يعلم أن الأشياء العظيمة مستطاعه، ولا يلبث أن يحققها بهمته رويدًا رويدًا.

ولا بد في العمل من نظام، والكثيرون يشكون من أن الحياة قصيرة، ولكن هل هؤلاء الناس أحياء، حتى لمدة ثماني ساعات كل يوم؟.

إن كمية العمل التي يمكن أن ينجزها رجل يكون جالسًا إلى مكتبه في فجر كل يوم، أو في محل عمله أيًا كان، لأشبه بالمعجزة، وهناك حقيقة جديرة بالتأمل: فلو أن كاتبًا أنتج صفحتين فقط كل يوم، لبلغ مجموع إنتاجه بعد حياة طويلة، ما يساوي في الكم، وليس في الكيف بالتأكيد، مجموع كتابات بلزاك أو فولتير.

غير أنه لا يكفي الجلوس إلى مكتب، فالإنسان في حاجة إلى الهدوء.

والخط البياني الذي يمثل العمل يصعد وفقًا لمتوالية هندسية إذا لم تنتبه فترات انقطاع، وهذا صحيح بالنسبة إلى الكاتب الذي يحتاج إلى وقت ينسى فيه العالم الخارجي ويتفرغ لأفكاره وتصوراته، وهو صحيح أيضًا بالنسبة إلى المهندس الذي يحاول معرفة السبب في اختلال آلة، أو صاحب المصنع المشغول بطلبات عملائه، والعمل غير المتماسك تظهر فيه دائمًا آثار التعطيل.

وعلى هذا فمن واجب العامل أن يبتعد عمن يضيعون وقته، إنهم لا يرحمون، بل إنهم ليأخذون ممن لا يقاومهم آخر دقيقة من وقته دون أن يفكروا في أنه لو ترك وحده لأنجز عملاً قيمًا.

والرجل من هؤلاء لا يتورع عن مقابلة رئيس أركان حرب الجيش، في يوم إعلان الحرب، ليتحدث إليه بشأن رتبة خادمه العسكرية، وهم يعمدون إلى وسائل مختلفة لإضاعة وقت الغير، منها الزيارة الشخصية،

والتليفون، ورسالة البريد، ومن الخطأ الفادح أن يؤخذوا باللطف والصبر، بل يجب أن يعاملوا بقسوة، واتخاذهم أصدقاء ضرب من الانتحار.

ولقد قال "جوته" كلمات حكيمة في هذا الموضوع: "من الضروري جدًا أن تحمل الناس على الإقلاع عن عادة مفاجأتك بالحضور دون إعلان، فهم يصرون على أن تهتم بشئونهم، كما أن زياراتهم تملأ ذهنك بأفكار غريبة على أفكارك، وأنا نفسي ليست بي حاجة إلى مثل تلك الأفكار. وعندي فوق ما أستطيع عمله، لأحمل أفكاري إلى غايتها الصحيحة".

يقول لك ضيعوا الوقت:"إنك تكثر من الخروج، وهذه حماقة منك، فإنك تهمل عملك ثم يضيفون إلى ذلك قولهم:"تناول العشاء عندنا مساء غد".

ولقد حدث أن استطاع أحد الثقلاء أن يقتحم منزل "جوته" برغم تعليماته الناهية عن مثل ذلك، ولكنه سرعان ما استولى عليه التردد بفضل البرود الذي عامله به الرجل العظيم، فقد وضع "جوته" يديه وراء ظهره، ورفض أن يتكلم.

وكان من مأثور عادته أنه إذا كان زائره رجلاً له شيء من الأهمية، سعل قليلاً، وتمتم بعبارات غير واضحة سرعان ما تضع حدا للحديث، ولقد كان يقسم خطاباته إلى نوعين: خطابات أولئك الذين يطلبون شيئًا

(وكان يمزقها)، وخطابات أولئك الذين يعرضون عليه شيئًا، وحتى هذه لم يكن يرد عليها، إلا إذا كانت فيها عروض فيها شيء من الفائدة له.

وقد يقال إن مثل هذه الأنانية شديدة القسوة، وإن من بين أشهر المشاهير من يرد على خطاباته، وإن من بين الثقلاء من يستحق الاهتمام، والعطف، بل الود، ولقد شكا الكثيرون من هذه الصفة غير الإنسانية من صفات "جوته"، ولكن هذه الصفة هي التي مكنته من تأليف "فاوست" و"فلهلم مايستر".

إن من يسمح لنفسه بأن يفترس، سوف يفترس، وسوف يموت قبل أن يؤدي عمله. إن الرجل الذي عنده رغبة ملحة في العمل لا يطلب من الآخرين إلا ما سوف يساعده، إنه لا يعرض عن عمل يمكن أن يكون نافعًا، وفي استطاعته أن يؤديه جيدًا، ولكنه يجتنب المناقشات، والاجتماعات، وقاعات الاستقبال الحافلة بمخترعي العبارات، ويذهب "جوته" إلى حد إسداء النصح إلى مثل ذلك الرجل، بأن يتجاهل الأحداث اليومية إذا لم يكن في وسعه أن يفعل بصددها أي شيء.

ولو أننا أنفقنا ساعة من صباح كل يوم في التحدث إلى أنفسنا عن الحروب النائية، وساعة أخرى في التحسر على نتائجها المحتملة، مع أننا لسنا وزراء، ولا قوادًا، ولا صحفيين، ولا أي شيء– فإننا بذلك لا نسدي أي خدمة إلى وطننا، بل نضيع أعظم شيء لا يمكن استعادته بين كل ما نملك، وهو حياتنا القصيرة.

وهذا النظام في العمل بالنسبة إلى "جوته" قد امتد إلى العاطفة، صحيح أننا لو أسلمنا أنفسنا دون تحفظ إلى دوافعنا العاطفية، فإننا كثيرًا ما نصبح عاجزين عن أي عمل، وهذه الدوافع طبيعية، ولا يستطيع أحد أن ينصح الرجال أن يضحوا بحياتهم العاطفية من كل النواحي في سبيل عملهم.

ولكن هنالك قاعدتين يجب تذكرهما واتباعهما: الأولى أنه يجب ألا نسمح لأنفسنا بالانصراف عن عملنا بسبب عواطف جوفاء أو مبالغ فيها (كم من الشباب فقدوا درجاتهم الجامعية بسبب نزوة حب لغانية!). والقاعدة الثانية هي التضحية بكل شيء في سبيل العمل الذي يستحق مثل هذه التضحية.

وعلى هذا النحو ضحى "بروست" بحياته في سبيل إتمام روايته، وعلى هذا النحو أيضًا يضحي الزعيم الوطني في زمن الحرب أو عند حدوث أزمة مستعصية، بكل شيء.

ولقد خنق "جوفر" عواطفه، وشكى بعض أصدقائه من جفائه، ولكن هذا الجفاء قد مكنه من إعادة إقليم "المارن" إلى ما كان عليه.

وكل عظماء العاملين، أو جلهم، يعرفون كيف يعتزلون العمل بين الحين والحين. فهم يملكون منازل في الريف، واستراحات في الجبال، وأكواخًا على شاطئ البحر، حيث يتحررون من كل التبعات، حتى نحو

من تربطهم بهم ورابط الود والصداقة. وهناك فقط تحتل الأحداث والعواطف موضعها الصحيح من الصورة الهائلة الشاملة.

ففي ضوضاء مدينة صاخبة، نجد أن مسرحية، أو مقالة في صحيفة، أو شيئًا من الثرثرة السخيفة، تبدو على جانب من الأهمية، فهل تحتل مكان العمل والتفكير الجدي، وتحت الأنجم الساهرة إلى الأبد، ترتد الأشياء التافهة إلى الظلام، وتختفي عن الأنظار، وعندئذ، في سكون الليل والروح، تنهض أسس الصروح الشامخة، على أرض أزيلت عنها الأقدار والأكدار.

يقول "ياريه": "أيتها الوحدة: إنك أنت وحدك لم تنزلي قدري". ويجب أن يضاف إلى هذا: أنت وحدك لم تضعفيني.

***

لقد تحدثنا عن العامل الذي يختار عمله بنفسه، وله الحرية في أدائه أو الانصراف عنه، ويجب عليه أن يضع نظامه بنفسه، لأن أحدًا آخر لا يستطيع أن يفعل ذلك.

وينبغي لنا الآن أن نشير إلى أولئك الذين ليسوا هم أنفسهم خلافين ولا زعماء، بل ينحصر عملهم في مساعدة مثل أولئك الأشخاص، ومن هذه الطبقة مرافقو القواد العسكريين، ورؤساء أركان الحرب، ورؤساء الإدارات، والسكرتارية، الذين يجب عليهم اتباع

تعليمات معينة، وهذه التعليمات يجب اتباعها بدقة، حتى لا تنشأ أي صعوبة أمام أولئك الذين من واجبهم أن يصدروها، وهذا يتطلب صفات شخصية خاصة.

فإن الرجل الذي يعمل مع آخرين مؤتمرًا معهم بأوامر رئيس، يجب أن يكون خاليًا من الغرور، فإذا كانت قوة إرادته أكثر مما ينبغي، وكانت أفكاره تتعارض مع أفكار رئيسه، فإن تنفيذ الأوامر يكون دائمًا موضع شك، بسبب محاولته تفسير تلك الأوامر في ضوء أفكاره الخاصة، والثقة بالرئيس ينبغي أن تجمع شمل مرءوسيه.

ومن الواضح أن الطاعة لا يجوز أن تنقلب إلى عبودية، فإن رئيس أركان الحرب، أو رئيس أحد الأقسام، ينبغي أن يكون في وسعه إذا رأى- خطأ أو صوابًا- وأن رئيسه يرتكب غلطة فاحشة، أن يصارحه بذلك في شجاعة، ولكن هذا النوع من التعاون لا يكون له أي أثر إلا إذا كان وراء مثل هذه الصراحة إخلاص وإعجاب صادقان، فإذا كان الضابط الصغير لا يعترف بأن رئيسه أكثر تجربة منه وأقدر منه على صحة الحكم، فإنه يقدم إليه أردأ خدمة، وانتقاد المرءوس لرئيسه يجب أن يكون عرضًا، بدلاً من أن يكون عادة.

يروي المارشال "بيتان" كيف أنه في غضون الحرب الأخيرة، اقترحوا عليه أن يلحق ضابطًا جديدًا بهيئة أركان حربه، فمضى به إلى الريف، وعرض عليه مسألة في علم الخطط الحربية فأشار بنفسه إلى

طريقة حلها فلو أن الضابط وافق على ذلك الحل، ودل بهذا على أنه رجل من ذلك الطراز الذي لا يعرف كيف يقول "لا" أبدًا، لرفض المارشال أن يقبله، ولكنه على العكس من ذلك، انتقد آراء القائد العظيم باحترام، ولكن بتصميم، فنال بذلك تهنئته، وظفر بالمنصب.

ويضيف المارشال إلى ذلك قوله:"إن المشكلة هي أن الواقعة ما لبثت أن شاع خبرها بين كل رجال الجيش، فلم يكن في وسعي أن أفتح فمي حتى يبادرني أصغر الضباط بقوله في حماسة:"كلا يا سيدي المارشال!". ولقد أفلت مني زمام أعصابي مع واحد منهم، ولم يحدث ذلك بعدها أبدًا".

ماذا يجب أن يفعل المساعد، إذا كان يعلم أنه على صواب، ولكن رئيسه يرفض الأخذ بنقده؟.

يجب أن يطيع الأمر بعد أن يعرض اعتراضاته، فلا يمكن أن يكون هناك عمل جماعي، دون أن يكون هناك نظام، فإذا كان الأمر بالغ الخطورة إلى حد أنه قد يؤثر على مستقبل أمة أو جيش أو مؤسسة تجارية، كان لصاحب النقد أن يقدم استقالته، ولكن هذا الإجراء يجب أن يكون آخر سهم في جعبته، فما دام الرجل يعتقد أنه يستطيع أن يكون نافعًا في عمله، وجب عليه أن يبقى فيه.

والتهديد بالاستقالة يكفي في بعض الأحيان، ولكن تقديم الاستقالة قد يتكرر أكثر مما ينبغي.

عندما كان "ليوتي" قومندانًا شابًا يتلقى أوامره من الكولونيل "جاليني"، علمه الأخير، في بادئ الأمر، فن الاستقالة، ففي كل مرة يرفض فيها القائد العام للهند الصينية إصدار أمر طلبه الكولونيل "جاليني" كان الأخير يقدم استقالته، وبالنظر إلى شدة الحاجة إليه، كان مصير الاستقالة الرفض، ومصير طلبه الموافقة، وفيما بعد في مدغشقر، عندما كان "جاليني" هو القائد الأعلى، حدثت مشادة بين الرجلين، فقدم أصغرهما استقالته، وبعد أيام قلائل أعيدت إليه وعلى هامشها: "كلا! كلا! ليس إلي– جاليني".

ومن واجب رئيس أركان الحرب، أو رئيس القسم، أو السكرتير، أن يروض نفسه على أساليب رئيسه في العمل والتفكير، ويحدث أحيانًا أن تكون الأوامر غامضة، وعندئذ يكون عليه أن يتولى مهمة تفسيرها، ولقد كان "فيجان" يقوم بتفسير أوامر رئيسه المارشال "فوش".

فإذا كانت تلك الأوامر عبارة عن ملاحظات عامة تلقي شيئًا من الضوء على المستقبل الغامض، فإنه يكون من واجب رئيس الأركان أن يستخلص منها تعليمات مفصلة، وعلى هذا النحو استخلص "برتييه" من فكرة الإمبراطور تعليمات تقضي بتحرك القوات.

وإذا كان الرئيس حاد الطبع، كان على رئيس القوات أن يطيب خاطر المرءوسين الذين يؤذي شعورهم أو يهاجمهم، وأن يحذر الزوار سرًا من الموضوعات التي يجب عليهم اجتنابها.

وفي الحرب الأخيرة، التحقت بهيئة أركان حرب قائد إنجليزي، كضابط اتصال، وكان هذا القائد عظيم القدرة على التنظيم، وكان في جوهره رجلاً طيبًا من كل ناحية، ولكنه كان مكتئبًا متقلب المزاج حتى أن ضباطه أطلقوا عليه اسم "الجنرال الأسود".

وبفضل مصادفة سعيدة، هي كوني فرنسيًا، لم تكتب لي النجاة من ثورات غضبه وحسب، بل كان يعاملني معاملة ودية كريمة، ويدعوني لتناول الشاي معه على انفراد في عصر كل يوم، وفي أحاديثنا الودية، كان في وسعي أن أتحدث إليه عن أي شيء، ولم ألبث رويدًا رويدًا حتى وجدت أنني أحمل إليه رسائل لا حصر لها من ضباط بريطانيين، بعضها خاص بالعمل وبعضها الآخر خاص بأشخاصهم ووظائفهم، وكان هؤلاء الضباط يطلبون إلي أن أطلع "الجنرال الأسود" على حقائق ما كان ليصغى إليها لو أنهم أطلعوه عليها بأنفسهم، ولقد تبينت من ذلك مدى الخدمات الجليلة التي يمكن إسداؤها إلى الأفراد والجماعات، عندما يضع رجل واسع النفوذ ثقته في شخص ما.

ونزوات الرجل العظيم يجب احترامها، لأن الوقت اللازم لمحاربتها أثمن من أن يضاع، فرئيس القسم، ورئيسه، قد يصلان إلى حالة من حالات التكافل والتعاون.

والموظف اللبق يعرف الكلمات التي لا ينبغي له أن يذكرها في حضرة رئيسه، لأنها تثير في نفسه عقدًا أو ذكريات أليمة، أو تهيج

غضبه، وهو يعرف كيف يعرض لموضوعات بحيث يهتم لها الرئيس ونواحي ضعفه، ولا يقلل من احترامه له لهذا السبب، بل يبذل غاية جهده كي يسد الثغرات.

والعمل تحت رياسة كبار الموظفين، يجعل الشبان الذين لم يتعودوا المسئولية أو النفوذ أو إعطاء الأوامر، على صلة مباشرة بمشروعات وقرارات على أعظم جانب من الخطورة، وفي مثل هذه الظروف الخاصة، لا بد من توخي الكتمان.

فالشاب، أو الشابة، بدافع من الزهو باتصاله بالشئون الهامة، قد يستهويه أن يباهي بين إخوانه بأخبار العمل الذي يقوم به، في حين أن من واجبه ألا يتحدث عنه، فقد ينجم عن مثل ذلك الاستخفاف ضرر لا حد له، وعلى أي حال فإن هناك متاعًا ينطوي عليه الحرص والتكتم، ولا شيء أكثر إثارة للنفس من أن يكون الإنسان مستودع أسرار، يعرف الحقيقة، ويخفي معرفته بها.

وما كان أبرع مدام "ريكامييه" في ذلك! ففي وقت ما، كانت مستودع أسرار زعماء أحزاب متعارضة، أو رجلين يتنافسان على منصب، أو أسرار مؤلف ونقاده.. كانت تصغي، وتبدي اهتمامها، وتعتذر عن أحدهم للآخر إذا لزم الأمر، ولكنها لم تكن تفشي سر أحد، وكان دورها ينحصر في معظمه في الإجابة على قليل من الأسئلة، ولكنه كان دورًا نافعًا، وقد قامت به بطريقة تبعث على الإعجاب.

وعلى المساعد ألا يكتفي بالحصول على مجرد المعلومات المطلوبة وحسب، بل عليه أيضًا أن يحصل على المعلومات التي قد تلزم فيما بعد، ومن واجبه أن يتكهن بأفكار رئيسه، ويمهد السبيل إلى تحقيقها، وأن يتخلص من الوساوس التي لا ضرورة لها، وأن يتولى بنفسه ترتيب صغار الأمور، ويسهل ذلك العمل الرتيب الذي يجثم على صدر حياة كل رجل ذي أهمية.

والسكرتيرة المرأة ذات الكفاءة، هي خير مساعد، والدور الذي تقوم به غير مقصور على تسجيل ما يملى عليها ورقم الرسائل على الآلة الكاتبة، بل عليها أن تحفظ الرسائل والردود في ملفاتها الخاصة، وأن تختزن العناوين في ذاكرتها وأن تجعل من نفسها فهرسًا يمشي على قدمين، كذلك يجب أن تتحلى بكل فضائل رئيس القسم، وكل فضائل المرأة أيضًا، وهي بوصف كونها امرأة، يكون من مزاياها المقدرة على التكهن، والمحافظة على تقدير رؤسائها لأنفسهم، وإشاعة روح الرضا في جو المكتب، ومن واجبها في نفس الوقت، ألا تجعل أنوثتها شيئًا واضحًا، لأنه إذا تنبه إلى أنوثتها أحد رؤسائها أكثر مما ينبغي، أثر ذلك في العمل تأثيرًا سيئًا. وهو توازن عسير، ولكن الاحتفاظ به ممكن.

***

ولقد ظل الناس زمنًا طويلاً وهم ينظرون إلى العمل باعتباره عارًا وعقوبة إلهية. "من عرق وجهك سوف تأكل الخبز". وكان العمل اليدوي، والكثير من العمل الذهني، من واجبات العبيد.

وفي روما، كان علماء قواعد اللغة، والرياضيات، من العبيد، وفيما بعد، أراد النظريون أن يقسموا الرجال طبقتين: كادحين وأعيانًا، أما الأولى فقوامها من يكسبون أجر أعمالهم، وأما الثانية فقوامها من يعيشون على دخلهم أو أرباحهم، ولكنها كانت تفرقة غامضة.

فمدير المصرف الذي يدر عليه منصبه مائتين ألف من الفرنكات في السنة، كان يعتبر حينذاك من أبناء الطبقة الكادحة، في حين أن صاحب الحانوت الصغير، أو صاحب الملكية الزراعية المحدودة، الذي لا يكاد دخله يبلغ عشرة آلاف من الفرنكات سنويًا، كان يعتبر من الأعيان.

ولقد اقترح "آلين" تعريفًا أعتقد أنه إذا لم يكن صحيحًا كل الصحة، فهو على الأقل أقرب إلى الكمال، فهو يطلق اسم الكادحين على من يعيشون من عملهم، يدويًا كان أو عقليًا، ويطلق اسم الأعيان على كل من يعيشون من كلامهم.

فالمحامون، والنواب الاشتراكيون، والمتسولون، يسميهم الأعيان، لأنهم يكسبون رزقهم عن طريق إقناع الآخرين أن يدفعوا لهم المال، والبناءون والصناع والمهندسون والكتاب المجيدون، كادحون،

لأنهم ليست بهم حاجة إلى إقناع، فإن جودة عملهم كافية لأن تروج سوقه، وصاحب المصنع الكبير من الكادحين أيضًا إذا كان يكسب أمواله من طريق معرفته الفنية وحدها، ولكنه يكون من الأعيان إذا كان نجاحه راجعًا إلى صداقاته وعلاقاته مع كبار رجال الأعمال.

ويقول "آلين" إن لدينا لهذا السبب، حالتين ذهنيتين مختلفتين أشد الاختلاف. فالكادح الذي يعمل على الطبيعة ويقوم بتحويلها، ليست به حاجة إلى لطف الطباع، ولكنه محتاج إلى المقدرة على التغلب، فهو لهذا خشن الطبع يزدري التأدب، وهو يرتدي من الملابس ما يتفق مع مقتضيات عمله، دون نظر إلى اعتبارات الأزياء على الإطلاق.

والرجل الذي ينتمي إلى طبقة الأعيان في رأي "آلين"، رقيق يمتاز بالحساسية، يحاول أن يوجه العبارات السارة إلى أولئك الذين هم مصدر رزقه: كالناخبين، أو جمهرة المستمعين، أو الأصدقاء، وملابسه ينبغي ألا تدعو إلى النفور.

وفي قصيدة رائعة من عيون الشعر، يصور "كبلنج" العلاقة البعيدة الغريبة، بين أبناء "مارثا"، الذين يصنعون الأشياء، وينشئون الجسور، ويرصفون الطرق، ويقودون الطائرات ويسوقون القطارات.. وبين أبناء "ماري"، الذين ينامون على سرر وثيرة في "عربات النوم" الفاخرة، وتسهر على راحتهم جهود الآخرين.

وكل تقسيم للكائنات البشرية إلى مجموعتين، أو بالأحرى طبقتين، هو مصدر خطر، كما أنه في مجموعه شيء مفتعل، فالشاب من طبقة الأعيان قد يكون في ميوله وسلوكه من طبقة الكادحين، ولا يجد سعادته أبدًا إذا ابتعد عن المحركات الآلية، كما أن مهندسًا ميكانيكيًا قد يكون واحدًا من أبناء "ماري" إذا سافر، حيث يحل محله في مصنعه واحد من أبناء "مارثا".

ومهما يكن من شيء، فلا شك في أن البعض ليسوا بهم حاجة إلى مزاولة أشق الأعمال، في حين أنها ضرورة يومية لا غنى عنها للبعض الآخر من الناس. وعلى هذا النحو تنشأ الكراهية العميقة بين هؤلاء وهؤلاء، فهل يمكن التغلب على شر قديم قدم الجنس البشري؟ لقد فشلت الثورات في ذلك دائمًا، وسوف يتوالى فشلها دون استثناء، لأنها لا تضع موضع الاعتبار، لا الرجل الخالد، ولا أصدق النظريات جميعًا: نظرية الخطيئة الأولى.

غير أنه من المحتمل أن يسفر تقدم صناعة الآلات، بعد أن جعل حياة الرجل العامل أكثر إرهاقًا وأشد إملالاً،عن التقريب بينها وبين حياة طبقة الأعيان. ولقد شهدنا فعلاً في غضون مائة من السنين، كيف انخفض عدد ساعات العمل اللازمة للإدارة العامة للأعمال بمقدار الثلث.

والعمل الذي يتطلب مقدارًا هائلاً من القوة، سوف يعهد به إلى الآلة بصورة متزايدة، صحيح أن الآلات قد حلت محل العمال المدربين الأذكياء، ولكن هذه فترة انتقال وحسب، استعيض فيها عن اليد العاملة بنظام "السير" الآلي، وفي يوم من الأيام، سوف يتولى الإنسان الآلي أمر الإشراف على "سير" الآلة، أما العامل الذي سيكون دوره مقصورًا على مجرد المراقبة، فإنه سوف يصبح مهندسًا.

وأهم ما ينبغي تذكره فيما يتصل بالعمل اليدوي هو: مهما يكن من بساطة العمل أو تعقيده، فإنه يمكن أن يؤدي أداء جيدًا أو رديئًا، فهناك طرق بارعة وأخرى عقيمة لحفر خندق، كما أن هنالك طرقًا بارعة وأخرى سقيمة، لتحضير محاضرة.

والكتابة على الآلة الكاتبة قد تؤدي عملاً ممتازًا أو عملاً لا بأس به وحسب. والمدار في ذلك على طريقتها، وعلى اهتمامها بعملية الكتابة على الآلة، وعلى المسافات بين العناوين، وحجم الصفحات، ومدى عنايتها بإعادة القراءة، وهي إذ تحاول أن تجعل عملها أحسن قليلاً مما هو مطلوب منها، تصبح فنانة على الفور، وتجد أنها تكافأ على جهودها الاختيارية بشعور دائم بالرضا العميق، فهي لم تؤد ذلك العمل من أخل مخدوم، بل من أجل احترامها لنفسها، ومن أجل لذاتها هي، ولهذا فقد قامت بأدائه بمحض حريتها.

ولذة العمل قد تصير كاملة إلى درجة أنها تحتل مكان كل لذة أخرى، وفي المحاولات التي أبذلها كي أتصور الجنة، لا تخطر على بالي أية صورة لمكان فيه أرواح مجنحة لا عمل لها سوى أن تعزف ألحانها وتغني، بل صورة غرفة مكتب أعمل فيها بغير انقطاع، في كتابة قصة رائعة لا نهاية لها، بالقوة الدائبة والمثابرة اللتين قلما قدرت عليهما وأنا على وجه الأرض.

وجنة البستاني حديقته، والنجار محل عمله.

ومن أروع الأمثلة على مزج العمل اليدوي بالعمل العقلي، مثل ربة المنزل حين يصح عزمها على أداء واجباتها، والمرأة التي تحسن تدبير منزلها ملكة له، وراعية في آن، فهي الشخص الذي يجعل العمل ممكنًا بالنسبة إلى زوجها وإلى أطفالها، وهي تحميهم من القلق، وتطعمهم وتعنى بهم، وهي وزيرة المالية، وبفضلها تتزن ميزانية البيت، وهي وزيرة الفنون الجميلة، وإليها يرجع الفضل إن كان في البيت شيء من الجمال، وهي وزيرة التربية العائلية، فهي المسئولة عن التحاق الفتى بالمدرسة والجامعة، وعن براعة الفتاة وثقافتها.

ويجب أن يكون فخار المرأة بنجاحها في جعل بيتها عالمًا صغيرًا ممتازًا، موازيًا لفخار رجل الدولة بنجاحه في تنظيم شئون دولته.

ولقد كان المارشال "ليوتي" على حق حين قال: إنه لا عبرة بمسائل المقاييس.

فالشيء الممتاز، ممتاز، بغض النظر عن أبعاده، ولا راحة للنساء، إلا في العائلات ذات الثراء العريض، وأجازة يومين من المتجر أو المصنع، معناها قضاء يومين في التنظيف، والغسل، والإصلاح، والعناية بالأطفال.

وهنالك دائمًا أشياء يجب التعجيل بعملها، ويجب أن يضاف إلى تلك الأشياء ما تبذله من الجهود لكيلا تبدو دميمة، وكي تحسن ارتداء ملابسها، وكي يستنير عقلها، وعمل المرأة، إن هي أتقنته، لا يترك سوى القليل من لحظات الفراغ، غير أن مكافآته ناجزة.

وما أعجب أن يرى الإنسان كيف أن المرأة بقليل من المال وكثير من الشجاعة، تستطيع أن تحيل الكوخ الحقير بيتًا جميلاً تحلو الحياة فيه! وهنا يلتقي فن العمل وفن الحب.

***

وهناك فن للتعليم بغير شك، وهو فن محفوف بالصعاب، ويتطلب تجربة طويلة، ونحن ندرك هذا في اللحظة التي نحاول فيها السيطرة على سلوك أطفالنا. ولا يكون الوالد معلمًا مجيدًا إلا في النادر، فهو قد يظن أنه يعلم الأشياء ثم يكتشف ضآلة ما يعلمه، وقد يعلم ولكنه يسيء الشرح، وقد يكون قاسيًا ضيق الصدر لأن التعليم يملأ نفسه ضجرًا، وقد يكون مسرف الحنان إلى درجة تنذر بالخطر، لأنه

يحب أطفاله حبًا بالغًا، ومن واجبنا أن نتعلم قواعد فن التعليم من المعلمين المحترفين الذين نجحوا في فنهم.

ولا يمكن أن يكون هناك تعليم بغير نظام، فيجب أن يتعلم التلميذ أولاً كيف يعمل، وتدريب الإرادة يجب أن يسبق تدريب العقل، وهذا هو السر في أن التعليم المنزلي لا يقدر له أبدًا أن يحرز نجاحًا باهرًا، فالاعتذارات تقبل بأكثر مما ينبغي من السهولة: الطفل يشكو صداعًا، إنه لم ينم جيدًا، هناك حفل في مكان ما.

أما المدرسة فإنها لا تسامح، وهذه هي ميزتها، وأنا أميل إلى نظام المدرسة الداخلية، مع أن له بعض العيوب الجدية، فهو قد ينجم عنه انحراف الخلق، كما أنه نظام قاس على الدوام، ولكنه يصنع رجالاً، وهو يرغم الأولاد على أن يجدوا أماكنهم بين الجماعة، أما في محيط الأسرة فإنهم يجدون أماكنهم معدة لهم، وهذا أسهل مما ينبغي لهم، وفي حالات الضرورة القصوى، وإذا كان الوالدان يتصفان بالحكمة، تكون المدارس النهارية مرضية حتى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة لأن إطلاق الحرية للشبان بين السابعة عشرة والعشرين في مدينة كبيرة، أمر ينطوي على أشد المخاطر.

والتسلية ليست تعليمًا، فالهدف من التعليم هو إنشاء هيكل من المعرفة في ذهن الطفل، والاقتراب بالطفل تدريجًا من مستوى الذكاء المتوسط بقدر الإمكان. وفيما بعد ذلك من مراحل الحياة، تتولى

الحقائق المكتسبة من التجارب، والمكتشفات الجديدة، إضافة نفسها إلى ذلك الهيكل.

ومن الخطأ أن يحاول أحد قلب هذا النظام الطبيعي، والتوسل إلى عقل الطفل عن طريق استهوائه بمشاهد الحياة العصرية، والتعليم بوساطة الصور والراديو وأفلام السينما عديم الأثر في حد ذاته، ولا ينبغي الالتجاء إلى هذه الوسائل، إلا إذا احتوت– وهذا ممكن– بعض الجهود أو التحمس بصفة خاصة. فما يتعلم بغير عناء سرعان ما ينسى، ولنفس السبب نجد أن التلقين الشفاهي الذي لا يتطلب مساهمة شخصية من التلميذ، يكاد يكون غير ذي جدوى في كل الأحيان، والإصغاء ليس عملاً يؤديه الإنسان، وهذا بطبيعة الحال لا ينطبق على تعليم اللغات الحية.

وللتعليم الأولي أكبر نصيب من الأهمية، وغير الوالدين كثيرًا ما لا يعلقون أهمية كافية على الدراسات الأولية، والواحد منهم يقول في ذلك: إن ابني لا يعرف كيف يعمل، ولكنه لا يزال صغير السن.

والواقع أن كل شيء يتوقف على موضوعات قليلة يجاد تلقينها منذ البداية. والإلمام التام بالقراءة والكتابة والحساب، ميزة عظمى، ومعظم الناس لا توجد لديهم هذه المعرفة الأولية، وكثيرون من الرجال يقرأون قراءة رديئة يتجشمون فيها عناء. والكلمات التي لا توحي إليهم فور قراءتها المعاني التي تمثلها، والرياضيات إما أن تعتبر صعبة جدًا وإما

سهلة جدًا، وفقًا للطريقة التي تم بها تلقين مبادئها، والمعرفة الناقصة بأولى نظريات الهندسة أو مبادئ علم الجبر، تجعل من المستحيل فهم ما يجيء بعدها.

وتعليم القليل من الأشياء جيدًا، خير من تعليم الكثير منها تعليمًا ناقصًا، والمنهج الدراسي إذا اكتظ بالمواد أكثر مما ينبغي، أصبح لا فائدة منه، وليس هدف التعليم صنع فنيين متعلمين، بل صنع عقول عاملة جيدة، ومن أجل هذا لا غنى عن نظام خاص.

قال نابليون: إن تعليم اللغة اللاتينية والهندسة يأتي في المكان الأول، أضف إلى ذلك قليلاً من التاريخ، والكثير من اللغة القومية بطبيعة الحال، وهذا يكفي.

وفي التاريخ والعلوم، ليس من الضروري أن يلم التلميذ بأحدث المكتشفات والنظريات، ولكن يجب أن يفهم ما هي الأسباب التاريخية والعلمية، والأعمال البسيطة نسبيًا، التي قام بها العلماء السابقون في الزمن، أكثر وضوحًا وفائدة له من الدقة المتناهية التي يتوخاها العلماء الطبيعيون المحدثون.

قال "آلين": إن التعليم يجب أن يكون وئيد الخطى عن عمد وسبق إصرار. وهذه العبارة حافلة بالمعاني بالنسبة إلى بعض رجال التعليم العصريين، الذين يميلون ميلاً محفوفًا بالمخاطر إلى إهمال القديم

من ثقافة الأجناس، التي هي بمثابة أساس ضروري في التعليم بأسره، ويميلون إلى الإعلاء من قيمة مبادئ وأحداث لم يطل بها العهد.

والمعلومات ليست ثقافة، والشاب محتاج إلى الثقافة أكثر جدًا من حاجته إلى المعلومات.

***

هل يمكن أن نسمي القراءة عملاً؟.

إن "فاليري لاربو" يقول: إنها رذيلة لا يعاقبون عليها، وعلى العكس من ذلك، يقول "ديكارت" إنها محادثة مع أشهر أهل الماضي، وكلاهما على صواب.

فالقراءة تصبح رذيلة حين يلجأ إليها الإنسان بوصف كونها نوعًا من أنواع المخدر، يحرره من دنيا الواقع، وينتقل به إلى دنيا الخيال، والمصابون بهذه الرذيلة يقرأون باستمرار، وكل شيء في نظرهم حسن، والواحد منهم قد يفتح مجلدًا من موسوعة ويقرأ فصلاً عن فن التصوير بالألوان المائية، بنفس الشراهة التي يقرأ بها فصلاً عن الأسلحة النارية، فإذا هو ترك وحده في غرفة، فسرعان ما يتوجه إلى حيث توجد كومة من الصحف والمجلات، ويستغرق في قراءة أي شيء بدلاً من أن يترك لأفكاره هنيهة.

وهذا النوع من الناس لا ينشد أفكارًا ولا حقائق، بل ينشد مجرد سلسلة لا نهاية لها من الكلمات تحول بينه وبين مواجهة العالم، أو نفسه، وهم لا يخرجون من القراءة إلا بأقل القليل، وهم لا ينصبون ميزانًا للقيم، على أساس المصادر المختلفة للمعلومات، والقراءة على نحو ما يمارسونها، عمل سلبي، فهم ينتقلون من صفحة إلى أخرى، دون تعقل ولا تدبر، ودون أن يفردوا للصفحات في عقولهم فراغًا، ودون استيعاب لها على أي صورة.

والقراءة بقصد المتعة، تقتضي بذل مزيد من الجهد، فقارئ القصة إنما يقرأ ليستمتع بالقراءة على أمل أن يعثر على الجمال، أو يجد إثارة أو اغتباطًا لمشاعره الخاصة، أو يجد المغامرات التي ضنت عليه بمثلها الحياة..

وثمة قارئ آخر قد يعمد إلى القراءة عساه أن يعثر لأحد الشعراء أو دعاة الأخلاق على عبارة يراها أفصح تعبيرًا عن إحساساته، وفضلاً عن هذا وذاك، يوجد من يقرأ دون تركيز على حقيقة معينة من التاريخ، ملتمسًا متعة التحقق من واقع القرون المتعاقبة، من تشابه الأحاسيس الإنسانية، وهذا النوع من القراءة بقصد المتعة، ملحوظ الفائدة.

وأخيرًا، فالقراءة على سبيل العمل نوع يعمد إليه الرجل الذي يلتمس معرفة معينة يحتاج إليها لكي يدعم أو يستكمل في ذهنه هيكلاً

يتصور مدى ضخامته. والقراءة على سبيل العمل يجب أن تتابعها اليد وبين أصابعها القلم، إلا إذا كان القارئ يتمتع بذاكرة عجيبة القوة، فالبحث مرتين عن عبارة يريد الإنسان استخدامها مضيعة لوقت ثمين.

هل لي أن أذكر حالتي الشخصية؟ إنني حين أقرأ مجلدًا من المؤلفات التاريخية أو أي كتاب جدي من أي نوع، أعمد دائمًا إلى تسجيل مذكرات عن الفصول الهامة أشير فيها إلى أرقام الصفحات، وبهذه الطريقة أستطيع العثور عليها دون الحاجة إلى البحث عنها في الكتاب بأكمله.

***

وللقراءة كسائر الأعمال، قواعدها، والمعرفة التامة بكتب قلائل، وموضوعات قليلة، أكبر قيمة من المعرفة السطحية بعدد كبير من الكتب والموضوعات، فالجوانب الدقيقة في كل قطعة مكتوبة، يندر أن تبدو واضحة في قراءتها أول مرة.

وعلى المرء في زمن شبابه أن يبحث بين الكتب كما يبحث في الدنيا عن الأصدقاء،وعندما يوجد هؤلاء الأصدقاء، ويقع عليهم الاختيار ويتم توثيق الصلة بهم، يجب على المرء أن يعكف على ما كتبوا، وتوطيد الصلة مع "مونتاني"، أو "ريتس"، أو "بلزاك"، أو "بروست"، يكفي لإغناء حياة الإنسان كلها.

وفي القراءة، يجب على الواحد منا أن يركز معظم اهتمامه على العظماء من كتاب الماضي، ولا شك في أنه من الطبيعي والضروري أن يحيط علمًا بآثار الكتاب المعاصرين، فمن المحتمل أن نجد لنا أصدقاء من بينهم، لهم ما لنا من المخاوف والمطالب، على أن علينا ألا نغرق أنفسنا في بحر لجي من الكتب التي لا يميزها شيء، فالروائع عديدة لا يستطيع أحد أن يلم بها جميعًا، ولنضع ثقتنا في حسن اختيار الأجيال الماضية.

والرجل قد يخطئ، والجيل بأسره قد يخطئ أيضًا، ولكن الإنسانية لا ترتكب شيئًا من الأخطاء، ولا شك في أن هوميروس، وشكسبير، وموليير، يستحقون ما أحرزوه من الشهرة، ونحن نمنحهم بعض التفضيل على الكتاب الذين لم يصمدوا بعد لتجربة الزمن.

ومن واجبنا أن نحسن اختيار غذائنا الأدبي، وكل ذهن يتطلب غذاءه الخاص، فلنتعلم من هم أصفياؤنا من المؤلفين، وسيكونون مؤلفين آخرين غير من يصطفيهم أصدقاؤنا، ففي الأدب، كما في الحب، يدهشنا ما يقع عليه اختيار غيرنا، فلنتشبث بما يناسبنا لأننا أعدل الناس حكمًا على ذلك.

ويجب علينا، بقدر المستطاع، أن تكون قراءتنا في مثل ذلك الجو من الهدوء والاحترام، الذي يحيط بحفل موسيقي رائع، أو حفل كريم.

وليست القراءة مجرد أن يمر الإنسان بصفحة كتاب، وينهض للرد على التليفون، ويلتقط أي كتاب وذهنه منصرف إلى مكان آخر، ويتركه حتى اليوم التالي، بل إن القارئ الحقيقي ليستمتع بالليالي الطوال وهو وحيد، من أجل مؤلف يستأثر بإعجابه، يعكف على كتاب له بعد ظهر يوم الأحد في الشتاء، وهو يحمد لرحلة بالقطار أنها أتاحت له فرصة قراءة قصة كاملة من تأليف "بلزاك"، أو "ستندال"، أو غيرهما، وهو يستخلص من المتعة الخالصة من إعادته قراءة عبارة يؤثرها بحبه، مثلما يستخلصه عاشق الموسيقى من سماع أجمل ألحان "سترافنسكي"، في "بتروشكا".

ولتجعل نفسك أهلاً لقراءة الكتب العظيمة، لأن استمتاعك بها سوف يتوقف كثيرًا على ما تضيفه عليها، وتصوير المشاعر لا يعني سوى أولئك الذين جربوها، أو الشبان الذين يرقبون ازدهار مواهبهم في أمل وتربص.

وليس في الدنيا ما هو أكثر تحريكًا للعواطف من منظر شاب لم يكن ليستطيع أن يحتمل سوى قصص المغامرات في العام الماضي، ثم وقع فجأة في حب رواية "آنا كارنينا" لأنه أصبح يعرف الآن ما هي مباهج الحب وآلامه.

والعظماء من الرجال العاملين يقرأون "كبلنج"، والعظماء من الساسة يقرأون "تاسيتس"، أو "ريتس". وما كان أمتع رؤية المارشال

"ليوتي" مستغرقًا في قراءة بعض آثار شكسبير يوم انتزعت منه مراكش، وفن القراءة هو في معظمه اكتساب فهم أفضل للحياة، مما يلاقيه منها في بطون الكتب.

***

وعمل الفنان يشبه عمل الصانع الماهر ولا يشبهه في آن واحد، وكلاهما لا غنى له عن البراعة الفنية التي لا تكتسب إلا بدراسة الأساتذة الأعلام بعناية، وبالممارسة الصابرة.

والموهبة ضرورية بطبيعة الحال (موزار، وبيرون، وهيجو، وشاتوبريان)، غير أنه يجب إدراك أن الموهبة إذا أهملت تنميتها، ظلت عقيمة.

ولقد رأيت "فاليري" وهو يعمل، ودرست ما سطره "بروست" بقلمه: بحث تتجلى فيه المثابرة، والتنقيح المستمر، وجهود في سبيل اكتشاف الكلمة التي تعبر عن الفكرة أدق التعبير، أو الكلمة الوحيدة الصالحة للاستعمال في موضعها، لأسباب خفية مرجعها إلى المساوقة والانسجام.

وتدوين التوزيع الموسيقي لفرقة كاملة، يقتضي- إلا في حالة الرجل العبقري- تعليمًا موسيقيًا معقدًا لا يمكن اكتسابه إلا بعد جهد

طويل مضن، وفي أرفع الفنون وأكثرها أصالة، يوجد شيء من الرياضة البدنية والتدريب.

ومن الطبيعي أن الفنان يكتسب آخر الأمر الخبرة والدقة في أسلوبه ولمساته، على نحو يستطيع معه- عندما يعرف على وجه التحديد ما هو الشيء الذي يربد أداءه- أن يؤديه على وجه السرعة بنجاح تام، وهذا يبدو لغير العارفين إعجازًا.

إن "ويسار" لم يهتم كثيرًا حين لاموه على رسم صورة في ساعة واحدة، ولقد استطاع أن يرسمها في ساعة واحدة لأنه قضى كل حياته في الرسم.

ولكن اكتساب تلك البراعة الفنية التي لا غنى عنها للصانع الماهر، ليست سوى جزء واحد من عمل الفنان.

يقول فاليري إن القصيدة لا تكتب بالعواطف، بل تكتب بالكلمات، والواقع أنه لا بد من كليهما، وحين تكون المسألة مسألة فن، يجب علينا التراجع إلى فكرة النظام والشكل، المفروضين على الطبيعة، فالشكل ضروري، ولكن الشكل الممتاز الذي لا يحتوي على شيء، لا يحرك مشاعرنا.

فمقطوعات "بيتهوفن" الموسيقية تتمتع بجمال الشكل، ولكن روح "بيتهوفن" قد نفذت إليها: أفكاره، وآلامه، وغبطته، ولقد وصل

"راسين" إلى الكمال من حيث الشكل، ولكن هذا لم يكن ليعني شيئًا، لولا عواطف "راسين"!

وعلى هذا فإن الفنان– إلى جانب جهوده الفنية التي تختلف عن جهود الصانع– يجب أن يعيش، أو بالأحرى قد عاش. "والشعر انفعالات تستدعيها الذاكرة في هدوء".

وهكذا نرى أن حياة الفنان يجب أن تكون من ثلاثة أجزاء على الأقل: جزء حسي وعاطفي يستطيع وحده دون سواه أن يحيط الشاعر علمًا بحقيقة الناس، وجزء تفكيري وخيالي (الشاعر مخلوق مجتر يجب ألا يكف أبدًا عن اجترار ماضيه كي يحيله مادة فنية). وأخيرًا الجزء الفني الواقعي، وهذا الأخير قد يكون قصيرًا.

ولقد عرفت من عظماء الكتاب من يؤلف لمدة ساعتين فقط في كل يوم. ولكن تأملاته، وقراءاته، وأحاديثه، صور أخرى من العمل ذات أهمية مماثلة، يقول "جوته":"إن الاستجمام أعظم ما يحققه العمل".

هل ينبغي أن يعيش الفنان في داخل العالم أو في خارجه؟.

إنني أعتقد أن هذا سؤال لا جواب عليه، والعزلة التامة، التي تعد أمرًا طبيعيًا بالنسبة للرهبان، مصدر أذى بالنسبة إلى معظم الفنانين، وهم يعملون على نحو يثير الإعجاب ما دامت المواد في متناول أيديهم.

ولقد اعتصم "بروست" بغرفته ذات الجدران المبطنة بطبقة من الفلين، وبدأ يبحث عن الماضي، ولو بدا له أن الاقتداء بأسلوب حياته– ولو كان لنا مثل قوة ذاكرته– فلا شك في أن كلاً منا كان خليقًا بأن يعثر في حياته الماضية على مادة لا نهاية لها، ولكننا لا نستطيع أن نعيد أداء العمل الذي قام به "بروست"، فمعظمنا يحتاج إلى فترات عمل متقطعة تتخللها فترات استجمام.

وثمة نصيحة أخرى يسديها "جوته" حيث يقول: "إن الوحدة شيء مدهش إذا كان الإنسان راضيًا عن نفسه، وكانت هناك مهمة معينة محددة يجب إنجازها". ومهمتنا يجب أن تكون معينة محددة، قبل أن نلتمس الوحدة التي ننجزها فيها.

***

وفي الاستراحة جزء من فن العمل، والرجل المتعب الشديد الحاجة إلى الراحة، لا يمكنه أن يؤدي أي عمل جيد، ونحن جميعًا نعرف جيدًا ما هي تلك الأصباح المكدرة التي تعقب ليالي الأرق، عندما ترفض أذهاننا أن تؤدي عملها. وفي مثل تلك الحالة، لا تكون ثمة جدوى من محاولة تطبيق مبادئ فن العمل. فهذه المبادئ تفترض أن يكون الذهن والبدن معًا بخير حال.

والجهاز البشري لا يستطيع أن يعيش إلا بالتناوب بين العمل والراحة، ونظام عطلة آخر الأسبوع، المتبع في بعض الدول الغربية، نظام

حكيم فيما يعني الصحة الاجتماعية، ولقد رأيت أعضاء في الحكومة الفرنسية نال منهم الإعياء إلى درجة العجز عن إبقاء عيونهم مفتوحة، وعلى هذا كان عليهم أن يتخذوا قرارات يتوقف عليها سلام القارة الأوروبية.

وحين يكون التعب ناتجًا عن مجهود بدني، تكون الراحة فنًا غير عسير: يلقي فيه الرجل بجسمه على الفراش، وينام ملء جفونه.

أما إذا كان التعب ناتجًا عن مجهود عقلي، فإن النوم قد يتعذر، حيث تكون الحاجة إليه ماسة إلى أبعد حد، وفي مثل تلك الحالة يكون ثمة ما يقال له "فن النوم". وهذه بعض أسراره: لكي ينام الإنسان، يجب أن يؤمن بمقدرته على النوم: والعقاقير المنومة– إذا استعملت بمقادير صغيرة– تنحصر جدواها في تعزيز ذلك الإيحاء الذاتي.

ويجب على الإنسان أن يرقد في وضع يقلل إحساسه بجسده إلى الحد الأدنى، في ظلام دامس، وفي درجة حرارة متوسطة، وعليه أن ينسى كل أفكار الحاضر، لأنها تسبب الأرق، ويجب إرغام العقل– إن أمكن ذلك– على التفكير في الماضي البعيد، الذي لا يوجد فيه شيء من أسباب انزعاجنا: كزمن الطفولة، وعهد المراهقة، فلتفكر في أشياء حدثت منذ عهد بعيد، وحاول أن تتخيلها بين أجفانك المطبقة، فلن تلبث شيئًا فشيئًا أن تدخل دنيا ساكنة وادعة، تستطيع فيها أن تنام.

وثمة طريقة أخرى، تختلف كثيرًا عما تقدم، ولكنها عظيمة الأثر في كثير من الأحيان، وهي اعتبار الأرق شيئًا لا أهمية له، والتفكير فيه بوصف كونه حادثًا سعيدًا، وتناول كتاب أو شيء آخر من أنواع التسلية، والانتظار دون تحديد وقت معين، إلى أن تجيء اللحظة التي يتمخض فيها التعب البدني عن النوم.

***

ويكون من العسير في أحيان كثيرة ملء فراغ رجل صحيح معافى موفور النشاط، فهو يشعر بالملل حين لا يكون مشغولاً بعمله، فيذرع الغرفة كالحيوان السجين في قفص، ويغرق، بصورة طبيعية، في رذائل هي مجرد وسيلة إلى أن يحظى من جسمه بإحساسات عديدة حية، يملأ بها ساعات فراغه، ولقد كان من نتائج حضارة العصر الحديث، بمخترعاتها وآلاتها، أن زاد عدد تلك الساعات، ومن واجبنا أن نتعلم كيف نفيد منها، وإليك بضع طرق:

إن بعض الأعمال التي يعتبرها الغير عملاً، نعتبرها نحن رياضة: فالتمثيل، والعناية بالحديقة، وصيد السمك والحيوان، والتجارة، هي أعمال بالنسبة إلى هواتها، حتى ولو أقبل الهاوي على مزاولتها بأقصى ما يستطيع من الاهتمام، ذلك أن استخدام العضلات والأعصاب المختلفة، هو في ذاته راحة، ثم إن الهاوي يشعر بنفسه وقد تحرر من صراعه مع

العامل الخارجي، وصار له مطلق الحرية في أن يتوقف عن عمل ما هو بصدده في أي وقت يشاء، وفي هذا راحة له من عناء الالتزام.

ومزاولة الألعاب هي بدورها لون أكثر تحررًا من ألوان النشاط، فليست هناك مشاكل حقيقية تتطلب الحل، بل مجرد مجموعة من القواعد الاختيارية، اتفق المشتركون على مراعاتها.

وليس لاعب الشطرنج، ولا لاعب "البريدج" في صراع مع العالم، بل مع المهارة البحتة، وهذا يسفر عن شيئين يساعدان على توفير الراحة: فاللاعبون يعرفون أن خسارة مباراة، أمر غير عظيم الأهمية، ويعرفون أيضًا أن تدخل الحظ محدود.

وينبغي الإشارة هنا إلى ما للرياضة من فوائد خلقية فكل لاعب يفرض على نفسه احترام القواعد، لأن من الألعاب لا غنى فيها عن القواعد، وحين يكتسب شيئًا بأسره مثل هذه القاعدة ويتوارثها جيلاً بعد جيل، يكون خليقًا بأن يسفر عن وجود مواطنين يحترمون القانون.

"إنه لا يزاول اللعبة حقًا"، هكذا يقول الإنجليز الرجل غير الشريف في الحب، أو التجارة، أو السياسة، والحضارة هي مراعاة الرجل لقواعد مقبولة ومرعية الآخرين، وبعض هذه القواعد اختياري على غرار قوة التنس أو الجولف، ولكنها تجعل من المجاملة بديلاً الخوف، ومن الرياضة بديلاً عن الحرب لأنها تمكننا أن نتكهن بانفعالات أولئك الذين نعيش معهم.

ونحن في المسرح نفعل الأشياء بطريق الإنابة وحسب حين نجلس، دون حراك، ونراقب ما يفعله الآخرون وهذا يثير اهتمامانا لأنه "ليس بين الأشياء الإنسانية ما هو غريب بالنسبة إلينا". فالأحاسيس والعواطف التي تصورها المسرحيات الهزلية أو الجدية، إنما هي عواطفنا وأحاسيسنا، ونحن نعيشها مع المؤلف، فلماذا نجد راحة في ذلك؟.

السبب هو أننا في ميدان الفن، غير مطالبين بأي قرارات، فالمأساة التي تثير اهتمامنا، والتي يمكن أن تكون مأساتنا نحن، إنما تقع أحداثها في عالم خيالي ونحن نعلم ذلك.

على أن المسرحية تخرج بجمهرة نظارتها عن تفاهة الحياة، وتدفع بهم إلى ما فيها من مشاعر نبيلة عميقة، وعلى هذا النحو تستطيع أن تسمو بهم وترفع أقدارهم إلى حد بعيد، على أن الهدنة الفعالة في حرب حقيقية، خليقة بأن تكون شيئًا بغيضًا لو قدر للمسرحية أن تحل محل الحياة التي يعيشها الناس، كما أن السينما والراديو، إذا هما استخدما بقصد واعتدال، فإنهما يعداننا للاضطلاع بالمهام الجديدة، وذلك بسبب شغلنا عن أفكارنا، أما إذا نحن أسرفنا في الإقبال عليهما، فإنهما ينقلان إلينا عدوى الفناء.

ومن بواعث الراحة أن يرحل الإنسان عن بلده، لا لأن السفر لا ينطوي على أعمال يومية صعبة مختلفة، ولكن لأنه يريحنا من مسئولياتنا، وإذا استثنينا حالة الأشخاص الرسميين، فإذا المسافر الآن يعيش لنفسه

فقط، ولم يعد لديه الشعور الدائم بالمسئولية، ونحن جميعًا ، بين الحين والحين، نحتاج إلى قبس من الحرية والتجديد، يبدو النظام الرتيب بعده وبالقياس إليه، وقد ارتدى ثوبًا قشيبًا من البهجة.

ومهما يكن من شيء فإن فترات الراحة يجب أن تكون وجيزة، ومع هذا فإن الإنسان ليعجب حين يعلم مدى ما نستعيده من نشاطنا الذهني بفضل السفر أيامًا معدودات.

والرجل المحب لعمله حقًا يعود إليه بعد الراحة البالغة القصر، وهو يشعر بنوع غريب من البهجة، وعندما ينهمك تمامًا في عمله، تبدو له نهاية العمل كأنها نهاية الحياة، فهل يكف عن العمل قط؟.

إن الرجل من هذا النوع يحمل مشكلاته معه، وحين يكون الكاتب على سفر، يروح يقلب في ذهنه مرات ومرات، عبارة معينة لم يحسن اختيار ألفاظها. وإذا هو استيقظ من نومه في الليل، وثبت في ذهنه سلسلة من العبارات والخطب الخيالية.

وصاحب المصنع الذي يقضي إجازته على شاطئ من شواطئ البحر، قد يتناول قلمه فجأة ويحسب على الورق نفقات بعض ما ينتجه مصنعه، فإذا كان قريبًا من مكان المصنع عاد إليه صباح يوم السبت، مع أن رجاله غائبين عنه، وأخذ يتجول بين قاعات العمل الخيالية، يحلم بإدخال التعديلات، وزيادة الإنتاج، وتحسين وسائله.

والفلاح يمشي بين حقوله في أيام الحداد، ويلاحظ أنه ليس هناك حديقة أشجار أو حوض معشب لم يلعب دوره في حياة عمله، وتأثير المطر الأخير على حاصلاته الزراعية، ويتابع بعينه انعطاف الطرق بين الحقول، وهو يصعد المنحدرات أو يهبط إلى الوديان التي ترويها مياه الغدير... كل شيء ينطق بفصاحة بجهوده الماضية، ويشحذ همته ليبذل مزيدًا من الجهود.

وتبغيض العمل في نفوس العمال خطأ جسيم في حق المجتمع الإنساني، فماذا يمكن أن يكون أقرب إلى الطبيعة من حبهم للأعمال التي يؤدونها؟.

"إن العمل وقاية من الملل، والرذيلة، والفقر" وهو علاج كل الشرور المتخيلة، "فليبارك الله العمل". هذا ما كان يردده على سمعي رئيسي الضابط الإنجليزي في حرب سنة ١٩١٤، وهو دعاء مستجاب على الدوام. ويقول شيللي: "إن غبطة الروح مبعثها العمل".

والعمل بنشاط ينقذ الرجل من نفسه، والكسل يجعله فريسة للأسف الذي لا ينفع، وللخيالات المنطوية على المخاطر، وللحسد، والبغضاء، وكذلك الحال في فن الحكم، فالقاعدة الأولى فيه هو أن يظل الشعب قائمًا بعمله، فمن المحال أن يحكم أحد شعبًا قد استولى عليه الملل، أما الشعب المشغول بعمل يؤمن بأنه نافع يؤديه بمحض رغبته، فهو شعب سعيد حقًا.

فن الزعامة

لا يستطيع رجال أن يضطلعوا، على نحو مجد، ويؤدوا على الوجه الأكمل، أي مهمة مشتركة، إلا إذا كان واحد من بينهم يقوم باستمرار بتوجيه نشاط الجميع إلى الغاية المنشودة، وهذا لا يحتاج إلى دليل في حالة الأعمال التي لا بد من أن تتبع نهجًا معينًا.

فمن العبث أن يبذل جماعة من الرجال غاية جهودهم في إرساء قضبان خط حديدي، أو التجديف في زورق، ما لم يكن هناك رئيس يتولى تنظيم حركاتهم. وكل عمل جماعي لا يكون فيه توجيه، سرعان ما يسوده الارتباك والفوضى.

وكل أولئك الذين خاضوا غمار إحدى المعارك، يعرفون مدى ضرورة وجود شخص ما يتولى القيادة، وما ينطبق على الجيش، ينطبق على الميناء الجوي، والمصنع، وإدارة الصحيفة السيارة، والوطن بأسره، وكلما كان مطلوبًا إلى الرجال أن يعملوا جنبًا إلى جنب، كان من الضروري أن يكون هناك رئيس.

وبمجرد أن يظهر الرئيس، وتصير الرياسة قوة دقيقة نافذة الأمر، يحل النظام محل الفوضى، وفي الحرب العالمية الأولى تقهقرت الفرق

التي أسيئت قيادتها، وعمتها الفوضى، حتى تولى قيادتها قائد جدير بهذا الاسم، لم يلبث أن أحالها فرقًا تسودها روح الشجاعة والمقاومة.

وكذلك الوطن الواحد، المؤلف من الرجال أنفسهم، قد يثبت أنه خاضع للنظام أو ثائر على حسب ما إذا كانت حكومته تحكمه أو لا تحكمه، وبغير الزعامة لا يمكن أن يكون هناك عمل حربي، ولا حياة وطنية، ولا حياة اجتماعية.

والمجتمع البشري في كل مراحل تاريخه، قد اختار زعماء، إذا رصوا على هيئة هرم، تكونت منهم طبقة من أصحاب الرتب والدرجات بعضها فوق بعض. وفي كل مرة وطد فيها هؤلاء الزعماء النظام، وأمنوا رعاياهم على مستقبل الوطن، فإذا حاول هؤلاء كتم أنفاسهم، عاد الاضطراب سيرته الأولى، وأعيد تشكيل تلك الطبقة على صورة جديدة.

وعندما فقدت طبقة الحكام الإداريين والعسكريين التي كانت تتألف منها الدولة الرومانية سلطانها، حلت محلها بعد فترة طويلة من الفوضى، طبقة من الإقطاعيين.

وعندما تخلصت روسيا من حكامها الرأسماليين، تولت شئون الحكم أقلية من الموظفين وأصحاب المهن، وهذا هو السبب في أن الثوار– برغم وعودهم ورغباتهم– لم يحققوا المساواة أبدًا.

على أنه من المستطاع والواجب أن تكون ثمة مساواة في الفرص، وأن تكون هناك على حد قول بونابرت "طريق الحياة العملية المفتوحة أمام المواهب".

ويستطيع المرء، بل يجب عليه، أن يتمنى المساواة بين الجميع في نظر القانون، ولكنه لا يستطيع أن يتصور المساواة بين الزعماء ومن يتزعمونهم، أو يتصور مجتمعًا بغير زعماء.

***

والإنسانية، في غضون تاريخها الطويل، لم تبتكر سوى القليل من الوسائل لاختيار زعمائها.

والطريقة الوراثية هي أقدم الطرق، ولا شك أنها كانت متبعة لدى القبائل القديمة التي كان الابن الأكبر فيها يرث الحكم عن أبيه، وعند عدم اتباع نظام أحقية الأكبر، كانت الجماعة تتعرض لصراع بين الأشقاء كثيرًا ما كانت تعقبه الانقسامات والضعف.

ونحن نجد في الإنجيل وفي المأساة اليونانية شواهد على مثل ذلك الصراع، وفي عهود الملكيات القديمة المحترمة، يتم انتقال السلطة في غير ما عنف، ويتمتع وارث السلطان في أعين رعاياه بمزيد من الهيبة لا حد لمداها.

وهذه الهيبة هي السر في المكانة الرفيعة التي يحتلها ملك إنجلترا، ولقد أدرك هذه الحقيقة نابليون، الذي كان يود أن ينشئ أسرة مالكة، كل الإدراك، وعرف أن الملك يظل ملكًا حتى إذا انهزم، أما الإمبراطور الذي نادى بنفسه إمبراطورًا، فإنه يحتاج إلى تأييد انتصارات متوالية.

وهذا صحيح أيضًا في حالة الملكيات الزراعية أو المؤسسات التجارية التي ظلت تدير شئونها أسرة واحدة عدة أجيال، فالمديرون والمراقبون والمزارعون، لا يلبثون بعد أن تضيق صدورهم بالسلطة، أن يستسلموا لسلطان رأس الأسرة.

وهذا الاستسلام ليس سببه مجرد النزول على حكم العادة، بل سببه أيضًا مشاعر طبيعية تمامًا، وتعليل ينطوي على منطق مستقيم، ففي وسع الوالد أن يسلم إلى أبنائه تقاليد إدارة أعمال الأسرة والتفاني في سبيلها.

ووارث الزعامة، كوارث السلطان، يشعر بأنه مرتبط بما ورث بروابط شرف تقتضيه أن يبذل التضحيات، ولقد شهدنا أمثلة رائعة من هذا في فرنسا في غضون فترة الأزمة الاقتصادية الطويلة التي اجتزناها منذ عهد قريب.

والخطر في النظام الوراثي هو أن الابن الأكبر للأسرة الحاكمة أو المتزعمة قد يكون تافهًا بل ناقص النضج العقلي، فهل ينبغي عند ذاك

أن تسلم مقاليد الأمور في الوطن، أو إدارة الأعمال، إلى رجل غير كفء للزعامة؟ كلا، على الإطلاق.

وفي بعض البلاد بالذات، المتبع فيها هذا النوع من نظم التوريث، كانت هناك استثناءات حين يبدو أن الرئيس بحكم الوراثة غير لائق لأن يتولى الرياسة.

وفي إنجلترا غير البرلمان قانون وراثة العرش عدة مرات.

وفي الولايات المتحدة عمد بعض كبار رجال الأعمال إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة، وهم على قيد الحياة، ليحددوا السلطة التي قد تؤول إلى أبناء لا يصلحون لأن يحلوا محلهم.

على أن للسلطة الوراثية مزايا عظيمة، إذا روعي فيها حسن التصرف وصحة التقدير، وأشرف عليها برلمان أو مجلس استشاري.

وأهم صفات الزعيم أن يكون معترفًا به بوصفه زعيمًا، وكل الزعماء المشكوك في صلاحيتهم يكون من الواضح أنهم تنقصهم القوة.

والزعيم المنتخب يجب أن يكون له نفوذ مسلم به على أولئك الذين وقع عليه اختيارهم، غير أنه كثيرًا ما يحدث أن الصفات التي انتخب لأنه متصف بها (كالبلاغة أو طيبة القلب) ليست هي الصفات المطلوبة، كما يحدث أن يتضح بعد انتخابه أنه شخص ضعيف تافه.

وقد يحدث أيضًا ألا يمثل الزعيم المنتخب، في شعب تفرق الأحزاب بين أبنائه، إلا ما يزيد قليلاً على نصف الناخبين، فإذا كانت بقيهم يشعرون نحوه بما يشبه الكراهية، فإن الموقف الذي ينتج عن ذلك يكون محفوفًا بالخطر على الدولة. وكثيرًا ما رأينا شعبًا عظيمًا سادته الشكوك والخلافات لأن زعيمًا قد انتخبته الأغلبية، ليس حائزًا لثقة الشعب بأسره.

وانتخاب الزعيم يكون محفوفًا بالخطر حين لا تكون المسألة مسألة شعب، بل مسألة مجتمع أصغر، حيث يتولى الزعيم سلطته بصفة مباشرة، وحيث يجب تجديد انتخابه في فترات محددة، فكيف يظفر بالطاعة من رجال سوف يسعى إلى الفوز بأصواتهم بعد وقت قريب؟.

واتباع طريقة التصويت على الأغلبية في انتخاب رئيس مؤسسة تجارية أو قائد جيش، معناه إعداد الخراب للمؤسسة والهزيمة للجيش.

وسرعان ما أدركت هذا جميع الهيئات الحاكمة، وحتى في أكثر البلاد تمسكًا بالنظام الديمقراطي، لا ينتخب أفراد الشعب سوى من يمثلونهم، كالنواب والشيوخ، ومن إليهم، وهؤلاء الرجال الرسميون، يجب أن يكون اختصاصهم التنفيذ، لا القيادة.

ومن أخطر الأمور تقسيم السلطة تقسيمًا يعوق سير الأعمال.

وبمقتضى نص دستور الولايات المتحدة، فإنه إذا حدث خلاف بين رئيس الجمهورية وهيئة البرلمان، كثيرًا ما يحدث أن ينقضي على البلاد عامان دون أن تكون لها سياسة خارجية على الإطلاق، وهذا قيد ضخم بالنسبة إلى أمريكا وغيرها من الأمم، والطريقة الإنجليزية فيما يبدو تؤدي إلى نتائج أفضل، لأنها أكثر مرونة.

وهناك طريقة لاختيار الرؤساء بعقد امتحانات، إذا نجحوا في اجتيازها صار لهم الحق في الحصول على الشهادات الدراسية والمناصب.

ولقد كانت هذه الطريقة متبعة في الصين، ونجحت إلى درجة معينة، وهي متبعة في فرنسا اليوم، فللحصول على مناصب في الجيش، والسلك السياسي، ومعظم الدوائر الحكومية، يجب على الرجل الفرنسي أن ينجح في اجتياز امتحانات معينة، وهذا يبدو من العدل لأن الفرص متساوية أمام كل المتنافسين.

على أن لهذه الطريقة عيوبًا جدية، فالرجل الذي تنمو قوة إدراكه ببطء، والذي قد يتضح عندما يبلغ عامه الأربعين، أنه رئيس جدير بالإعجاب، قد يجد نفسه مبعدًا عن الطريق الصاعدة بسبب قيود السن، والصفات التي لا بد أن تتوافر للرئيس الممتاز قد لا تظهر دائمًا، وكثيرًا ما لا يدرك وجودها أثناء الامتحان (لا يتردد "بول فاليري" في المناداة بأن أسوأ مساوئ هذه الأيام، الانتخابات والشهادات الدراسية).

وبهذه الطريقة تصبح نظامًا مطلقًا حينما لا يكتفي بالامتحان عند دخول الخدمة، بل يكون الامتحان ضروريًا أيضًا للترقي من وظيفة إلى أخرى أكبر منها. وهذا متبع في فرنسا في الوظائف الطبية، وفي الجيش، نجد أن المدرسة الحربية، ومدرسة الدراسات العسكرية العليا، عقبتان يجب اجتيازهما، ولكن الأقدمية، والتعيين، والتوصية، تلعب دورها في زمن السلم، وكذلك الانتصارات في زمن الحرب، والنظام الفرنسي بذلك يشبه تلك الطريقة الصينية إلى حد ما.

ولا يمكن أن يقال في الأقدمية سوى القليل، فمن الواضح أن الرجال كلما تقدمت بهم السن اكتسبوا مزيدًا من الخبرة، إلا إذا كانوا كسالى تمامًا، أو أغبياء، أو أشد عنادًا من أن يتعلموا شيئًا.

على أن هناك كثيرين من الرجال المتقدمين في السن– إن لم يؤيد هذا أحد قط– يكفي لمعرفة خيارهم النظر إلى شهادات ميلادهم، ولهذا فإنه لا مناص من الاستعانة بهم.

ويبدو أن الطريقة المثلى هي أن يتولى الرؤساء تعيين مرءوسيهم المباشرين. فإنهم لا بد من أن يعتمدوا عليهم ويكونوا مسئولين عن تصرفاتهم.

والملك الذي ورث عرشه، أو الرئيس المنتخب، يتولى تعيين رئيس الوزراء بموافقة جمعية مشرفة أو برلمان، ورئيس الوزراء يختار رؤساء مصالحه الحكومية. ورؤساء المصالح يقومون بالتعيين في نطاق

مصالحهم، وهكذا يتم بناء الهرم من القمة إلى القاعدة، وهذا جنون في فن العمارة، ولكنه ناجح من وجهة النظر الإدارية.

وهذا نظام صالح حقًا، ما صلحت أمور الإنسانية: فهو نظام حكيم من حيث المبدأ، ولكن فيه بعض العيوب عند التطبيق، وفيما عدا تعيينات الرئيس وبعض الوزراء السياسيين، فإن جميع التعيينات– بما فيها ما يتطلب الثقافة العلمية– يجب أن تتم على أساس القيمة الفنية والأمانة الخلقية.

فمن مصلحة الوطن، وبالتالي من مصلحة حكامه، أن يكون قائد الجيش أو مدير السكك الحديدية رجلاً من أعلى طراز، بصرف النظر عن آرائه السياسية، أو دينه، أو أصدقائه، أو علاقاته.

غير أن لا شيء يستطيع أن يحول بين الرجال وبين مشاعرهم، فالأصدقاء والأقارب والأهواء السياسية تلعب دورًا عند اختيار من يفوز بالتعيين في المنصب الشاغر، وهذا أمر يبعث على الأسف في بعض الأحيان، فمن واجبنا جميعًا أن نحاول أن نكون رقباء على أنفسنا وعلى الآخرين، حتى لا تؤذى الكفايات.

وأخيرًا فإنه في بعض الحالات البالغة حد اليأس، حين تدب الفوضى في صفوف الأمة، لا أحد يتولى تعيين زعيم، لأنه يفرض نفسه على الأمة.

لم تتول أي سلطة عليا تعيين "كرموبل"، الذي كان رجلاً غامضًا يقود حفنة من فرسان الجيش.

ولقد جعلت الثورة من بونابرت جنرالاً، ولكنه جعل من نفسه زعيمًا للأمة. ولهذا أمثلة قريبة العهد لا تزال مماثلة في أذهاننا جميعًا.

ومن الواضح أن الزعيم الذي يكتسب مركزه عنوة واقتدارًا، يمتاز بالصفات التي لا بد من وجودها في الزعيم، لو لم تكن موجودة فيه لما استطاع أن يكتسب كل ذلك القدر من السلطان، والصعوبة هي في اكتشاف ما إذا كانت مواهبه مواهب زعيم حرب، أو زعيم أمة.

وحين يتولى الزعامة رجل وصل إلى مركزها بنفسه، يطل برأسه سؤال عويص عن ذلك الذي سوف يخلفه عليها، فإن ابن كرمويل لم يحكم طويلاً، كما أن ابن بونابرت قد مات في المنفى، أما خليفة لينين فقد سخط على كل ما تم في عهد سلفه، ومن ثم قضى عليه.

والحق أن اختيار زعيم مشكلة لا سبيل إلى حلها على الوجه الأكمل، فكل شيء يتوقف على ملابسات الماضي وعلى أهداف الأمة المستقبلة.

على أنه بغض النظر عما إذا كان الزعيم منتخبًا، أو معينًا، أو مفروضًا بحكم ميلاده أو بفضل سلطته التي خولها لنفسه، فإنه لا

يستطيع البقاء في مركز الزعامة إلا إذا كانت فيه الصفات التي تتطلبها الزعامة.

***

إن رسالة الزعيم هي توجيه تصرفات الآخرين، ولا مندوحة له عن معرفة الهدف الذي ينوي أن يقودهم إليه، وأهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها، قوة الإرادة، ولا بد له أن يعرف كيف يتخذ القرارات ويتحمل تبعاتها، ومن الطبيعي أن عليه قبل اتخاذ أي قرار: أن يراجع نفسه جيدًا، وأن يحسن تقدير كل الظروف. فإذا ما اتخذ قراره وأصدر أمره، وجب عليه ألا يتزعزع أو يتراجع، إلا إذا واجهته عقبة غير متوقعة لا سبيل إلى اجتيازها، فلا شيء أكثر تثبيطًا لهمم المرءوسين من تردد الرئيس، والعزم الوطيد، كما يقول نابليون، ينتصر في كل شيء.

ولا بد للزعيم من شجاعة أدبية عظيمة، كي يتخذ القرارات، وكثيرًا ما تكون هذه القرارات مؤلمة له، وفي بداية الحرب العالمية الأولى اضطر المارشال "جوفر" إلى إقالة كثيرين من الجنرالات الذين كانوا من أصدقائه.

ويحدث في بعض الأحيان أن تصبح التضحية بالقليلين واجبة في سبيل إنقاذ الكثيرين، والزعيم قد يكون، وكثيرًا ما ينبغي أن يكون صارمًا، وليس من حقه أن يكون شريرًا أو قاسيًا، أو حقودًا، وعليه أن يحتقر الشائعات السخيفة، ويفرض عليها سلطاته بقدر الإمكان.

وعليه كذلك أن يحيط نفسه بجماعة من المساعدين المخلصين الذين يستطيعون أن ينوبوا عنه في اتخاذ القرارات غير ذات الأهمية العظمى، ولا ينبغي له أن يدع الأشجار تحجب الغابة عن ناظريه، ومن أجل تنفيذ القرارات، يكون لديه الفنيون الذين اختارهم ووضع ثقته فيهم، والذين يسمح لهم بحرية التصرف ويقنع بالتحقيق من صحة المعلومات التي يزودونه بها من طريق المراجعة من يوم إلى آخر.

سئل "ليوتي" يومًا: "وماذا تفعل؟" فأجاب بقوله: "ما أنا إلا أخصائي في الأفكار العامة".

والزعيم الغني بتجارب الماضي يعرف أنه يستحيل عليه أن يتعقب بالتفصيل نشاط كل واحد من مرءوسيه، وفي المسائل الاقتصادية بالذات، يقصر اهتمامه على التنويه باتجاهات عامة معينة، والإصرار على ضرورة احترام المصلحة الخاصة للمصلحة العامة، وهو لا يحاول ابتكار مشروع للتهرب من النتائج المحتومة لرغبات الملايين، فضابط المرور يتولى تنظيم تدفق رتل المركبات، ولكنه لا يرسم طريقًا معينة لكل مركبة.

ويجب أن يوحي الرئيس الاحترام إلى مرءوسيه من الفنيين، فإذا لم يستطع ذلك كانت هناك شكوك ومؤامرات، وليس هناك سوى طريقة واحدة لاكتساب الاحترام، وهي أن يكون أهلاً لها.

والزعيم العظيم شخصية عظيمة، وهو منزه عن التحزب وعن التماس المصلحة الخاصة.

وربما كان بلدوين وبوانكاريه محدودي الذكاء، بل إن بلدوين كان يصر على التصريح بتلك الحقيقة، ولكن كليهما كان رجلاً لا سبيل إلى الارتياب في أمانته المالية المتزمتة.

وقد تنازل بلدوين عن جانب من ثروته الخاصة للشعب، ولم يكن بوانكاريه يرضى باستخدام أحد من الخدم الحكوميين في قضاء حاجياته الخاصة، وكلاهما كان متحليًا بصفات الاستقامة التي يتطلبها صاحب المصنع في مدير مصنعه أو زوج كريمته، وهذه الفضائل الأولية منحتهما القوة، وقد يوافقهما المرء أو لا يوافقهما فيما يتصل بشئون السياسة، ولكن خصومهما أنفسهم لم ينكروا عليهما حقهما في تولي الحكم.

والديكتاتور يكتسب نفوذه بفضل حسن تدبيره وتنزهه من الفساد.

ولا ينبغي أن يكون للزعيم سوى شاغل واحد: عمله ومهنته، ومن واجبه أن يكون متحفظًا، حتى إلى درجة إحاطة نفسه بهالة من الغموض، وأنا لا ألومه على أنه خلق من نفسه أسطورة، فالشخصية تأمر وتحكم، بقدر ما يفعل الشخص نفسه.

والشخصية التي ابتكرها خيال الشاعر كبلنج في "الرجل الذي كاد يصبح ملكًا" هي شخصية مغامر سيطر بفضل قوة شخصيته وحدها على عدد من القبائل وأصبح رئيسًا عليها، ولكنه فقد هيبته وتاجه عندما

ضعف لدرجة الوقوع في حب امرأة من رعاياه سمح لها بأن تعرف أنه ليس أكثر من رجل.

ولقد قال نابليون: "كم من الرجال من يتعرض للشدائد لمجرد ضعفه أمام امرأة؟".

وهنا يجب أن نتحدث عن زوجة الزعيم، وهذا دور من العسير أداؤه، فإن عليها أن تدافع عنه في وجه العالم، وتحول بينه وبين إجهاد نفسه على غير طائل، وأن تتحاشى اقتراح أي إجراء متهور، وأن تجعل من بيتها ملجأ أمينًا، لا إمبراطورية أخرى عليه أن يحكمها– فهي أكثر الإمبراطوريات استعصاء على الحكم.

في غضون مناقشة حول الصفات الضرورية التي يجب أن يتحلى بها رجل الدولة، في حضور "وليم بيت"، أشار أحدهم إلى الجلد على العمل، وأشار آخر إلى وفرة النشاط، وأشار ثالث إلى الفصاحة، ولكن "بيت" قال إن الأمر على العكس من ذلك، لأن الصفة الجوهرية التي لا بد أن يتحلى رئيس حكومة هي "الصبر".

ولقد كان على حق في ذلك، فإن هذه الصفة ضرورية لكل رجل يقتضيه عمله أن يتزعم جماعات من الرجال، فضلاً عن رئيس الحكومة.

والغباء عامل مسلم بوجوده في شئون الناس، والزعيم حقًا يتوقع دائمًا أن يصادفه، ويستعد لاحتماله بصدر رحب، ما دام غباءً عاديًا، وهو

يعلم أن أفكاره سيصيبها التشويش وأوامره ستنفذ دون عناية، وأن التحاسد سيكون موجودًا بين معاونيه، وهو يقدر على هذه الظواهر القهرية، وبدلاً من البحث عن رجال بغير أخطاء- وهؤلاء لا وجود لهم- يحاول أن يستفيد بخير من عنده من الرجال- على علاتهم- وليس ما كان ينبغي أن يكونوا.

ومن مظاهر الصبر الأخرى، الاستمرار في بذل الجهود، وعندما يتحقق أحد الأهداف، لا يتصور الزعيم الحقيقي أن شئون أمته قد انتظمت إلى الأبد، فلا شيء في هذه الدنيا يمكن أن يستقر بصفة دائمة.

قال نابليون: "إن أخطر اللحظات تأتي مع النصر".

والحديقة المعتنى بأمرها لا تلبث أن تنمو فيها الأعشاب الطفيلية إذا أهملت لبعض الوقت، والأمة الغنية القوية لا يمكن أن تظل في حال من الفوضى سنين عديدة، دون أن تنتقل أمورها إلى أيدي شر أبنائها، ويغير عليها جيرانها، فزعيمها يعرف أن جهوده لا يمكن أن تسفر عن نتائج باقية على الدهر، وأن عليه أن يبدأ تلك الجهود في صباح كل يوم.

والحذر فضيلة أخرى لا تقل في أهميتها عن كل ما تقدم، قال "ريشيليو": إن الكتمان هو روح الشئون القومية.

ولقد فقد شارل الأول ملك إنجلترا عرشه ورأسه بسبب عدم حرصه على كتمان بعض الأسرار، حيث بلغ من قلة حذره أنه أخبر زوجته الملكة الحسناء بما كان ينوي أن يفعله ببعض أعضاء البرلمان، وأخبرت هي واحدة من وصيفاتها– كانت موضع ثقتها– بما كان على وشك الحدوث، ولما كان لهذه الوصيفة أصدقاء من أعداء الملك، فقدر بادرت إلى إنذار الأعضاء الذين كان يتهددهم الخطر، فلما أزفت الساعة المحددة لتنفيذ المؤامرة الكبرى، وجد الملك أن عصافيره قد طارت من القفص، وأن أفراد الشعب قد حملوا في وجهه السلاح، هذا هو المبدأ: قل الشيء الضروري فقط للشخص الذي يجب على المرء أن يقوله له، حين يكون قوله ضروريًا، وحسب!.

كتب الكولونيل ديجول يقول: "لا شيء يقوي السلطة، بقدر ما يقويها الصمت". والكلام ينال من قوة الفكر، وهو يسمح لشجاعة المرء بأن تتسرب مبتعدة عنه، وصفوة القول أنه يبعثر التركز المطلوب.

هل كان هناك من يضارع "بونابرت" في ميله إلى قلة الكلام؟ ولقد اقتدى به "الجيش الكبير" في ذلك.

قال "فيني": لقد عرفت ضباطًا أحاطوا أنفسهم بسياج من الصمت، فكانوا لا يتكلمون إلا لإصدار الأوامر.

ولقد أدرك الرئيس "كولدج" حق الإدراك أن صمته كان نافعًا له، ومن ثم فقد لزم جانب الصمت، كما أنه قصد بذلك أيضًا إلى زيادة جو الغموض المحيط به.

وكان للملك لويس الرابع عشر طريقة عظيمة جدية توحي بالخوف والاحترام إلى الشعب، وتحول بين الأشخاص الحائزين لإعجابه الشديد، وبين رفع الكلفة معه حتى في خلوته بهم.

ولا شك في أن من أشد الصعوبات التي يواجهها الزعيم، أن يحافظ على التوازن بين التحفظ والحزم الضروريين بالنسبة إلى مركزه، وبين الملاينة المطلوبة منه في انتقاء مساعديه، على أن هذه الصعوبة قد يمكن التغلب عليها بسهولة، باستخدام اللباقة التي هي من مميزات رجل مولود في أحضان التبعات الجسام.

ويضاف إلى كل هذه الصفات شجاعة البدن (وهي الفضيلة الوحيدة التي تحول دون الإدعاء)، والصحة الجيدة، فالصحة الجيدة تزيد من سلطان الزعيم، وتسهل عليه أن يتوخى الصبر الجميل، وأن يكون عظيم الجلد على العمل، وقوي الإرادة.

لقد كان من أعظم صفات المارشال "جوفر" أنه كان يتمتع بشهية طيبة، ومقدرة على النوم، ونحن مدينون لهاتين الخلتين بالنصر في معركة "المارن". فالتوازن الجسدي يسفر عن حدة الذهن، وهدوء الأعصاب أهم ما يتحلى به جل مقدر له أن يحكم.

وإن المرء ليذكر تلك المناسبة التي أصدر فيها "جاليني" بعض أوامره في ساحة القتال، ثم فتح كتابًا، ولقد عجب "ليوتي" لهذا التصرف، وكان ضابطًا صغيرًا في ذلك الحين فقال له "جاليني": لقد فعلت كل ما أستطيع، وسأنتظر الآن حتى أرى ما يحدث، وبينما أنا في الانتظار، سأتجه بفكري إلى شيء آخر.

ولقد كانت هذه طريقة مثلى لتصفية ذهنه واستمرار هدوء أعصابه، ولقد اقتدى به "ليوتي" فينما بعد، فحين حوصر في مدينة "فاس"، وخيل إليه أنه قد فقد كل شيء، تناول كتابًا وراح يقرأ.

قال "مونتاني": يسرني أن أرى قائدًا أمام حصن ينوي مهاجمته في عاجل قريب، وقد ألقى كل اهتمامه إلى حديث أصدقائه، كما يسرني أن أفكر في "بروتس" وهو يختلس ساعات قلائل من وقت واجباته في الليل، ليقرأ ويلخص "بوليبياس".

إن التافهين الذين تنقض ظهورهم أعباء شئونهم، هم الذين لا يعرفون كيف ينحونها جانبًا، ثم يحملونها من جديد.

***

والشخصية تحتل المكان الأول من الأهمية، بيد أن للذكاء أهميته الجوهرية على أي حال.

ومن المستحسن أن يكون الزعيم متعلمًا واسع الآفاق في تعليمه، فالتاريخ والشعر يزيدانه علمًا بالعواطف الإنسانية، والثقافة تهيئ الفرص أمام الرجل العامل بين الحين والحين، كي يظفر بسكينة النفس، وتضع تحت تصرفه نماذج من الاتساق والصفاء.

وإنه من بعض وجهات النظر، لعمل فني، أن يعاد هيكل أمة، أو يقاد جيش، والرجل الذي اكتسب من دراساته إحساسًا بالجمال، يكون أدنى إلى النجاح في ذلك من سواه.

قال المارشال فوش: إذا كانت قيمة الدراسات العلمية كامنة في تعويد العقل على القواعد والمعايير المادية، فإن قيمة دراسة الأدب، والفلسفة، والتاريخ، إنما هي إنتاج الأفكار المتصلة بالعالم الحي، وهي بذلك تدرب الذكاء وتوسعه، وتحتفظ له بالحيوية الدافقة والقدرة على الإثمار، عندما يدخل ملكوت اللانهاية، وسوف يزيد المستقبل من حاجة ضابط الجيش إلى اكتساب الثقافة العامة إلى جانب المعرفة المتصلة بمهنته.

والمعرفة المهنية ضرورية تمامًا بطبيعة الحال، وعندما ظهر كتابي "أحاديث عن القيادة" ، منذ زمن طويل، كتب إلي المارشال "فايول" يقول:

"يستطيع الرجل أن يصير ضابطًا ممتازًا إذا كان يتمتع بالشخصية، وحسن التقدير، وفوق كل شيء على قدر عظيم من المعلومات العامة التي لا يتسنى اكتسابها إلا بعد دراسة طويلة".

"ولم يدرك الناس الإدراك الكافي أن كثيرين في القيادة العليا في الحرب الماضية كانوا أساتذة سابقين في "المدرسة الحربية" مثل: فوش، وبيتان، ومثلي أنا، كثيرين من غيرنا... وكانت تلك هي أول مرة يصبح فيها الأساتذة قوادًا، وذلك بفضل التعليم العملي الأساسي الذي تهيئه تلك المدرسة، وهذا التعليم يقوم كله على أساس من التاريخ والاقتباس: دراسة كتب المراجع، والتمرينات التحريرية في الشتاء، ودراسات، ومناورات في الميدان في الصيف.

"وتستطيع أن تتصور أن الرجل الذي قضى سنوات في حل مختلف المسائل في الخطط الحربية، لا يجد نفسه في ساحة القتال وقد أسقط في يده.

"والحلول يمكن العثور عليها دائمًا إذا كان التعليم قد اتبع مناهج واضحة مقررة تجمع بين اعتبارات الجسم والذكاء والأخلاق– ولها أهمية في الحرب– حتى يقوم كل منها بدوره على الوجه الأكمل، ويجب الحرص على ألا يهمل أمر أحدها من أجل الآخر: فكلها متساوية في ضرورتها".

وذكاء الزعيم يجب أن يمتاز بالبساطة والوضوح، فإن العمل يكون عسيرًا إذا امتلأ العقل بمختلف النظريات والمشروعات، والصناعة التي يزيد تنظيمها عما ينبغي، يضيع فيها من النقود مثل ما يضيع في صناعة غير منظمة على الإطلاق، لأن "ناقل الحركة" يستنفد كل قوة المحرك، (ولهذا السبب نجد أن بعض المصانع الصغرى التي يديرها رجل واحد، تتفوق على مصانع كبرى بسبب قلة التكاليف وجودة الإنتاج).

فيجب أن تكون لدى الزعيم أفكار قليلة وبسيطة جدًا، اكتسبها من تجاربه، وتأكد من صوابها من طريق الاستعمال، وهذا الهيكل الذي تخلقه التجربة من شأنه أن يحوي كثيرًا من المعلومات الصحيحة التي يستعان بها في أداء العمل المطلوب.

ومن واجب الزعيم أن يعرف كيف يستخدم عقول الآخرين، يقول "ريشيلو": على المرء أن ينصت كثيرًا ويتكلم قليلاً، ليتسنى له أن يحكم شعبًا على الوجه المرضي.

على أنه لا ينبغي الإنصات إلا لرجال معينين، هم الذين لديهم المعلومات الصحيحة، ومن المستحسن كذلك أن يرغم الرجل الثرثار على السكوت.

وينبغي أن يتمتع الزعيم بذكاء لماح حاد، فالزمن عامل في كل عمل. فالمشروع الناقص متى وضع موضع التنفيذ في الوقت المناسب، خير من المشروع الكامل الذي يتأخر تنفيذه أكثر مما يجب.

وقد يبلغ من أهمية الوقت، في بعض الأحيان، أن يصير له كل الاعتبار. فوزير الطيران لا ينبغي له أن يقول: "كيف يتسنى لي- بما لدي من المساعدين، وميزانيتي، ومصاعب الإدارة- أن أضع خمسة آلاف طائرة؟". بل يجب عليه أن يقول: "بما أنه يجب أن يكون عندي خمسة آلاف طائرة في الربيع القادم، ما هي الميزانية التي يجب أن أصر على طلب اعتمادها، وما هو المجهود الذي يجب أن أطلب من مساعدي أن يبذلوه، حتى يتم العمل في الموعد المحدد له؟".

وفي صناعة الثياب- كما هي الحال في الحرب، وفي إدارة مصنع، وإصدار صحيفة- قد يكون البطء مصدر خطر لا مزيد عليه، هنا يفكر الرئيس بسرعة، ويحيط نفسه بمساعدين يعملون بسرعة.

وأخيرًا، يجب أن يحسب الزعيم حساب التقاليد والعادات، فمجرد البقاء على قيد الحياة- في رأيه- فضيلة، وهو يبني مستقبل مواد يتيح له الماضي أكثرها متانة، وهو يقطع ويعيد التشكيل، ولكنه لا يقذف بشيء عرض الحائط.

وقد روى "كبلنج" في إحدى قصصه الخيالية الجميلة كيف عاقبت آلهة الأنهار بناة الجسور على أنهم تحدوا قوانين العمل القديمة.

ونحن أبناء القرن العشرين، مزودون بوسائل مدهشة لغزو الكون، ولكن الكون له أساليب رهيبة في الانتقام لنفسه، وليس في وسعنا دائمًا أن نتكهن بنتائج أعمالنا.

وعند حدوث ثورة: يبدو أن الرجال يدمرون التحصينات التقليدية للأمة، ولكن يجب على المرء أن ينتظر حتى يرى نهايتها، قبل أن يكون رأيًا، ولقد انتهت الثورة الفرنسية بالعودة إلى النظام الذي قامت على أنقاضه.

والزعيم الحكيم لا ينسى أن العقبة الكبرى التي صادفها الساحر الناشئ، إنما صادفها وهو يحاول أن يسكن حراك العصى السحرية التي حركها برقاه وتعاويذه.

***

وسواء كان الزعيم وزيرًا، أو ضابطًا، أو بناء أو مديرًا، فإنه يتصل بمساعديه بثلاث طرق: بما يصدره من الأوامر، والتقارير التي يتلقاها، والتفتيش الذي يقوم به.

ويجب أن يكون الأمر الصادر واضحًا قبل كل شيء، فالتفكير قد يكون قليل الوضوح، والخطة يكون فيها دائمًا شيء من الخيال، ولكن "الأمر" يجب أن يكون دقيقًا على الدوام، وكل الأوامر يمكن الخطأ في فهمها، والأمر الغامض لا يمكن فهمه أبدًا.

ولقد قال نابليون: لكي يتقن المرء عمل شيء، يجب أن يعمله بنفسه، وهذا غير صحيح.

غير أن الزعيم الحكيم هو من يعترف بأن القليلين من الناس يحسنون الفهم، وأن كل إنسان معرض للنسيان، ولهذا لا ينبغي الاكتفاء بمجرد إصدار الأمر، بل على المرء أن يتحقق من تنفيذه، كما أن عليه، عندما يصدره، أن يتوقع أي شيء يحول دون أن يترك أثره المطلوب.

فحماقة الكائنات البشرية، وسوء طوية الحظ، لا حدود لهما، والشيء الذي لا يتوقع المرء حدوثه، يحدث على الدوام.

والزعيم الذي يحاول أن يشل هجوم الحظ العاثر، والذي يقوي مواطن الضعف في خططه ضد الحماقة، يكون أقدر على فرض مشيئته من ذلك الذي لا يعمد إلى مثل هذه الاحتياطات.

على أن هذه الاحتياطات يقل الاضطرار إليها عندما ينجح الزعيم في إحاطة نفسه بمساعدين علمته تجاربه أن يثق بهم، فلكل زعيم أمة هيئة مكتبه. ولكل قائد ضباط أركان حربه الخصوصيون، وهؤلاء المساعدون يكونون على علم تام بما في رئيسهم من أنواع الشذوذ، وهم يعرفون كيف يقومون بخدمته، ويفهمون أوامره على الفور، ويتحققون من تنفيذها بكل دقة.

ومهام يكن من شيء، فليس في الدنيا سوى القليلين من الناس، الذين يمكن الاعتماد عليهم، ولقد قيل عن الرئيس الأمريكي "ولسون" أنه كان يؤمن بالإنسانية، ويكفر بالناس جميعًا، والزعيم الحق هو من يكفر بالإنسانية ويؤمن بعدد قليل من الرجال.

فكيف يمكن اختيار هؤلاء الرجال؟.

إن من بين واجبات الزعيم أن يخالط جماعات من الرجال يستطيع أن يختار من بينها مساعديه، ولقد كان من مصادر قوة المارشال بيتان عندما تولى قيادة الجيش الفرنسي، أنه كان أستاذًا سابقًا في المدرسة الحربية فتخرجت على يديه أجيال بأسرها من الضباط الشبان، كما أن "جامبتا" قد طاف بكل أرجاء فرنسا على أمل التعرف على رؤساء الإدارات.

والرجل الذي نال شرف حكم أمة، يجب عليه أن يكتشف خير رجالها ليملأوا كراسي المناصب الحكومية وواجبه لا يكون مقصورًا على الاستفادة بالمادة الموجودة وحسب، بل يكون من واجبه ومن الخير له أن يعمل على خلق مادة جديدة، وهذا هو ما تفعله الأحزاب السياسية في الخارج، ومثال ذلك ما يفعله حزب المحافظين في إنجلترا، حيث يراقبون الجامعات الكبرى بأعين مفتوحة على الدوام، على أمل العثور على شبان يمكن أن يتحولوا يومًا ما إلى رجال دولة، وهناك معهد يتلقون فيه دراستهم الخاصة، فإذا أثبتوا أنهم يتمتعون بذكاء لماح يحصل لهم

الحزب على مقعد في البرلمان، ويحاول رئيس الحكومة أن يهيئ للمتفوقين من بينهم فرصة اكتساب بعض الخبرة، عن طريق تعيينهم سكرتارية برلمانيين، ثم وكلاء وزارات.

ومن واجب زعيم الحزب أن يحرص على اختيار طبقة حاكمة، وذلك أيضًا من واجب رؤساء المؤسسات الكبرى، وبعض هؤلاء يدرك هذا، فإن "كريزو" مثلاً، له مدارس تدار بطريقة رائعة، حيث يقسم الطلاب تقسيمًا محايدًا، حتى يمكن إعداد كل طالب لأعلى منصب يحتمل أن يصير أهلاً له في المستقبل.

وخلق التفاهم التام بين المساعدين، يكون في كثير من الأحيان أمرًا عسيرًا، ولا ينبغي أن يكون ثمة إدعاء أو تعصب محلي- كما قد يحدث- في أي هيئة على نحو يخلق شعورًا عدائيًا بينها وبين سائر الهيئات الأخرى.

ففي السكك الحديدية، عندما تكون هناك مصاعب بين رجال الحركة ورجال الإدارة، وفي أسلحة الجيش، عندما يحدث خلاف بين القيادة والضابط في الميدان- يكون من الأهمية بمكان أن يفهم الجميع أن الجيش، أو المصنع، أو الأمة، إنما يمثل جسمًا حيًا مستقلاً بذاته، وأن كل صراع بين أعضائه معناه الانتحار دون شك.

وكثيرًا ما يحدث بين المساعدين الذين يضمرون أعظم الإعجاب لرئيسهم ويتفانون في خدمته، أن تستبد بهم الغيرة ويتنافسوا فيما بينهم

على مرضاته دون قصد، ومن واجبه هو أن يتكهن بمثل هذه المواقف التعسة ويتصرف فيها، لأنها تتهدد كفاية المجموعة بالخطر الشديد.

وعلى نحو ما يستطيع السائق الماهر أن يدرك بمجرد الإنصات لمحرك سيارته، أن خللاً قد طرأ على جزء معين من أجزاء ذلك المحرك: كذلك يدرك الزعيم الموهوب أن مساعديه لا يخدمونه على الوجه الأكمل، ومن ثم يبحث عن السبب، ويعثر عليه، وكثيرًا ما يكون السبب تافهًا: فقد يكون مجرد هزة من كتفين لا تزيد عن عادة عصبية، ولكنها فسرت بأنها إهانة.

ويتلقى الزعيم التقارير عن حالة مساعديه المعنوية، وعن نتائج أوامره، وهو دائمًا لا يؤمن بصحة تلك التقارير، ولقد عرفت مرة واحدًا من أصحاب المصانع كان يقول: إن كل المعلومات زائفة.

ولقد كان على حق في ذلك، فكل شيء– على وجه التقريب– يكون مبالغًا فيه، أو مشوهًا، أو مكتومًا، والوسيلة الوحيدة لكي يتجنب المرء الخطأ فيما لديه من الحقائق، هي أن يقوم بالتفتيش شخصيًا من آن لآخر، وهذه الزيارات قد يكون لها تأثير مدهش، فما تلبث أن تنهال عليه التقارير الصحيحة الدقيقة على الفور.

ويروي المارشال بيتان كيف أنه في سنة ١٩١٥ تولى القيادة في قطاع ظلت القيادة أسابيع وهي تصر على الهجوم فيه، ولقد كانت البلاغات تذكر أنباء انتصارات قليلة، وخسائر كبيرة إلى حد ما، بطبيعة

الحال، ولقد تكهن بيتان بحكمته، أن في الأمر شيئًا خفيًا، فتوجه إلى الخطوط الأمامية ومعه أجهزة لمساحة الأرض، ولم يلبث أن أدرك أن البلاغات كانت تزيف لإرضاء القيادة، وأن الانتصارات كانت من نسج الخيال، والتقارير التي ترفع إلى القائمين بأمر القيادة تكون في الأغلبية الساحقة من الأحايين تقارير مرضية أو يتم تقديمها بطرقة تعزز نظريات الضابط الذي قام بإعدادها.

والزعيم الذي يصعب إرضاؤه يستطيع أن يظفر بقسط من المحبة يزيد عما يظفر بع الزعيم القيل الاكتراث، وخير طريقة لفرض الصرامة هي أن يحيط المرء نفسه بأولئك الذين يقدر مزاياهم، ويستطيع كل إنسان أن يحتمل النقد ما دام من الواضح أن شخصيته وذكاءهم لم يتعرضا للشك والارتياب، والطريقة الحكيمة هي أن يعبر المرء بسرعة وقوة، عما يشعر به شعورًا قويًا، والتعنيف القاسي، إذا قيل بسرعة، يكون أقل إيلامًا من التبرم العدائي الصامت.

ومن واجب المساعدين أن يدركوا أنه إذا لم يتم تنفيذ أمر من الأوامر الصادرة إليهم فإنهم سوف يدفعون الثمن، ولكنهم لن يتعرضوا لأي لوم إن أسفر تنفيذ ذلك الأمر عن وقوع كارثة، فالزعيم الحق يتحمل دائمًا كل مسئولية عن تصرفاته.

والملك هو المدافع الطبيعي عن شعبه ضد جشع علية القوم، ومن واجب كل زعيم أن يتحقق من أعماله، أو جنوده أو بحارته، يلقون من

مساعديه معاملة تنطوي على العدل والاحترام، وهذا أصعب من ناحية واجباته، لأنه لا ينبغي أن يعمل على إضعاف نفوذ معاونيه، أو يصبر على إساءتهم استغلال ذلك النفوذ ولا قاعدة مقررة في هذا، كما هو الحال في كل شيء آخر، فهو كمن يمشي على حبل "بهلوان"، ضاربًا بعصا توازنه ذات اليمين وذات الشمال، كي يحافظ على التوازن.

وفي سنة ١٩١٧، كانت صرامة بيتان، وعدالته، وهيبته، وشعوره الودي، في قمع حركات التمرد، مثلاً رائعًا من أمثلة ذلك التوازن.

ومن واجب الزعيم، بقدر الإمكان، أن يتنبأ بالسخط، ويرد المظالم قبل أن تبلغه الشكايات، ولكي يتسنى له ذلك، ينبغي أن يظل على اتصال وثيق ودائم بالرجال الذين بيده مقاليد أمورهم، فليذهب إلى الخنادق إن كان قائدًا حربيًا، وليذهب إلى المصنع مع رجاله بين الحين والحين، إذا هو المدير.

ومن الضروري أن يكون لديه شيء من قوة الخيال، فلا غنى له أبدا عن فهم حياة الرجال الآخرين، كي يستطيع أن يحمي أولئك الذين هم دونه من التعرض لآلام لا ضرورة لأن يتعرضوا لها، فإن السر في ظفره بمحبتهم يكمن في محبته هو لهم، ومقدرته على أن يزن أعمالهم بنفس الإتقان الذي يؤدونها به هم أنفسهم، والرجال يحتملون تلقي الأوامر، بل يحبون ذلك، إذا كان من يصدرها، بلباقة.

إن الحكم والقيادة فنان مستقلان في زمن السلم، والقيادة هي تزعم مجموعة من المخلوقات البشرية في ظل نظام مرعى، في سبيل الوصول إلى هدف معين.

وضابط الجيش يعلم أن جنوده سوف يطيعونه، إلا في حالات نادرة من التمرد الخطير، وهو كذلك يعرف تمامًا ما هو هدفه: الدفاع عن منطقة معينة، أو الاستيلاء عليها.

ورئيس المؤسسة التجارية الكبيرة، يعرف أن عليه أن يقدم سلعة معينة بثمن محدد ومقادير محددة، وأنه إن أخفق في ذلك أصابه الخراب وتعطل رجاله عن العمل. وفيما عدا حالات اختلال توازن الظروف الاجتماعية، يكون هو سيد نفسه، ما دام مطيعًا للقانون.

والديكتاتور يشبه القائد العسكري، فهو يتولى القيادة أكثر مما يتولى شئون الحكم.

ورئيس حكومة الأمة المستقلة، يجب أن يوجه نحو أهداف غامضة متغيرة، أعمال جماعة من الناس لا يحملها على طاعته سوى الخوف من أن تسود الفوضى، على نحو ما لا يخشى في أزمان السلام الاجتماعي، وهو يتعرض في كل ما يفعله لنقد خصومه الذين يزيد في قلة رحمتهم له، رغبتهم في أن يحل رجل آخر محله، أما معاونوه فإنهم لا يكنون له شيئًا من الاحترام، فهم أنداده وخلفاؤه.

ما هي الميزات التي ينبغي أن ننشدها في رجل وكل إليه أمر تصريف شئوننا؟.

فوق كل شيء، إدراك ما هو في الإمكان، ففي السياسة، لا جدوى مطلقًا من وراء رسم المشروعات الجليلة النبيلة، إذا لم يكن في الإمكان تحقيقها بسبب الحالة السائدة في البلاد، واندفاعات الأمة المتحررة، تكون في جميع الأوقات بمثابة "متوازي أضلاع" من القوى.

والعظيم من رجال الدولة يدرك ما هي تلك القوى على وجه الدقة، ومن ثم يقول لنفسه: "إنني أستطيع أن أصل إلى هنا فقط، وليس إلى أبعد من هذا قط". وهو لا يسمح لنفسه بأن يحابي طبقة ما لأنه يتكهن برد الفعل المحتوم من جانب الفئات التي أهمل أمرها.

والطبيب البارع لا يعالج مريضه من مرض عابر بعقار يسبب له مرضًا دائمًا في الكبد، وكذلك شأن كل حصيف الرأي من رجال الدولة، فهو لا يترضى الطبقة العاملة دون مبالاة باحتمال إغضاب الطبقة البورجوازية الوسطى، كما أنه لا يدلل هذه الطبقة الأخيرة على حساب الأولى، بل يحاول أن يعتبر الأمة جسدًا كبيرًا حيًا تعتمد أعضاؤه بعضها على بعض، وهو يقيس درجة حرارة الرأي العام كل يوم، فإذا ارتفعت حرارة الحمى كان عليه أن يحمل الأمة على الاستجمام.

ومع أنه يقدر قوة الرأي العام حق قدرها، فإن رجل الدولة القدير البارع، يدرك أن في وسعه أن يؤثر على الرأي العام بسهولة، إلى حد معقول، وهو يقدر مقدرة الشعب على النظر إلى جهوده بغير اكتراث.

والشعب يلجأ أحيانًا إلى العنف، واحتجاجاته الغاضبة تكون مشروعة إذا جلبت الحكومة عليه الفقر، أو انتزعت منه حريته التقليدية، أو تدخلت تدخلاً خطيرًا في شئون حياته المنزلية، ولكن أفراد الشعب يسمحون لأنفسهم بأن يتولى قيادتهم رجل يعرف إلى أين هو ذاهب ويريهم بوضوح أن مصالح الوطن هي غاية ما يصبو إليه، وأنهم يحسنون صنعًا إذا هم جعلوه موضع ثقتهم.

وتمييز ما هو في الإمكان، ليس مجرد المقدرة على إدراك أن أشياء معينة غير ممكنة– فتلك ميزة سلبية– بل هو كذلك بالنسبة إلى الرجل المقدام، إدراك أن بعض الأشياء التي يبدو أنها صعبة إلى أبعد حد، هي في الواقع وحقيقة الأمر مستطاعة ممكنة.

ورجل الدولة العظيم لا يقول لنفسه: "هذه الأمة ضعيفة". بل يقول: "هذه الأمة نائمة، وسأعمل على إيقاظها، فالقوانين والأنظمة من صنع الناس، وسوف أغيرها إذا اقتضت الضرورة".

ومهما يكن من شيء، فالعزم على عمل شيء ما، يجب أن تعقبه أعمال، لا مجرد كلمات، والسياسيون غير الممتازين ينفقون معظم أوقاتهم في رسم الخطط والتبشير بالبرامج، فهم يتحدثون عن إصلاح

الهيئات، ويخترعون نظمًا اجتماعية ليس فيها أي عيب، ويضعون المشروعات التي تكفل السلام الدائم.

ولقد قلنا في معرض الحديث عن فن التفكير أن المشروع ليس عملاً أبدًا. ورجل الدولة الحق في خطاباته التي يلقيها على الجماهير، يعرف إذا اقتضت الضرورة، كيف ينحني باحترام أمام النظريات الجديدة، وينطق بعبارات تقليدية في مصلحة أولئك الذين يحرسون أبواب المعبد، ولكنه في الواقع إنما يشغل نفسه بالعناية بحاجات الوطن الحقيقية.

مثال ذلك أن يقول : "في سنة **١٩٣٩** يجب على فرنسا قبل كل شيء أن تحافظ على السلام، وتعزز تحصيناتها الجوية بإنتاج مزيد من الطائرات، وتزيد إنتاجها في الصناعات الأخرى، وأخيرًا، تنظم ماليتها". وهو يحاول تحقيق هذه الأهداف المحددة على وجه الدقة، بطرق يعتقد هو أنها هي المثلى، فإذا وجد عقبات في طريقه، سلك طرقًا أخرى.

والغرور، والاعتزاز بالذكاء، وحب التقيد بالقواعد المقررة، من أخطر عوامل الفشل التي تتهدد الرجل السياسي، وبعض زعماء الأحزاب لا يحجمون عن التضحية بالوطن في سبيل نظرية أو مجموعة من المبادئ، والزعيم المخلص يقول: "فلتذهب المبادئ، لإنقاذ الوطن".

هل يكون عمله ناقصًا؟ وهل يسفر عن ظلم؟ إنه يدرك هذه الاحتمالات. لأن كل جزء معقد من العمل، إنما يكون ناقصًا.

وفي الكتاب المدهش الذي ألفه "برنانو" بعنوان "مذكرات قسيس من الريف"، يحاول قسيس طاعن في السن أن يحمل قسيسًا شابًا على أن يفهم أنه حتى القديس لا يستطيع أن يحول أهل المنطقة جميعًا إلى قوم من الأتقياء الصالحين، ولكي يبرهن على صحة رأيه، يروي العجوز قصة امرأة بلجيكية كانت تقوم على خدمة إحدى الكنائس في الريف، وأرادت أن تجعل كنيستها مضرب الأمثال في النظافة: "... ولقد كانت دائبة النشاط لا تعرف كللاً ولا مللاً، فلم تكن لتقصر في تنظيف أو غسل أو طلاء بالشمع، وكان من الطبيعي أن تجد طبقة جديدة من الغبار فوق المقاعد في صباح كل يوم، وأن تجد أعشابًا جديدة قد نبتت في الفناء، ثم... خيوط العناكب– يا للسماء!– خيوط العناكب التي لا تكاد تزيلها من الوجود، حتى تعود سيرتها الأولى".

على أن الخادمة لم يتطرق اليأس إلى نفسها، بل عكفت على التنظيف والغسل، وبدأت الطحالب تنبت على أعمدة الكنيسة، وأيام الآحاد تملؤها بالقاذورات، وأخيرًا، قتلتها أيام الأعياد قتلاً.

ويختتم القس الطاعن في السن حديثه عن تلك المرأة بقوله: "على أنها، من بعض وجهات النظر، قد راحت ضحية، ولا سبيل إلى إنكار ذلك، ولم يكن خطؤها هو محاربة القذارة، بل محاولتها التخلص منها بصورة تامة، كما لو كان مثل ذلك ممكن الإدراك... إن الريف مكان قذر، بحكم الضرورة".

والقارة أكثر قذارة، لاسيما قارة قديمة مثل أوروبا، التي تعرضت على تعاقب قرون من الزمن، لغزو الطحالب والنمل، والمرارة والبغضاء.

ولقد كان الرئيس "ولسون" أشبه بتلك الخادم البلجيكية، لأنه أراد أن يحيل هذا الكوكب القديم الذي يعلوه الغبار، اتحادًا لرجال القانون على الفور.. ولقد كانت فكرة رائعة بغير شك، ولكنها مستحيلة التنفيذ، كما أنه من المستحيل اليوم أن يرى الناس كيف تسير الأمور، ويقوموا بتنظيف أوروبا مرة واحدة وتكون هي الأخيرة.

والعظيم من رجال الدولة، كربة البيت الماهرة، يدرك أن عملية التنظيف ضرورية في صباح كل يوم، وإذا نشب عراك، احتمله في صبر، موقنًا من أن عراكًا آخر لن يلبث أن ينشب، حالما ينتهي الأول، وهو يوافق على تسوية ما، مع أنها غير مرضية، ولا تزيد عن كونها مجرد إجراء مؤقت، لأنه يعلم أنه ليس في شئون البشر ما هو مرض أو دائم، وبعد تكرر التأخير، يقترب السلام، دوليًا كان أو اجتماعيًا. عشر سنوات، عشرون سنة، وبعدها يتم إنجاز عمل الجيل الذي ينتمي إليه، ثم يبدأ تاليه حياته من يوم إلى يوم.

ومن حق الزعيم الجدير بلقب الزعامة، أن يطاع، والمجتمع الذي لا يستطيع احترام الزعيم الذي وقع عليه اختياره، مجتمع مقضي عليه بالدمار، لأنه لن يلبث أن يصيبه العجز عن العمل، ولا شك في أنه قد يفضل نظامًا على آخر من أنظمة الحكم، ففي زمن الحرب مثلاً، يضطر

مثل ذلك المجتمع إلى الاستعاضة عن النظام المدني بالعسكري، فإذا حدث هذا يجب عليه الولاء للزعماء المختارين.

وانعدام النظام يجلب الهزيمة على الجيش، والخراب على صاحب المصنع. وعلى هذا النحو نجد أن الشعوب الواقعة تحت رحمة نظامين متعارضين، تكون في شر حال، ومما يضر بالعمال أن يكونوا ممزقين بين نظامين: النظام الذي يفرضه صاحب العمل، والنظام الذي يفرضه اتحاد العمال الذي ينتمون إليه. ويجب أن يحدد بوضوح مدى سلطة كل من صاحب العمل واتحاد العمال، وبعد ذلك يباشر كل منهما سلطته كاملة في حدود اختصاصه، ولقد ظهر أن اتباع مثل هذه الطريقة ممكن، في إنجلترا والدول الاسكندينافية.

ومن حق الزعيم أيضًا أن يحتفظ بزعامته، فكيف يمكنه أن يصل إلى نتائج طيبة، إلا إذا كان لديه الوقت الكافي؟ وقبل أن يسند إلى رجل ما إعادة تنظيم شئون فريق من الناس، أو إنشاء مصنع للطائرات، يكون من الضروري الحصول على معلومات تامة عنه، والتأكد من أنه خير من يصلح لشغل المنصب.

غير أنه بعد أن يتم الاختيار، يجب أن يتاح له الوقت الكافي لاكتساب الخبرة، كما يجب الاحتفاظ به في منصبه، إلا إذا اتضح أن الرجل الذي وقع عليه الاختيار قد اختير بطريق الخطأ، وأنه غير جدير بذلك المنصب، والزمن عامل يخلق اتصالات لا حصر لها، ويسهل

استخدام النفوذ، وعندما سئل "ليوتي" عن سر نجاحه في مراكش، أجاب بقوله :"لقد ظللت بها ثلاثة عشر عامًا".

ولكن، كيف يستطيع المرء أن يوفق بين النظام وطول العهد بالمنصب، وبين استعمال الحق في الانتقاد استعمالاً حرًا؟ ألا يجوز أن ينقلب الزعيم غير محدود السلطة إلى طاغية أو مجنون؟.

لقد اخترع "آلدوس هكسلي" ما أطلق عليه اسم "لعبة القيصر". وفكر في أصدقائه، وسأل نفسه: من من القياصرة يمكن أن يكون "فلان" أشبه به، لو أنه أعطى السلطة العليا؟ ولقد نجح في هذا الاختبار قليل من الشخصيات... ومن الواضح أن النقد ضروري، ولكن ما هو الدور يستطيع، وينبغي، أن يلعبه؟.

في الجيش، وبصفة عامة، في كل الحالات التي يتعين فيها القيام بعمل، يجب أن تكون هناك طاعة مطلقة، ويجب أن يصدر النقد عن أولئك الذين بأيديهم أمر القيادة.

ولكن، في زمن الحياة العادية للوطن الحر، يكون النقد من حق الجميع، في حدود معينة ترسمها التجربة، وإذا أعربت الأمة عن رغبتها بوضوح، جاز تغيير زعمائها من حين إلى حين، ولكن لا ينبغي التشهير بهم، أو تغييرهم في فترات متقاربة أكثر مما هو ضروري، أو إخضاعهم لرغبة رجل الشارع.

وفي سبيل خلق حرية حقيقية، وهو عمل حقًا، يجب أن يكون هناك– فضلاً عن مجموعة صالحة من القوانين– تعليم صالح من الناحيتين الخلقية

والروحية، ومدى صلاحيتنا لأن نصير شعبًا حرًا، يتوقف على مدى مقدرتنا على احترام زعيم شرعي، وموافقتنا على وجود معارضة، والإصغاء إلى آرائها، ولاسيما وضع خير الوطن فوق كل الأغراض الحزبية والمصالح الخاصة، وليست الحرية من بين حقوق الإنسان المكتسبة التي لا يمكن أن تنتزع منه، بل هي كسب مرغوب ولكنه عسير المنال، ويجب أن يصارع من أجله على الدوام.

وهذه التربية تزداد الحاجة إليها بصفة خاصة بالنسبة إلى أولئك المقدر لهم أن يتزعموا، فبالإضافة إلى مقدرة الزعيم على السيطرة على غيره، يجب أن يكون لديهم شعور عميق بالواجب، وهو لا يستطيع أن يحتفظ بمركزه إلا إذا أثبت جدارته به كل يوم.

والرجل لا يكون زعيمًا صالحًا إذا كان لا ينشد سوى تحسين أموره الخاصة بعد أن يوضع على رأس مجموعة من الناس، أو مؤسسات المال والأعمال، وكذلك لا يكون الرجل زعيمًا صالحًا، إذا رضي بأن يتولى قيادة في الجيش، ثم وضع ملذاته فوق مسئولياته، وكذلك الحال فيمن يتولى الزعامة على آخرين، فيستسلم للغضب أو النفور، أو– من الناحية الأخرى– للمحاباة أو المحسوبية، وكذلك الحال في ذلك الذي يكون له نصيب في الاضطلاع بأعباء الشئون الخارجية لبلاده، فيضحي بمصالحها الدائمة في سبيل الأحقاد والمكائد الدولية.

إن اختصاص الطبقات المتزعمة هو التوجيه، أي الإرشاد إلى طريق الشرف والعمل.

والزعامة ليست امتيازًا، بل هي شرف للزعيم، وأمانة في عنقه!.

فن الشيخوخة

من أعجب الأمور أن تدرك الشيخوخة الناس، حتى أنه يصعب علينا في كثير من الأحيان أن نصدق أن الشيخوخة تستطيع أن تدركنا كما تدرك الآخرين.

وقد وصف "بروست" في كتابه "الزمن المعاد"– أبدع الوصف– ما يعترينا من الدهشة عندما تجمعنا المصادفة– بعد ثلاثين أو أربعين سنة– برجال ونساء كانوا فتيات وفتيانًا حينما كنا نحن كذلك أيضًا، وهو يقول في ذلك: "إنني لم أستطع أن أفهم أول الأمر لماذا أبطأت كل هذا الإبطاء في التعرف على صاحب المنزل وأضيافه، ولماذا خيل إلي أن جميعهم متنكرون، وكأنما لبسوا شعورًا مصطنعة قد عفرت بالمساحيق وغيرت مظهرهم كل التغيير... ولقد خيل إلى أن الأمير نفسه اتخذ لنفسه ما اتخذ ضيوفه من وسائل التنكر فالتحى بلحية بيضاء، وراح يجرر قدميه وكأنهما في حذاء من الرصاص ثقيل، وكان شاربه أبيض اللون أيضًا، كأنما تغطيه طبقة من الجليد، وبدا لي كأنه يزحم الطريق أمام شفتيه المطبقتين، وأنه كان ينبغي أن يزيله بعد أن أوفى على غايته من التأثير".

ولقد كان "بروست" يعرف الأمير في ريعان صباه. "وما كان يعنيني هو أنه كان صديقًا لي، فتى ظللت أعد سنوات عمره دون قصد، إذ شعرت بأنني لم أعش منذ ذلك الحين، فكان عددها مساويًا لعدد

سنوات عمري، وقد سمعت الناس يقولون أن مظهره يدل على عمره، وأدهشني أن أرى على وجهه بعض العلامات التي لا تظهر إلا على وجوه الطاعنين في السن، وعندئذٍ أدركت أن هذا كان سببه أنه طاعن في السن حقًا، وأن الحياة تجعل من الأطفال شيوخًا عندما يعيشون عددًا كافيًا من السنين".

أجل، إننا لا نرى، كأننا ننظر في المرآة، ما حدث في وجوهنا وقلوبنا، إلا إذا لاحظنا آثار الزمن على رجال ونساء في مثل أعمارنا، فنحن لا نزال في نضرة العمر، في رأي أعيننا، التي أنفقت معنا السنين، ولا تزال لدينا آمال الصبا ومخاوفه، كما أننا نغفل عن المكان الذي يشغله الجيل الناشئ.

وفي بعض الأحيان ندهش لسماع كلمة، يوجه إلينا الخطاب كاتب شاب فيقول: "يا أستاذي العزيز"، في حين نظن أنفسنا في مثل عمره، وعمر زملاء له على وجه التقريب.

ومن الأمور الأليمة سماع من يتحدث عن شابة فيقول: "لو لم تكن مجنونة لما رضيت بزوج كهل في الخامسة والخمسين من عمره، قد ابيض شعره!" حين نكون في الخامسة والخمسين، ولنا شعر أبيض، وقلب لا يريد أن تدركه الشيخوخة.

***

متى تبدأ الشيخوخة؟.

لطالما تصورنا أننا نستطيع الهروب منها، إن عقلنا يظل واعيًا كما أن قوتنا تظل سليمة فيما يبدو، ولقد قمنا باختبارات عديدة، "هل أستطيع أن أصعد ذلك التل، بنفس السرعة التي كنت أصعده بها في شبابي؟" أجل! إنني ألهث قليلاً لدى بلوغي القمة، ولكن الوقت الذي استغرقته هو نفس الوقت، كما أنني كنت من قبل ألهث قليلاً على الدوام.

والانتقال من الشباب إلى الشيخوخة شديد البطء، لدرجة أن من يطرأ عليه التغيير قلما ينتبه إليه، وعندما يتبع الخريف الصيف، ويتبع الشتاء الخريف، فإن التحولات تحدث تدريجًا حتى لتخطئها الملاحظة اليومية.

على أن الخريف يزحف في بعض الحالات– كالجيش الذي حاصر ""ماكبث– مختبئًا وراء أوراق الشجر في الصيف، التي لم يكد لونها يتغير، ثم تجئ عاصفة عاتية ذات صباح يوم من أيام نوفمبر، فتمزق القناع الذهبي عن وجه الحديقة، وتترك وراءها هيكل الشتاء العظمى الجاف، وتتشبث بأغصانها بألياف قليلة ضئيلة، وهكذا تكون العاصفة قد كشفت الستار عن الشر، ولم تتسبب فيه.

والمرض هو العاصفة التي تثور في غابة الإنسانية، وربما بدا الرجل أو المرأة صغير السن رغم تقدم سنه، ونحن نقول: "إنها مدهشة". أو

نقول: "إنه يفوق المعتاد". ونحن كذلك نعجب بنشاطهم، وحدة أذهانهم، ولباقتهم في الحديث، ولكننا لا نلبث أن نكتشف يومًا ما، بعد ارتكابهم حماقة لم تكن لتكلف شابًا في مقتبل العمر أكثر من صداع أو وعكة برد، أن العاصفة قد أطاحت بهم... نوبة قلبية أو نزلة شعبية، وقد يضمر الوجه في غضون أيام قلائل، وقد يحدودب الظهر، وقد تفقد العيون بريقها، وتستطيع لحظة أن تحيلنا رجالاً طاعنين في السن، ومعنى هذا أننا كنا نسير في طريق الشيخوخة زمنًا طويلاً.

فمتى يحدث في حياتنا تحول هذا الخريف؟.

قال "كونراد" إن الرجل حين يبلغ عامه الأربعين، يرى أمامه خطًا من الظل يعبره مرتعدًا، ويعتقد أن دنيا الشباب المسحورة قد أوصدت أبوابها في وجهه إلى الأبد. ونحن الآن نضع ذلك الخط من الظل في قرابة الخمسين، على أنه موجود على كل حال، وأولئك الذين يعبرونه، برغم نشاطهم وحدة أذهانهم، يتعرضون للرعدة الخفيفة ولحظة الجزع القصيرة، على نحو ما قال "كونراد".

على أن الشيخوخة أكثر جدًا من الشعر الأبيض، والتجعدات، والشعور بأن السيف قد سبق العذل، وأن المباراة قد انتهت، وأن خشبة المسرح قد أصبحت ملكًا للأجيال الناشئة.

فالشر الحقيقي ليس ضعف الجسد، بل هو ما يعتري الروح من قلة الاكتراث بالحياة، وعند عبور خط الظل، نفقد الرغبة في العمل، وليس المقدرة عليه.

ومن الممكن بعد خمسين عامًا من التجارب وخيبة الرجاء، أن يحتفظ الإنسان بفضول الشباب الدائب، والرغبة في المعرفة والفهم، والحب بكل ما في القلب من حرارة، والاعتقاد بأن الجمال، والذكاء، والشفقة، تتحد بحكم الطبيعة، والاحتفاظ بالإيمان بقوة العقل.

وبعد عبور خط الظل، تستطيع العين أن ترى الأشياء والناس على حقيقتهم في الضوء المناسب، حيث لم تعد تبهرها الأنوار الوهاجة الصادرة عن شمس الرغبة.

كيف تستطيع أن تؤمن بكمال أخلاق الحسناوات من النساء، بعد أن عشقت إحداهن؟ كيف يمكنك أن تؤمن بالتقدم، بعد أن عرفت في حياتك المديدة العسيرة أن التغير العنيف لا يمكن أن ينتصر على الطبيعة البشرية، وأنه لا شيء سوى أقدم العادات والطقوس، يستطيع أن يهيئ للناس ملجأ الحضارة، المبني من الورق الرقيق؟.

يقول الرجل الطاعن في السن: "ما الفائدة؟". ولعل هذه العبارة أخطر ما يمكن أن ينطق به، لأنه بعد أن يقول: "ما فائدة الصراع؟" سوف يقول يومًا ما: "ما فائدة الخروج من البيت؟" ثم يقول في يوم آخر: "ما فائدة مغادرة غرفتي؟". وبعد ذلك: "ما فائدة نهوضي من الفراش؟".

وأخيرًا يأتي اليوم الذي يقول فيه: "ما فائدة الحياة؟" وهذا يفتح أبواب الموت.

***

فيما عدا الكائنات التي تنجو من الموت بانقسام كل منها إلى كائنين جديدين، تدرك الشيخوخة كل كائن حي في وقت معين من عمره يختلف باختلاف أنواع تلك الكائنات.

فلماذا لا يعمر بعض أنواع الذباب سوى ساعتين، في حين يمكن أن تعيش السلحفاة أو الببغاء قرنين من الزمن؟ ولماذا يقدر لبعض أنواع السمك- مثل الكركى والسبوط- أن يعيش ثلاثمائة سنة، في حين أن كلاً من الشاعر بيرون والموسيقار موزار لم يعش سوى ثلاثين سنة؟.

"إن الإنسان لا يعلم ما يصنع الله".

منذ مائة سنة كان متوسط عمر الإنسان قرابة أربعين عامًا، وهو اليوم في أرقى الشعوب حضارة، قرابة ستين عامًا، وهذا تطور سريع يحدو بنا إلى الظن بأنه لولا الحروب والثورات التي تعترض سبيل الصحة، فسيكون العمر العادي للإنسان في القرن القادم مائة سنة، وهذا على أي حال لن يؤثر على مسألة الشيخوخة على الإطلاق.

على أن قسوة الرجال على الشيخوخة تزداد بازدياد قربهم من الطبيعة. والذئب العجوز يفرض احترامه على سائر ذئاب القطيع، ما ظل قادرًا على صيد فريسته وقتها.

وفي "كتاب الغابة" وصف الشاعر "كبلنج" ثورة الذئاب اليافعة على أخذها إلى المعركة بقيادة ذئب عجوز منهار القوى، ولقد كان اليوم الذي عجز فيه الذئب العجوز عن اقتناص الغزال، إيذانًا ببدء نهايته، فقد وضع بعض شباب الذئاب حدًا لبؤس العجوز الذي تساقطت أسنانه.

والرجال البدائيون في هذه الناحية يشبهون الحيوانات، يروي أحد الرحالة في القارة الإفريقية قصة رجل من زعماء القبائل جاءه متوسلاً إليه قائلاً: "أعطني شيئًا أصبغ به شعري، لأنهم لو رأوا أن رأسي يشتعل شيبًا لقتلوني". وفي قبائل معينة من قبائل جزر البحار الجنوبية، يرغمون شيوخ الرجال على تسلق أشجار جوز الهند، ثم يهزونها هزًا عنيفًا، فإذا استطاع الرجل العجوز أن يقوى على الاستمساك بالأغصان، أصبح له الحق في أن يعيش، أما إذا سقط، فإنهم ينظرون في قضيته، وينفذون فيه الحكم.

ومثل هذه العادات تبدو لنا وحشية ولكن عندنا نحن أيضًا أشجار جوز الهند، فإن الخطابة في الجماهير، وإلقاء المحاضرات، والقيام بأدوار على المسرح، إنما هي تجارب قاسية قد لا يلبث الجمهور بعدها أن يقول عن رجل الدولة، أو المؤلف، أو الممثل: "لقد انتهى". وهذا

بمثابة حكم الإعدام في حالات كثيرة. والسبب في ذلك إما أن يكون أن الفقر يصحب التقاعد، أو أن المرض ينجم عن اليأس.

والحرب هي شجرة جوز الهند بالنسبة إلى القائد، كما أن النساء الشابات هي أشجار جوز الهند بالنسبة إلى الشيوخ الفاسدين، ورجل الدولة الذي يحمل وزراءه على اختراق أطواق مشتعلة، كي يختبر مرونة مفاصلهم، إنما يتبع سياسة شجرة جوز الهند.

وفي الجماعات الأقل بدائية، لا يقتل من تدركهم الشيخوخة من الرجال، ولكنهم يعاملون بغلظة، ففي إقليم "مونتاني" يروون قصة فظيعة عن والد رأى ولده وهو يقوم بتجويف إناء خشبي، فسأله ماذا كان يصنع؟ فأجابه قائلاً: "إنه من أجلك، لتأكل منه عندما تصبح في سن جدي".

وتتحدث قصة أخرى عن والد شيخ سحبه ولده من شعره حتى باب المنزل، ولم يلبث عندئذ أن صاح به: "قف! لقد سحبت أبي حتى هنا فقط".

وبين الفلاحين، حيث الحياة أقرب إلى الطبيعة، تتحكم القوة البدنية إلى الآن في العلاقة بين الأجيال، أما بين سكان المدن، فإن انتصار الشباب يكون محققًا في أزمان الثورة والتغير السريع، لأن الشباب أسرع من الشيخوخة في المساوقة والملاءمة، والشبان اليوم يقودون الطائرات، كما كانوا بالأمس يقودون السيارات. وفي هذه الآونة،

لم يعد في وسعهم أن يمتدوا بأبصارهم- كما كان في وسعهم في عهود أكثر استقرارًا- إلى التأكد من الحصول على أعمال، واكتساب السلطة والثراء.

إن الشباب يتمثل فيه مجرد القوة، وهو يرفع الدعاة، مثل هتلر، الذي ينادون بأهداف بسيطة، ولا يتزعزعون عن الآمال الضخمة.

وعلى العكس من ذلك، الحضارات الغنية العريقة، فإنها تميل إلى أن يبسط عليها الشيوخ نفوذهم، حيث يتولى الشيخ مقاليد الأمور، لأنه في عالم لم يطرأ عليه أي تغيرات منذ عهد بعيد، تصبح التجربة مؤهلاً قيمًا.

وفي بلد مثل إنجلترا، يختزن الكثير من أحداث الماضي، وتحكمه العادات، نجد أن النصر والغلبة في جانب الشيخوخة.

وفي الصين القديمة، كان الشيوخ موضع عطف نبيل: "لا ينبغي أن يشاهد رجل أشيب الشعر، وهو يحمل أي شيء ثقيل في الطريق". وفي الصين الحديثة، بدأت هذه المشاعر والاعتبارات تتضاءل، وفي كل حكومة شابة، تزيد قيمة القوة على قيمة حكمة السلف، غير أنه لا يمكن أن تحتفظ أي حكومة بشبابها على الدوام، وكلما تقدمت بها السنون، ازداد احترامها للناضجين من الرجال.

والزعيم الذي يبني مستقبله على الشباب، لا يلبث أن يفقد الشباب، وهو يفعل مثل ما يفعل الذئب العجوز، إذ يحاول أن يخفي شعوره بالخزي، ويحافظ على عافيته، ويتظاهر بجسارة الشباب واندفاعه، ولكن الزمن لا يلبث بعد حين، قرب أو بعد، أن يجعل منه شيخًا، ثم جثة هامدة.

وهكذا الشباب والشيخوخة.. أرجوحة تتوالى حركاتها على إيقاع طبيعي. والظروف تتحكم في كل شيء، ولا فائدة في أن يتمنى المرء غير ذلك: تغيرات سريعة، مخترعات جديدة وغريبة، انتصار الشباب، الاستقرار والتقاليد، هيبة الشيخوخة، ولعل خير نظام بالنسبة إلى الجيلين، كان نظام "هوميروس" الذي وضعه للمحاربين: الأبطال الشبان يتولون القيادة، و"نستور" الحكيم يشغل منصب وزير الدولة.

على أن المشكلة أشد تعقيدًا بالنسبة إلى الفرد، فالشيخوخة تجلب مصاعب لا حصر لها، ولكني لا أعتقد أنها مصاعب لا سبيل إلى التغلب عليها، ومهما يكن من شيء فإن التغلب عليها يحتم مواجهتها في صراحة، وسأحاول أن أرسم صورة كاملة منفرة لتلك الشرور، وأناشد قرائي ألا يسمحوا لها بإخافتهم.

حين يكون لدى الطبيب مريض مصاب بداء وبيل، ومن ثم يعزم على اتخاذ احتياطات معينة، فإنه لا يلبث أن يقول: "هذا هو ما سيحدث لك، إذا لم تحرص على العناية بنفسك". ثم يأخذ في تعديد

أعراض، كل عرض منها أفظع من سابقه، وبعد ذلك يستطرد قائلاً: "ولن يحدث شيء من هذا، إذا أنت اتخذت الإجراءات الوقائية التي أقترحها عليك".

وهنا، إذن، ما يمكن أن تكون عليه الشرور التي تصحب الشيخوخة، والتي لن يصيبك شيء منها، إذا عرفت كيف تكون أسرع منها.

قبل كل شيء، باستثناء الحالات الخاصة، يكون الجسم الذي تزحف إليه الشيخوخة، أشبه بالمحر العتيق المجهد، وبفضل العناية الحذرة، والاختبار والإصلاح، يمكن أن تظل فيه المقدرة على العمل، ولكن لا يكون كسابق العهد به. ولا ينبغي أن يكلف ما يفوق طاقته من الجهد.

وبعد بلوغ سن معينة، يصعب العمل، ويصبح العمل اليدوي مستحيلاً في بعض الأحيان، كما يصبح العمل الذهني غير مستقيم، وفي قليل من الأحيان، يظل الفنانون محتفظين بموهبتهم حتى النهاية.

ولقد كتب "فولتير" روايته المعروفة "كانديد" وهو في الخامسة والستين، كما نظم "فيكتور هوجو" بعض القصائد الرائعة في شيخوخته، وأتم "جيته" الخاتمة البديعة لرواية "فاوست" الثانية وفرغ "فاجنر" من تأليف موسيقى "بارسيفال" وهو في التاسعة والستينن، وفي عصرنا، أعاد

"بول كلوديل" كتابة أثر من آثاره الأدبية الباقية، كان قد كتبه لأول مرة وهو في الخامسة والعشرين، وقد أعاد كتابته من الألف إلى الياء!

ومن جهة أخرى، فإن غير هؤلاء ينضب معين إلهامهم نضوبًا مبكرًا، وكثيرًا ما يكون السبب في ذلك هو أن مواهبهم كانت نتيجة لما تعرضوا له من المحن في بواكير أعمارهم، وأنهم لم يعنوا أنفسهم أبدًا بشئون العالم الخارجي.

إن القلب يسيطر على العقل.

قال "لاروشفوكو": إن الشيخوخة طاغية يحرم الاستمتاع بملذات الشباب، ويعاقب عليها بالإعدام، وقبل كل شيء، نجد أن ملذات الحب ممنوعة، لأن النساء والرجال متى أدركتهم الشيخوخة، واجهتهم أشد المصاعب التي تحول بينهم وبين إيحاء الحب– بالرغم من امتلائهم بقوة القلب وشباب الروح– إلى من يصغرونهم في السن، وعندما تحدث مثل هذه الغراميات، يجب أن يوضع موضع الاعتبار ذات الدور العظيم الذي يلعبه الاحترام، والإعجاب، وإنكار الذات.

ولقد طالما زودنا "بلزاك" بالشواهد والأمثلة. حين يقع الرجل الذي أدركته الشيخوخة في شراك الحب، ويا لها من مأساة! فالعاشق الشيخ إذ يجد نفسه مرغمًا على أن يكسب بفضل العطايا والمآثر ما كان يربحه بفضل جاذبيته الشخصية في أيامه الماضية، لا يتورع عن تحطيم نفسه من أجل كل شابة تستطيع بمهارتها أن توقظ في قلبه أملاً مجنونًا.

ونحن نجد أن "شاتوبريان"، الذي عرف حق المعرفة مثل ذلك العذاب، قد ترك مخطوطًا فظيعًا عنوانه "الحب والشيخوخة"، وهو تصوير مطول حزين، لحالة عاشق لا يعرف كيف يصبح شيخًا، "إن أولئك الذين أحبوا النساء كثيرًا سوف يحبونهن على الدوام وهذا هو عقابهم". والنساء اللائي أحببن الكثيرين من الرجال، يلقين عقابهن حين يسمعن من بين الشابات منهن من تقول: "لقد أخبروني بأنها كانت فيما مضى ساحرة الجمال".

وفي حالات كثيرة، يهرم القلب نفسه، إذ يحدث في الشيخوخة ذبول غريب. فهل يمكن أن يكون السبب في ذلك أن شهوة الجسد تعجز عن دعم المشاعر إلى الحد الكافي؟ أم أن السبب في ذلك هو أن إدراك قصر الحياة، قد أضعف الشهوة والميل؟.

على أن ما في بعض الشيوخ من أنانية، يثير الدهشة دائمًا، ولقد أنفق "آفيل" حياته بأسرها مع "يونيس". حيث أصبح عشيقها وهي في السابعة والعشرين، وأصر على أن تهجر زوجها، ولكنه لم يستطع أن يتزوجها لأنه كان هو أيضًا زوجًا لامرأة أخرى، ومن ثم تركت أسرتها، وأطفالها، وأصدقاءها، واحترامها، وتفانت في سبيل ملذاته، وعمله، ومستقبله، ثم كانت بينهما بعد العشق صداقة عمرت طويلاً، وعندما كان هو في الثمانين، وكانت هي في السبعين من العمر، كانا لا يزالان يلتقيان كل يوم، وأخيرًا، أدركتها المنية، فشعر كل من يعرفها ويعرفه، بالرثاء له، وراح الناس يقولون أنه سيموت كمدًا بعدها. ولكن... لم يحدث شيء

من هذا القبيل، فقد نجا من الصدمة التي أصابته بموتها وشيكًا، وكما أنه كان أكبر سنًا من أن يعشق، كان أكبر سنًا من أن يتعذب.

وأنانية الشيوخ هذه تحول دون مصادقتهم للشباب الذين يفتقدون الدفء، الذي إذا هو ليقترن بحنكة الشيخوخة، كان جاذبًا لهم.

والبخل أيضًا من علامات تقدم السن، ومن أسبابه الخوف من الاحتياج، فالرجل الهرم يعلم أنه ليس من اليسير عليه أن يكسب قوته، كما يعلم أن من العسير عليه أن يزاول عملاً شاقًا، ولهذا يحرص على ما عنده، ويحتاط لكل الاحتمالات، بمخابئ متعددة وخزائن مقفلة.

على أن للبخل أسبابًا أخرى، فكل مخلوق بشري لا بد من أن تكون له شهوة ما، وهذه الشهوة لا فرق فيها بين مختلف الأعمار، وهي– كما هو معروف– تتيح ملذات ممتعة: كإحصاء النقود، واستغلالها، ومتابعة تقلبات الأسواق المالية، والاحتفاظ بقليل من القوة على الرغم من ضعف الجسم.

والبخل يصبح بمثابة رياضة يستطيع عشاقها أن يحظوا بمسرات تفوق كل المألوف، من طريق التدرج في إزالة كل أسباب الإنفاق، وفي هذا الموضوع، يحسن أن تعيد قراءة "أوجيني جراندي".

قال "لابريير": "إن خوف العوز ليس هو ما يجعل المسنين من الرجال شديدي الحرص على المال، لأن منهم من عنده من الأموال

الطائلة ما يحول بينه وبين خوف العوز، وعلى أي حال فكيف يخافون الحرمان من أسباب الراحة في الحياة، في حين أنهم يحرمونها على أنفسهم طواعية واختيارًا، كي يرضوا شح أنفسهم؟".

إن هذه الرذيلة يرجع معظم السبب فيها إلى الشيخوخة، والرجل الطاعن في السن يميل بطبيعته إلى الاستسلام لها على نحو ما كان يستسلم للملاذ في عهد صباه، والطموح في عهد رجولته، والبخل لا يتطلب قوة، ولا شبابًا، ولا صحة جيدة. وكل ما يتعين على المرء هو أن يحتفظ بماله في خزائن متينة مقفلة، وأن يحرم نفسه من كل شيء! والطاعنون في السن يجدون في هذا ترضية لحاجتهم الأصيلة إلى شهوة ما.

وعيوب العقل تزداد في الشيخوخة، ومثلها في ذلك عيوب الملامح سواء بسواء. والرجل الهرم يعجز عن الأخذ بالأفكار الجدية، لأنه مفتقر إلى المقدرة على هضمها، ولهذا يتشبث في إصرار خبيث، بالآراء التي اعتنقها منذ عهد نضوجه الغابر، وهو يؤمن مزهوًا بمقدرته على معالجة أي مشكلة، ويثير غضبه أن يعارضه إنسان، ويعد ذلك انتقاصًا من الاحترام الواجب له، ولا يلبث أن يقول لمحدثه: "في أيامنا، لم نكن نعارض من هم أكبر سنًا منا أبدًا". وهو ينسى في ذلك أن هذه الكلمات نفسها كانت توجه إليه من جده.

ولما كان عاجزًا عن متابعة ما يدور من حوله باهتمام، حتى لا يتخلف عن ركب الزمن، فإنه يروي القصص عن ماضيه مرة بعد أخرى، مما يدخل الملل على نفوس سامعيه من الشباب، فينصرفون ويتحاشون لقاءه تمامًا آخر الأمر.

والوحدة شر بلايا الشيخوخة، حيث يختفي أصدقاء العمر والأقارب واحدًا بعد آخر، دون أن يجد المرء عنهم بديلاً، وتتسع الصحراء، والموت خليق بأن يكون مستحبًا، لو لم يكن اقترابه السريع، يهدد الناس بهذه الصورة الغامضة.

وهذا هو "تولستوي" الذي كان فنانًا بالغ الدقة، يرسم صورة تبهر الأنفاس، لامرأة لم تعرف كيف تتقدم بها السن:

"بعد أن فقدت ولدها، ثم فقدت زوجها قبل أن يمضي طويل وقت، وجدت نفسها على غير انتظار، منسية في هذا العالم- مخلوقًا بلا غاية أو هدف، كانت تأكل، وتشرب، وتنام، وتجلس، ولكنها لم تكن تعيش، لم يكن للحياة عليها أي تأثير.

لم تكن تريد من الحياة شيئًا سوى الراحة، ولم تستطع أن تعثر على الراحة إلا في الموت، ولكن عليها أن تعيش حتى يدركها الموت، أي أن عليها أن تستخدم كل حيويتها حتى ذلك الحين، ولقد تمثل فيها- إلى حد عظيم ملحوظ- صفات الأطفال الصغار الذين لم يشبوا عن الطوق، والشيوخ الطاعنين في السن، ولم يكن في حياتها أي هدف ظاهر، بل

كانت مشغولة– كما كان يبدو– بمجرد مزاولة أعمالها الفردية بما في بعضها من الشذوذ!.

"كانت تشعر بضرورة الأكل والشرب، والنوم قليلاً، والتفكير قليلاً أيضًا، والحديث وذرف بعض الدموع، والقيام ببعض العمل، وفقد أعصابها أحيانًا، وهكذا.. لسبب بسيط هو أن لها معدة، وعقلاً، وعضلات، وأعصابًا، وكبدًا.

"على أنها لم تكن تفعل كل هذا بوحي من أي دافع خارجي، أو كما يفعل الناس في عنفوان حياتهم، حيث يكون فوق، ووراء، الهدف الذي يكافحون من أجله هدف آخر ملحوظ، هو استخدام قوتهم.

"كانت تتكلم لمجرد شعورها بضرورة استعمال رئتيها ولسانها، وكانت تبكي كالأطفال لأنه كان لا بد لها من أن تتمخط، وما إلى ذلك، والأشياء التي يعدها المستمعون بكامل قواهم أهدافًا وغايات، كانت بالنسبة إليها مجرد أعذار وحسب.

"وحالة الطفولة الثانية هذه، قد أدركها أهل البيت جميعًا، وإن لم يتحدث عنها أحد قط، كما بذلت كل الجهود الممكنة في سبيل تحقيق رغباتها، وفيما عدا نظرات عارضة، تصحبها أنصاف ابتسامات حزينة، يتبادلها "نيكولاي" و"بيير"، كانت "ناتاشا" والكونتيسة "ماريا" تعربان عن فهمهما المشترك لحالتها.

"ولكن تلك النظريات كانت تنطق بشيء آخر كذلك، فقد كانت بمثابة تصريح بأنها قد لعبت دورها في الحياة، وإن ما كانت العين تراه منها الآن، لم يكن كله شخصها، وأن الكل سوف يصل إلى نفس الخاتمة آخر الأمر، وإن النزول على رغباتها كان مبعث سرور وارتياح: ما أكرم أن نضايق أنفسنا مرضاة لهذه المخلوقة التعسة، التي كانت فيما مضى عزيزة علينا إلى حد بعيد، وكانت ممتلئة بالحياة مثلنا!!.

"كانت تلك النظرات تقول: لا يعجز عن فهم هذا سوى الأشخاص المحرفين الحمقى إلى أبعد حد، والأطفال الصغار، ومن ثم يجدون ما يبرر التهرب منها!".

والشيخوخة تقضي على قوتنا، وتذهب بمسراتنا واحدة بعد أخرى، وهي كذلك تذوي الروح كما تذوي الجسد، وتجعل المغامرة والصداقة من أشق الأمور، وأخيرًا، يظللها التفكير في الموت.

إن فن بلوغ الشيخوخة عبارة عن مكافحة الشرور وجعل نهاية الحياة سعيدة على الرغم منها، ولكن، هل يكون هذا مستطاعًا حين تهاجم تلك الشرور جسم الإنسان؟ أو ليس كبر السن تغيرًا جسديًا طبيعيًا، يجب علينا أن نتقبله حين يطرأ، بقبول حسن، أو ليس في الإمكان كتابة قصة خرافية عنوانها: "الشجرة التي أرادت الاحتفاظ بأوراقها"؟ إنها تحاول الإمساك بها، وإلصاقها بأغصانها، ولكن عواصف الخريف تحيلها هيكلاً أسود مثل لذاتها، في الموعد المضروب.

ومهام يكن من شيء فقد تعلم الناس– بفضل الحضارة والتجربة– كيف يكافحون، إن لم يكن ضد الشيخوخة نفسها، فضد مظهرها على الأقل، وهنا تلعب الزينة دورًا رئيسًا.

والمتقدمات في السن من النساء يعرن ثيابهن من الأهمية أكثر مما تعيرها الشابات، وهذا أقرب إلى الطبيعة من كل شيء آخر.

والحلي البراقة تسترعي النظر، وتصرفه عن عيوب جسم من تتحلى بها. ولآلاء قلادة جميلة من اللؤلؤ، يجعل الإنسان ينسى العنق المتجعد الذي تحيط به. وبريق الخواتم والأساور يخفي عمر الأيدي والمعاصم، وعصابات الرءوس وأقراط الأذن، كزخارف الوشم عند القبائل البدائية، تبهر العين بحيث لا تنتبه إلى التجاعيد وقبح الأقدام.

وكل شيء يهدف إلى تعسير التمييز بين الشباب والشيخوخة، يعد من أعمال الحضارة وأكثر أجيال التاريخ تهذيبًا، قد ابتكر الشعر المستعار، وهو تكريم من الشعر.

وتأثير مساحيق الوجوه وأصباغ الشفاه، هو جعل النساء المتقدمات في السن يشبهن حفيداتهن، وجعل المرضى من الناس يشبهون الأصحاء منهم.

وبيوت حياكة الثياب، ومحال التجميل الماهرة، تبتكر من الأزياء ما ييسر على العجائز أن يحتفظن بالأمل، وبعد سن معينة، يكون فن ارتداء الملابس عبارة عن إخفاء عيوب الإنسان، وذلك ضرب من التأدب.

والنقاب ابتكار مبهر يخفي الصورة ويخلع على من تضعه على وجهها مسحة من الجمال، وكل زينة نقاب، يخفي خرائب الزمن بقدر المستطاع.

فهل يستطيع العلم يومًا ما، أن يحول بين الشيخوخة وتخريب أجسادنا والقضاء عليها؟ وهل يخلق نبع شباب يعيدنا ماؤه إلى ميعة الصبا حقًا؟.

لطالما قيل إن عمر الإنسان لا تدل عليه شهادة ميلاده، بل تدل عليه حالة شرايينه ومفاصله، وابن الخمسين قد يكون أكثر هرمًا من ابن السبعين، وعلى هذا فلا بد أن يكون من المستطاع جعل الرجل أصغر سنًا، بفضل المحافظة المادية على خلاياه.

ولقد نجح المشتغلون بعلم الأحياء في ذلك، في حالة بعض مخلوقات الطبقة المنحطة من الأحياء، فقد وجدوا أن بعضًا معينًا من أنواع الحيوانات الهلامية (الرخوة) إذا ما وضع في كمية صغيرة من ماء البحر، يسمم نفسه بإفرازاته نفسها، ومن ثم تدركه الشيخوخة بسرعة، في حين أنه إذا جدد له الماء كل يوم، تأخرت شيخوخته، ومن الجائز أن

تكون شيخوخة خلايانا راجعة إلى تراكم الإفرازات الفائضة، وأن يكون في وسعنا أن نطيل أعمارنا بالتخلص منها.

ولقد أمكن الاحتفاظ بشباب بعض الحيوانات باستئصال أعضاء معينة من أجسامها، أو حقنها بهرمونات معينة.

والجرذان التي تعالج بهذه الطريقة تستعيد فتوتها، وجاذبيتها، ونشاطها الجنسي، لمدة تبلغ قرابة شهر من الزمن، وأمكن إجراء أربع عمليات من هذا النوع، وبهذه الطريقة تطول حياة الجرذ بمقدار النصف، ويزيد استمتاعه بصورة ملموسة.

على أن آثار هذا العلاج تكون قصيرة الأجل على نحو مطرد، وتجارب الدكتور "فورونوف" على الكباش ذائعة الشهرة، ولا تزال نتائج تجاربه على الآدميين أقل منها نجاحًا.

ولكن كل هذا يبدو قليل الأهمية حين يكون في وسع أي رجل أن يعيش ثمانين أو تسعين سنة، إذا عاش سليمًا معافى، فهل تريد أن تطول أعمارنا إلى أكثر من ذلك؟.

في سن الثمانين، يكون الرجل قد خبر كل شيء: الحب ونهايته، والطموح وخواءه، وعدة معتقدات خرقاء، وتصويباتها، وخوف الموت لا يكون بالغ الشدة، كما أن العواطف والاهتمام، تكون منصبة على أشخاص قد أدركتهم المنية، وأحداث وقعت في الماضي.

وفي دار عرض الأفلام السينمائية التي لا ينقطع فيها العرض، يكون من حق المتفرج أن يحتفظ بمقعده كما يشاء، ولكنه في الواقع، حين تظهر المناظر التي سبق أن رآها على الشاشة من جديد لا يلبث أن ينصرف، ونفس الحوادث تتكرر كل ثلاثين سنة، ومن ثم تصير باعثة على الضجر، ولهذا ينصرف المتفرجون واحدًا بعد الآخر.

عندما أقام لفيف من المؤلفين الإنجليز حفلة تكريم للأديب المعروف "هـ. ج. ولز"، بمناسبة عيد ميلاده السبعين، ألقى فيهم خطابًا قال فيه إن تلك المناسبة قد أيقظت فيه شعوره وهو طفل، حينما كانت تقول له مربيته: "يا ولدي هنري، لقد حانت ساعة نومك".

والطفل يمتعض حين تحين ساعة نومه، ولكنه في أعماق نفسه يحس أن النوم سوف يستولى عليه، وأنه يريد تمامًا أن يستريح.

ولقد استطرد ولز" في خطابه إلى أن قال: "إن الموت مربية، حنون، صارمة، في آن واحد، وعندما يؤون الأوان، لا تلبث أن تقول لنا: يا ولدي هنري، لقد حانت ساعة نومك، ونحن نمتعض قليلاً، ولكننا نعلم حق العلم أن موعد الراحة قد حان، وأننا مشتاقون إليها في قرارة نفوسنا".

***

وإذا نحن لم نحزن أكثر مما ينبغي للتفكير في أن الحياة محدودة الأجل، كان في وسعنا على الأقل أن نرجو بلوغ النهاية ونحن أصحاء العقول والأبدان، وهذا مستطاع بغير شك.

وليس من الضروري أن تكون الشيخوخة مصحوبة بالمساوئ المتعددة التي سبقت الإشارة إليها، فكثير من الحيوانات يموت دون أن يطرأ عليه أي تغير جسدي جوهري في انتقاله من الحياة إلى الموت، والجسد المدرب تدريبًا جيدًا يظل محتفظًا بمرونته ورشاقة حركته زمنًا طويلاً.

والسر في ذلك هو عدم إهمال النفس أبدًا، والشيء الذي تم عمله بالأمس، يمكن أن يعاد عمله اليوم، أما ما يبطل، فلا يمكن استئنافه.

ومن المستطاع تحقيق الأعاجيب بفضل المران والمواظبة، وكثيرون من الرجال قد بلغوا السبعين وما زالوا قادرين على مزاولة الملاكمة أو السباحة أو لعب التنس أو الشيش، والطريقة المثلى هي المران المنتظم حتى آخر لحظة ممكنة وليس في فترات متقطعة، أو إرضاء لنزوات طارئة.

ومن المستحيل وقف زحف الشيخوخة متى بدأت زحفها، ومن المستحب كثيرًا أن ننكر على الشيخوخة استيلاءها على أجسامنا، وهو كذلك من ميسور الأمور إلى حد كبير.

ويقول في ذلك "مونتاني": ما أسهل إطالة أجل ضعف الشيخوخة، من طريق إدراك ذلك الضعف قبل الأوان، وأنا أفضل أن أكون شيخًا هرمًا لمدة طويلة، على أن تدركني الشيخوخة قبل الأوان.

ولا ينبغي أن يكف المرء عن نشاطه البدني أو العاطفي قبل الأوان، والقلب كالجسم، هو في حاجة إلى المران، ومن الطبيعي أنه لا يمكن تحريك العاطفة بطريقة متعمدة، ولكن لماذا يكون مجرد تقدم السن سببًا في أن ينكر المرء على نفسه تلك العواطف التي يمكن التمرس بها تمرسًا حقيقيًا أصيلاً؟.

لأن الشيوخ إذا عشقوا صاروا موضع الزراية والسخرية؟ إنهم لا يكونون كذلك إلا إذا نسوا أنهم شيوخ طاعنون في السن، ولا شيء يدعو إلى السخرية في أمر شخصين هرمين إذا كانا متحابين حبًا صادقًا، فكل منهما لا يزال يجد في الآخر تلك الصفات التي كانت موضع الإعجاب في زمن الشباب، فالرقة في المعاملة، والحنان، والإعجاب، ليس لها سن.

والواقع أنه كثيرًا ما يحدث، بعد أن يذهب الشباب وعواطفه الملتهبة، أن يطغى على الحب شعور جميل من التفاني وإنكار الذات، فيختفي سوء التفاهم الحي باختفاء الرغبة الجدية، كما تختفي الغيرة باختفاء الشباب، ويضعف العنف بضعف قوة الجسد.

وقد تتكون من بقايا الشباب العاصف بشيخوخة لطيفة وادعة، وعلى هذا تكون حياة الرجل والمرأة معًا، أشبه بنهر تتدفق مياهه تدفقًا مخيفًا من فوق صخور مدببة الرءوس بالقرب من منبعه، ولكن مياهه الصافية لا تلبث أن تتهادى متباطئة قبل وصولها إلى البحر، حيث تنعكس على سطحها العريض صور أشجار الشاطئين ونجوم السماء.

والحب في الشيخوخة يمكن أن يكون صادقًا ومؤثرًا كالحب في الشباب سواء بسواء، إذ يكون فيه نقاء الصداقة، كما يكون فيه مثل ما في حب الشباب من شدة القلق.

ويحدثنا "فيكتور هوجو" عن مدى تأثره عندما رأى "مدام ريكامييه" مع "شاتوبريان" جنبًا إلى جنب، بعد أن أصيبت بالعمى وأصيب هو بالشلل، فيقول: "كانوا يحملون المسيو "دي شاتوبريان" إلى حيث يجلس بجوار سرير "مدام ريكامييه". ولقد كان ذلك منظرًا مؤثرًا إلى أبعد حد، فالمرأة التي لم يعد في وسعها أن ترى شيئًا، كانت تتلمس الرجل الذي لم يعد في وسعه أن يحس شيئًا، وكانت يداهما تلتقيان! تبارك الله- كانا قريبين من الموت، وكان كلاهما لا يزال يحب الآخر!".

وكان الوزير الإنجليزي المشهور "دزرائيلي" يجر نفسه جرًا إلى المجتمعات كل ليلة، ليظفر بنظرة إلى "الليدي برادفورد". ولا شك في أنها قد سببت له قدرًا معينًا من العذاب، ولكن "دزرائيلي" كان رجلاً خياليًا إلى أبعد حد، وكانت هي هدف آخر أحلامه.

ومن واجب النساء أن يستخدمن سحر إغرائهن في تحريك أوهام الشيوخ الطاعنين في السن، لتمتلئ أيامهم الأخيرة بوساوس الشباب الساذجة، وكم من مرة خيل للناس أن حياتهم العاطفية قد انتهت إلى الأبد، ثم عادت شعلتها فجأة بصورة تبعث على الدهشة!.

وفضلاً عن هذا فإن الحياة العاطفية ليست مجرد مشاعر غرامية وحسب، بل هي أبعد ما تكون عن ذلك، فحب الشيخ الهرم، لأبنائه وحفدته، يستطيع أن يملأ كل أفقه في أحيان كثيرة، وما أجمل أن نتأمل أبناءنا وبناتنا وهو يحيون حياتهم ونحن نستمتع بما يدخل الغبطة على نفوسهم، ونتألم حين يتألمون، ونحب حين يحبون، ونشترك في معارك كفاحهم.

وكيف يمكن أن نشعر بأننا دخلاء على لعبتهم في حين أنهم يلعبونها في بيتنا؟ وكيف يمكن أن نشعر بالشقاء حينما يكونون سعداء؟.

وبعد سرورنا باكتشاف الشعراء الذين نحبهم، ألا نجد مزيدًا من المتعة حين نتأمل أبناءنا وهم ينعمون بقراءة ما نعطيهم من الكتب؟.

وعندما تعجز الحياة عن أن تتيح لنا مزيدًا من مباهجها بسبب شيخوختنا، هل يمكن أن يتصور المرء متعة أعظم من إدخال السرور على نفوس أولاده؟.

والأجداد في كثير من الأحيان أكثر انسجامًا مع حفدتهم منهم مع أبنائهم. فالشيخ الهرم الذي طلق حياة النشاط، يستعيد ما كان له في طفولته من الحياة والنشاط، والمرح والاستهتار، فهو دائمًا على استعداد للّعب، ورواية القصص، والإصغاء إلى الأسرار، وحتى قوة الطفل تكون مساوية لقوته هو، فهو لا يستطيع أن يجري مع ولده، ولكنه يستطيع أن يمشي بخطى متعثرة مع حفيده، فخطواتنا الأولى وخطواتنا الأخيرة، لها نفس القيود.

وكذلك ليس بالصحيح ما يقال عن وحدة الشيخ الهرم بحكم الضرورة، على أنه لا مندوحة له عن الشعور بالوحدة إذا كان اهتمامه محصورًا في نفسه، أو شديد البخل، أو ميالاً إلى السيطرة، أو ضعيف العقل، ولكنه إذا كافح عيوب الشيخوخة المألوفة، وصح عزمه على أن يكون كريمًا، متواضعًا، غير ضنين بالعطف، فإنه لن يلبث أن يجد من الشبان من ينشدون صداقته ويرجون الانتفاع بخبرته. والصعوبة التي تواجهه إنما هي تزويدهم بهذه الخبرة – التي بفضلها أصبح رجلاً غير واهم أو غير مخدوع على الأقل– دون نيل من مدى حماسة الشباب الطبيعية.

على أن الخبرة لا تعلمنا أن كل حماسة حماقة فنحن نتعلم منها أن ننتظر النتائج ببساطة، لا من الكلمات الرنانة، ولكن من العمل الشاق والشجاعة الفائقة. والشباب خليق أن يتقبل مثل هذه التعاليم، من رجال جديرين بأن تصدر عنهم.

وفي منتصف شهر ديسمبر تقريبًا من كل سنة، أسير في طريق "لاتوربي" الذي يقوم على حافته المرتفعة بيت صغير كبيوت الفلاحين الرومانيين، يسكنه السياسي المؤرخ "مسيو جبريل هانوتو". وهناك شجرة زيتون عالية تجعلني أفكر في "فرجيل".

وعلى رغم أعوامه الخمسة والثمانين، يصعد صاحب البستان المنحدر العميق المؤدي إلى أشجار البرتقال بسرعة تفوق سرعة الكثيرين ممن يصغرونه في السن، وما يلبث أن يقول بصوت عذب النبرات: "لقد علمتني جدتي أن أتكلم الفرنسية كما كانوا يتكلمونها في زمن لويس الخامس عشر، ولقد علمتها جدتها هذه اللغة".

وتفكير المسيو "هانوتو" يشبه لهجته، من حيث الجمع بين القديم والحديث. "سأعطيك قليلاً من النصائح، كي ترددها كلما شعرت بحاجة إلى ما يطيب خاطرك، وهي بسيطة وعظيمة الأثر، وهذه هي: أي شيء يجوز أن يحدث... كل شيء ينسى... كل صعوبة يمكن التغلب عليها.. لا أحد يفهم أي شيء.. إذا عرف كل إنسان ما قال كل إنسان عن كل إنسان لما تحدث إنسان إلى إنسان".

وهذا المثل الأخير، الذي يسحر عقلي، قد انتزع الأثر اللاذع من شائعات كثيرة أليمة.

ويستأنف الشيخ الفيلسوف إلى حيث يقول: "فوق كل شيء لا تخف أبدًا، فإن العدو الذي يرغمك على التراجع، يكون هو نفسه خائفًا في نفس اللحظة بالذات".

فدراسة التاريخ، والحياة المديدة، قد علمتا هذا الرجل الثقة بالنفس والهدوء، لا اليأس وقلة الاكتراث، فهو في الخامسة والثمانين، يضع الخطط العديدة للمستقبل، ويفكر في القيام برحلات طويلة متعددة، وهو يبني، ويرسم المشروعات.

وعلى هذا النحو، قال لي المارشال "ليوتي" بعد أن انتهى معرض المستعمرات: "وماذا عسى أن أفعل الآن؟" فقلت له: إن من المحقق أن الحكومة سوف تجد وسيلة ما للانتفاع بكم، فصاح في وجهي قائلاً: "ولكن متى؟. إنني سأبلغ الحادية والثمانين قريبًا، ويجب أن أبدأ في أداء عملي الجديد على الفور".

وهذا هو الموقف السليم من الحياة، ولقد قيل إن الشيخوخة هو الشعور بأن قد سبق السيف العذل، وأن المباراة قد انتهت، وأن خشبة المسرح قد صارت الآن ملكًا للأجيال القادمة، وأن نقمة الشيخوخة الحقيقية ليست في أن يذوي الجسد، بل في أن يصبح الروح قليل الاكتراث، لا يبالي الحياة، وهذا ما يجب علينا- وما نستطيع- أن تكافحه.

والرجال تدركهم الشيخوخة بسرعة أقل، إذا ظلت تربطهم بالحياة أسباب قوية، ومن اليسير أن نصدق أن الرجل ينهكه ويقضي عليه أن يحيا حياة عاصفة، زاخرة بالمشاعر العنيفة، والكفاحات، والدراسات، والبحث الذي لا ينتهي، والواقع أن العكس من ذلك يبدو أنه هو الصحيح.

لقد كان كل من كليمنصو وجلادستون قد تجاوز الثمانين من عمره عندما تولى رياسة الوزارة، وكان كلاهما يتمتع بحيوية، دافقة مدهشة، وما بلوغ الكبر إلا عادة سيئة لا يجد الرجل المشغول في وقته متسعًا ليتعودها.

ولكن كيف يتسنى للرجل أن يظل مشغولاً؟ أفلا يصعب عليه العثور على عمل عندما تدركه الشيخوخة؟ وهل من الوسائل المثلى أن يتولى الشيوخ الهرمون مقاليد الحكومات أو إدارة الأعمال؟.

في حالات كثيرة يكون الشيخ أفضل إدارة من الشباب، ولقد أنقذت روما على يد "فابيوس" الهرم، وفي حرب سنة ١٩١٤ كانت جيوش الحلفاء وجيوش أعدائهم معًا، تحت قيادة جنرالات طاعنين في السن، ولم يطلب "أجاممنون" عشرة رجال من طراز "آجاكس"، بل من طراز "نسطور"، ولقد كان متأكدًا من سقوط طروادة، لو أنه حصل على أولئك الرجال العشرة.

والدبلوماسيون والأطباء كبار السن تكون من مزاياهم التجربة المتأصلة في النفوس، فضلاً عن الحكمة، ومن ثم لا يتأثرون بعواطف الشباب ويكونون قادرين على أن يصدروا أحكامهم بدقة وهدوء.

يقول "شيشرون": "إن الأشياء العظيمة لا يمكن إدراكها بالقوة البدنية وخفة الحركة، بل بالمشورة، والسلطة، والحكمة الناضجة التي لا تنقص الشيوخ، بل توهب لهم بسخاء عظيم".

***

وهناك طريقتان مرضيتان لتقدم السن، الأولى هي عدم التقدم في السن، وهي طريقة الرجال الذين ينجون من الشيخوخة، بفضل حياتهم الحافلة بالنشاط. وهذا هو مغزى أسطورة "فاوست"، التي أكملها الشاعر "جيته" في ختام قصيدته.

لم يفد "فاوست" الهرم شيئًا من وراء استعادته مظهره الشاب، فقد خدعه الحب والطموح، ولكن العمل ينقذه آخر الأمر، فبالرغم من عماه وقرب منيته، راح "فاوست" يكدح في تجفيف بحيرة آسنة بالماء، وتحويلها إلى مرعى، وهو يستعذب سلفا طعم متعة النجاح والتحرر، قبيل أن تدركه الوفاة، وإذ يتأهب "معستلوفيلس" لتسلم الروح التي اشتراها، تهبط المائكة وتحمل الجزء الخالد من "فاوست" إلى الجنة، ذلك الجزء الذي لم يتزعزع إيمانه قد بمقدرة العمل، وبفضل هذا الإيمان حظي بالخلاص.

والطريقة الثانية لتقدم السن على الوجه الصحيح، هي تقبل الشيخوخة في هدوء ورضا، مما يؤدي بالمرء إلى السعادة، فلقد مضى زمن من الصراع، وانتهى اللعب في المباراة، ورقدة الموت أصبحت قيد خطوة، ولم يعد للنكبات ما كان لها من أثر أليم.

وعندما سئل "سوفوكليس" الهرم عما إذا كان لا يزال يستمتع بملاذ الحب، أجاب بقوله: "فلتحفظني الآلهة من ذلك! لقد حررت نفسي من الحب، فكأنني حررتها من عبودية سيد متوحش لا يرحم".

ولقد قابلت عددًا من الشيوخ الهرمين كانوا من الحكمة بحيث يشبهون الحكماء الذين نراهم في أحلامنا، فهم بفضل تحررهم، ليس من نزوات الحب فحسب، بل من تبعات المستقبل أيضًا، لا يحسدون الرجال الذين يصغرونهم في السن، بل يشفقون عليهم من أنه لا يزال عليهم أن يخوضوا بحار الحياة المضطربة، ولما كانوا محرومين من بعض المسرات أعظم الاستمتاع، وهم يعرفون كيف يمكن أن يكون النصح غير ذي جدوى، ويدركون أن كل إنسان يجب أن يعيش حياته الخاصة.

ونحن يسرنا أن نصغي إلى ذكرياتهم لأنها تنجينا من انتقادهم، وبين الحين والحين، عندما تصبح الأمور أكثر صعوبة مما نستطيع مواجهته، نطلب إليهم أن يستأنفوا زعامتهم لنا، ويزيد من رغبتنا في ذلك أن الجميع يعلمون زهدهم في هذه السلطة.

وهناك أكثر من طريقتين لتقدم السن على وجه غير مرض، وأسوأها التشبث الدائم بما لا يمكن الاحتفاظ به.

وما أكثر رجال الأعمال الذين يرفضون التنازل لغيرهم عن بعض سلطاتهم، والذين يجعلون من أبنائهم مجرد عبيد لهم! في حين أن هؤلاء كانوا خليقين بأن يمنحوهم الحب والاحترام، لو أنهم كان لهم من الحكمة ما يجعلهم يشركونهم في تحمل مسئولياتهم.

وما أكثر البخلاء من الآباء الذين يرغمون أطفالهم على أن يعيشوا في ضنك، حتى يتشبثوا بأيديهم المرتجفة برموز المسرات التي لم يعودوا قادرين على الاستمتاع بها!.

وما أكثر من يتفانون في الطموح حتى تتسم حياتهم إلى آخر أيامهم- بالغيرة وعدم القناعة!.

وفن تقدم السن هو الفن الذي هدفه أن تنظر الأجيال القادمة إلى الإنسان نظرتها إلى عون وسند، لا إلى جدار ينهار... نظرتها إلى مستودع أسرار، لا إلى منافس.

***

وللتقاعد عن العمل حديث ذو شجون، وبعض الناس لا يقدرون على حياة التقاعد لأنهم لم يهيئوا لها أنفسهم، وبالنسبة إلى رجل محتفظ بما في نفسه من حب الاستطلاع، يمكن أن يكون التقاعد في سن

الشيخوخة أمتع فترة في حياته، ولكن عليه أن يدرك تفاهة الشهرة الشعبية، وأن يلتمس السكينة في غمرة الدعة، كما أن عليه أن يحتفظ برغبته في المعرفة والفهم، وفي قريته، أو حديقته، أو بيته، يجب أن يشغل فراغه بعمل شخصي معين.

والرجل الحكيم بعد أن يعطي كل نشاطه للخدمة العامة، يعمد في شيخوخته إلى التفرغ تمامًا لشئونه الخاصة والعمل على تحسين أحوالها، وهذا يكون أسهل عليه، إذا كان قد استطاع الإقبال على الشعر، وعلى مواطن الجمال في الطبيعة، حتى في أشد سنوات عمره ازدحامًا بالعمل.

أما عن نفسي، فإنني لا أستطيع أن أتصور شيخوخة أمتع من تلك التي يقضيها الإنسان في ريف غير سحيق جدًا، حيث يمكنه أن يعيد قراءة كتبه المفضلة، والتعليق عليها، وقد قال "مونتاني": "إن العقل ينبغي له أن يتفتح في الشيخوخة، كما تزدهر شجيرة "الدابوق" على شجرة سنديان قد ماتت".

والموتى أصدقاء يعجز الموت عن انتزاعهم منا، والكتاب العظماء رفقاء خالدون، يستطيعون أن يجملوا شيخوختنا كما أسعدوا أيام صبانا.

والموسيقي كذلك صديق مخلص إلى حد يفوق الوصف، وهي بالنسبة إلى أولئك الذين فقدوا منا إيمانهم بالطبيعة الإنسانية، ملجأ ينعمون فيه بعوالم أخرى ممتعة.

ومنذ وقت غير طويل، عندما كانت تعزف سيفمونية بتهوفن السابعة، عزفًا جميلاً بوجه خاص، أمعنت النظر إلى وجوه السامعين من حولي... كان الجميع، كبارًا وصغارًا، في نشوة غامرة من السرور، ومن الطبيعي أنه كانت بينهم جماعة مبعثرة هنا وهناك في المغرورين، والمتعبين، والمرضى، ولكنهم لم يكونوا أقل سرورًا من الآخرين، فلقد أقبلت عليهم أمواج من الأصوات، وعانقهم رذاذ رطب من النغم، واستطاعت عبقرية المؤلف الموسيقي أن تفك أسرهم وترد إليهم حيويتهم، ولقد شاطرتهم السرور، ووجدت نفسي في انسجام تام مع عظماء الماضي الذين أعدوا العدة لكي تكون وفاتهم مصحوبة بالموسيقى التي أحبوها أعظم الحب.

يقول "باسكال": "الرجل السعيد هو من يبدأ حياته بالحب، ويختتمها بالطموح" ، على أن حياته يمكن أن تكون أوفر حظًا من السعادة، إذا هو بعد إرضاء طموحه ختمها في هدوء، وبهذا يستطيع الرجل أن يجتاز خط النور، بعد اجتيازه خط الظل بعشر سنوات أو عشرين، في سن الخمسين، ولقد خيل له أن هجمات الشيخوخة الأولى مؤلمة، وكان من الصعب على نفسه أن يجد أن الأفكار التي كان يظنها ملكًا له، لقد اعتاض عنها أفكارًا جديدة، وبلبلتها شخصيات وافدة، ولكنه الآن ينعم بالهدوء، ويشعر بالسعادة لكونه متفرجًا يقظًا محايدًا، وتكفي قسمات وجهه الراضية، ونظرته الناطقة بالصراحة الباسمة، للدلالة على حالته المعنوية، كلا! ليست الشيخوخة جحيمًا يجب أن يكتبوا على بابه: "أيها الداخل، اترك كل أمل".

وأسباب اليأس التي يعتقد الشيخ الهرم أنها لديه، قد وضعت موضع التحليل، وسرعان ما ظهر أن ليس بينها ما يستعصى على العلاج، وإذا كانت الشيخوخة مصحوبة بضعف، فالمسألة إذن مرجعها إلى الصحة، فهنالك شيوخ ملحوظو القوة، كما أن هناك شبابًا ضعفاء متكاسلين.

والناس ينكرون على الشيخوخة كثيرًا من الملذات، ولكن ما لا ينكرونه عليها من الملاذ فيه مزيد من الجمال مرجعه إدراك كونها قصيرة الأجل، وهم يقولون إن الشيوخ يجدون صعوبة في العثور على أعمال، ولكنهم كثيرًا ما يعملون، ويتزعمون، ويحكمون، خيرًا مما يفعل الشباب، وهم لا يكونون بغير أصدقاء، بل الأمر على العكس من ذلك، يحاطون بهم إن كانوا أهلاً للصداقة، وأخيرًا فإن خوف الموت في سن الشيخوخة يمكن التغلب عليه بقوة الإيمان والفلسفة.

***

وهناك طريقتان جيدتان للموت: طريقة "الأبيقوري" الذي يعتقد أن الموت لا شيء، وطريقة الرجل المسيحي الذي يعتقد أن الموت كل شيء.

ويقول "أبيقور": "عود نفسك على فكرة أن الموت لا شيء، فيما يتصل بنا، فالخير والشر مجرد مسألة اعتبارية، والموت معناه فقد كل الاعتبارات، وإدراك أن الموت لا شيء، من مباهج الحياة الفانية... والحياة لا تدخر أي أهوال لمن يفهم حق الفهم أنه ليس هنالك شيء بعد نهايتها... فليس هناك موت ما دمنا لا نزال على قيد الحياة، ونحن لا نكون أحياء بعد أن يدركنا الموت".

والفيلسوف المسيحي لا يخاف الموت لأنه يعتبره مجرد انتقال يؤمن بأنه سوف يلقى بعده أولئك الذين كان يؤثرهم بحبه، ويستمتع بحياة أفضل من حياته اليومية إلى ما لا نهاية.

وليس بالمستغرب أن يموت القديسون والأبطال ميتات نبيلة، وبغض النظر عن العظماء، فإن هناك نبلاً في موت العامل المجتهد، الذي يؤدي عمله حتى النهاية.

والكتّاب تحيط بوفاتهم العظمة، وإن المرء ليتذكر كيف حفلت اللحظات الأخيرة لكل من بلزاك وبروست بالشخصيات التي أبدعها خياله، ولقد ظل أحدهما يهتف باسم الطبيب "بيانشون"، بينما ظل الآخر يكتب بخط مضطرب اسم "فورشيفي".

ومات شارل الثاني ملك إنجلترا ميتة ملك، و"جنتلمان". وقال لمن حوله وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: "لقد قضيت في الاحتضار زمنًا طويلاً، أرجو أن تسامحوني".

ولما سئل "ريشيليو" عما إذا كان يريد أن يصفح عن خصومه، قال: "ليس لي أعداء سوى أعداء الدولة".

وقد أعرب "كورو" عن أمله الصادق في أن يتمكن من مزاولة التصوير في الجنة، وقال الموسيقي "شوبان" عند احتضاره "اعزفوا ألحان موزار إحياء للذكرى". ومات نابليون كما ينبغي أن يموت الزعيم، وهو يتمتم بقوله: "فرنسا... جيش ٩٩ قائد الجيش".

وفي بعض الأحيان تستأثر المهنة بكل تفكير الرجل حتى تكاد تعيش من بعده، كان الفيلسوف "هال" طبيبًا، وقد ظل يجس نبضه حتى النهاية، وقال لأحد زملائه: "يا صديقي! لقد كف شريان القلب عن الخفق". وكانت هذه العبارة آخر كلماته.

وكان "لانيني" العالم الرياضي قد نشر في بداية القرن الثامن عشر، طريقة مبتكرة وموجزة، لاستخراج الجذور التربيعية والتكعيبية، وعندما حضرته الوفاة خيل لمن حوله أنه في غيبوبة، ولم يعد يستطيع التمييز بين أصدقائه، وقد مال عليه أحدهم وقال: ما هو الجذر التربيعي للعدد مئة وأربعة وأربعين؟ فأجاب بقوله: "اثنا عشر"، ثم أسلم الروح.

قال "مونتاني": "لو أنني كنت مؤلف كتب، لوضعت كتابًا يصف صورًا متعددة من لحظات الوفاة، وقد صنف اثنان من الكتاب الإنجليز هما "بيريل ولوكاس"، الكتاب الذي تمنى "مونتاني" تصنيفه، وإن قراءته لتزيد من احترام المرء للشجاعة الإنسانية، فليس في صفحاته إلا القليل من ذكر الجبن، "الموت– يوم– لا أكثر... ففي نعاس الموت هذا، ماذا عسى أن تكون الأحلام؟".

قد لا يكون هناك مزيد من الإجابة على سؤال "هاملت" الرهيب، ولكن المفيد أن نعلم أن آدميين كثيرين في كل جنبات الحياة، قد وجهوا نفس السؤال بشجاعة.

فن السعادة

يتحدث "فونتينيل" في كتابه عن السعادة، فيعرفها بأنها هي الحالة التي يود المرء أن يظل فيها دون تغيير على الإطلاق، ولا شك أننا إذا استطعنا أن نصل إلى حالة فكرية وجسدية تجعلنا نقول لأنفسنا "أتمنى لو أبقي كل شيء على حاله إلى الأبد!". وكما قال "فاوست" للحظة التي كان فيها سعيدًا "امكثي حيث أنت، أيتها الجميلة، فائقة الجمال". إذا استطعنا ذلك فنحن سعداء بغير شك.

ولكننا إذا كنا نعني بكلمة "حالة" مجموعة الظواهر التي تشغل إدراك الشخص في لحظة، فإن هذه الفترة التي لم تتغير، تبدو مستحيلة على التفكير، بل يستحيل الشعور بها كفترة من الزمن، فكيف لا يكون هناك تغيير، في حين أن العناصر التي تتكون منها تلك السعادة التامة، شديدة الضعف؟.

ولو أن المسألة كانت تتصل بشخص، لأمكن أن يتدخل الموت، ولو كانت مسألة موسيقى، لأمكن أن تتوقف ألحان الموسيقى، ولو كانت مسألة كتاب، لأمكن أن تقرأ صفحته الأخيرة آخر الأمر، ونحن قد نريد أن نبقى حالة ما فترة من الوقت دون تغيير، ولكننا نعلم أن هذا البقاء مستحيل، ونعلم أيضًا أننا إذا استطعنا أن نبقي اللحظة على حالها، فإن

السعادة التي جلبتها علينا سرعان ما تتضاءل، لأن الجدة تكون قد ذهبت.

وعلى هذا يكون من واجبنا أن نميز بين العناصر التي تجعلنا في حالة سعادة، تلك العناصر العديدة التي تستطيع التغيير دون أن تنال منها، وتلك العناصر الضرورية لفترة بقائها.

وفي رواية تولستوي "آنا كارنينا"، يسير "ليفين" في شوارع المدينة، بعد عقد خطبته مباشرة، مبديًا إعجابه بكل شيء: فالسماء أشد زرقة، والأطيار تغرد بأصوات أكثر عذوبة، وحارس الباب ينظر إليه نظرة فيها مزيد من المودة، ولكن "ليفين" في ذلك اليوم، كان يمكن أن يشعر بسعادة مماثلة في أي مدينة أخرى، وأن يراها وأهلها على مثل ذلك الجمال، ففي ذات نفسه نور يسطع على كل شيء، وهذا النور الداخلي هو سر سعادته.

وليست الأشياء والأحداث التي يراها المرء ويستمتع بها هي منبع السعادة. ولكن منبعها هو حالة عقلية تستطيع أن تضفي صفاتها على الأحداث، ومن واجبنا أن نتمنى لهذه الحالة طول البقاء، بدلاً من أن نتمنى عودة الأحداث السارة.

فهل هذه الحالة فعلاً حالة داخلية؟ وهل نستطيع أن نميزها بغير التغيرات التي تتركها في الأشياء الخارجية؟.

إننا إذا نحن استبعدنا الإحساس والذاكرة من أفكارنا، فإنه لا يتبقى لنا سوى فراغ ليست فيه كلمة واحدة! فأين يمكن العثور على البهجة الخالصة والسعادة الصافية؟.

وكما هي الحال في بعض أنواع الأسماك المضيئة، التي ترى المياه العميقة، وأعشاب البحر، والأحياء المائية الأخرى، يسطع عليها النور كلما اقتربت منها، ولكنها لا تتبين المصدر المتحرك لذلك النور أبدًا، لأنه في ذات نفسها... كذلك حال الرجل السعيد، فهو يدرك تأثيره على الآخرين، ولكنه يجد صعوبة في إدراك سعادته، ويجد مزيدًا من الصعوبة في التنبؤ بها.

***

ولعل من الأسهل الوصول إلى حقيقة الأمر بإحصاء العقبات التي تعترض سبيل السعادة.

فهناك، بادئ ذي بدء، الفقر والمرض، وهما يحلقان في الهواء بأجنحة سوداء، وهما أكثر المصائب إثارة للرعب، وكلما تكررت زياراتهما كثيرًا، أصبح غير نافع فيهما سوى القليل جدًا من أنواع العلاج.

ومن السهل، ولكنه من غير المفيد، أن يتظاهر المرء ويدعي، على نحو ما فعل بعض الفلاسفة، أن الألم مجرد كلمة، وهم يقولون في ذلك: "إن الألم الماضي لم يعد له وجود، وآلام الحاضر لا يمكن تمييزها،

وآلام المستقبل ليست معنا بعد"، وهذا في الواقع غير صحيح، فالرجل يستطيع بمحض إرادته أن يفرق بين الفترات المختلفة من وجوده، وتذكر آلام الماضي يجعل من آلام الحاضر عبئًا يتزايد على الدوام.

ولا شك في أن الرجل القوي يستطيع أن يصارع الألم، ولقد قاسى "مونتاني" أهوال مرض أليم جدًا، واحتمل ذلك بشجاعة فائقة، ولكن، ماذا يفعل الرجل الحكيم، أو القديس، إذا كانت حياته لا شيء سوى آهة عذاب؟.

لقد استطاع الفيلسوف "ديوجين" ألا يكترث بالفقر، حيث كان لديه دفء الشمس وطعامه وشرابه، وكان وحيدًا في الحياة، فماذا كان يحدث لو أنه كان رجلاً متعطلاً من العمل، يعول أربعة أطفال، في مدينة طقسها بارد، لا يمكن الحصول فيها على الطعام إلا في مقابل النقود؟ هنا تجثم النكبة الحقيقية، ومن الإهانة تقديم عزاء الفلسفة إلى قوم يشعرون بآلام البرد والجوع، فهم إنما يحتاجون إلى الطعام والحطب.

على أن هذه الحالات المتناهية من الفقر والمرض، لا ينبغي الخلط بينها وبين الحالات المخففة التي هي برغم ما فيها من الآلام، أهون احتمالاً إلى أبعد حد، والتي لا تضع في طريق السعادة عقبات يستحيل تذليلها.

ولقد أصاب بعض الفلاسفة حين ميزوا بين مطالبنا الطبيعية الضرورية– كالطعام والشراب– وبين مطالبنا الطبيعية غير الضرورية،

فهناك فقر حقيقي وأمراض حقيقية تبعث على أشد الرثاء، ولكن في العالم من مرضى الوهم بمقدار ما فيه من المرضى حقًا وصدقًا، وبعضهم يعتقدون أنهم مرضى، وآخرون يصيبون أنفسهم بالمرض.

وعندما كان "مونتاني" يشغل منصب العمدة في مدينة "بوردو" كان يقول لمواطنيه: "إنني على استعداد لأن أضع قضاياكم بين يدي، لا في كبدي ولا في رئتي".

وفي العالم فقر موهوم كما أن فيه مرضًا موهومًا، وتصريح المرء بأنه عاثر الحظ، لأن أزمة يتأثر بها الجميع قد أنقصت دخله المالي، هو إهانة لأولئك الذين هم فقراء حقًا، ما دام لديك سقف فوق رأسك، وطعام تأكله، وملابس ترتديها.

ولقد حدثني بعض أصدقائي مرة عن خادمة أقدمت على الانتحار فلقيت حتفها، لأنها اضطرت إلى الانتقال إلى غرفة لم تجد فيها مكانًا لقطعة من الأثاث عزيزة عليها– وهذه حالة أخرى من حالات النكبات الموهومة.

ويأتي الفشل بعد الفقر والمرض، الفشل في تحقيق ما يصبو المرء إلى تحقيقه، والفشل في الحب، ونحن نرسم الخطط للمستقبل، فلا نلبث أن تفسد علينا، وتنهار آمالنا، نحن نريد أن نكون محبوبين، ولكننا لا نحظى بالحب، فلا تلبث الغيرة أن تسمم ليالينا وأيامنا، ونحن نرجو الحصول على عمل والنجاح فيه، وأن نسافر، ولكننا نفشل في ذلك.

وهنا ينتصر الفلاسفة الزهاد بسهولة، لأن معظم هذه النكبات موهومة، فهناك آراء متعارضة، لماذا يحزن الرجل إذ يستحيل عليه تحقيق مطامحه؟ هل السبب في ذلك أنه يعاني ألمًا جسديًا؟ كلا على الإطلاق، فالسبب هو أنه يتذكر عيوبه التي أسفرت عن فشله في الماضي، ويسائل نفسه عما إذا كان نجاحه في المستقبل سيفسده كيد منافسيه، وإذا هو– بدلاً من التفكير فيما كان من احتمالات المستقبل– حاول أن يصل إلى إدراك دقيق يحدده له تحديدًا دقيقًا، فماذا تكون النتيجة؟ حالة ترضيه تمامًا عن شئونه في جميع الظروف على وجه التقريب، وإنه ليسرني أن أرى ذوي المتاعب الوهمية وقد اتبعوا طريقة القديس "أغناطيوس"، وهي تكوين صورة ذهنية واضحة لأهدافهم، دون تشويه.

لقد كان من ودك أن تتولى منصب المحافظ في بعض الولايات، ولم تنجح في ذلك، فما عسى أن تكون النتيجة؟.

لن تكون مرغمًا أن تقابل طول النهار أشخاصًا تفضل ألا تقابلهم، ولن تكون مرغمًا على حمل أعباء مئات من الأمور لم يتسع وقتك لدراستها بإمعان. ولن يعارضك قوم يكنون لك العداء ويدسون أنوفهم في خاصة شئون حياتك ويكشفون عن آثام لم تقترفها، وسوف ترغم على أن تحيا حياة وادعة وتستمتع بأوقات فراغك، وتعيد قراءة كتبك المفضلة، وإذا كنت ميالاً إلى المخالطة، أمكنك أن تتجاذب وأصدقاءك أطراف الحديث... هذا هو ما يسفر عنه فشلك إذا استعنت بشيء من الخيال، فهل هذه نكبة؟.

لقد كتب "ستندال" يقول: "الليلة، أشعر بشيء من الضيق، لأن اثنين من مرءوسي قد رقيا إلى وظيفتين كبيرتين في حين لم أحصل أنا على أي ترقية، على أنني أعلم أنني كنت خليقًا بأن أصاب بمزيد من الضيق لو أنني أرغمت على دفن نفسي مدة أربع أو خمس سنوات في جحر حشروا فيه ستة آلاف ساكن".

إذا استطاع الرجال أن ينظروا إلى أحداث حياتهم نظرة أوسع أفقًا، فإنهم لا يلبثون أن يكتشفوا في كثير من الأحيان أنهم لم يرغبوا حقًا في الأشياء التي فشلوا في الحصول عليها، وهناك فرق كبير بين الرغبات التي يتحدث عنها الناس، كقول بعضهم: "إنني أريد أن أتزوج... أن أصير عضوًا في مجلس الشيوخ... أن أرسم صورة رائعة"، وبين الرغبات الفعلية الملحة التي تستنفد كيان المرء كله.

وهذه الرغبات الأخيرة تعلن وجودها في صورة عملية، وإذا لم تكن الرغبة غير معقولة ومستحيلة التحقق، فإن تحقيقها كثيرًا ما يتم بفضل المثابرة الكافية، فالرجل الذي يرغب في الحظوة بالتكريم يحظى بالتكريم، ومن يريد أصدقاء يظفر بالأصدقاء، والمرأة التي تريد غزو القلوب تغزو القلوب، ولقد رغب بونابرت في شبابه في السلطة، وكانت العقبات في سبيله إلى إدراكها تبدو مستعصية على التذليل، ولكنه قد تمكن من تذليلها.

ولا شك في أن هناك حالات يستحيل فيها النجاح بسبب الظروف الملابسة، فليس من السهل تحريك الكون، وكثيرًا ما تكون الصعوبة كامنة في الرجل نفسه. فهو يظن أنه يرغب في الوصول إلى نتيجة معينة، ولكن قوة داخلية تجذبه في الاتجاه المضاد.

وما أكثر المرات التي سمعت فيها من الكتاب أنهم يريدون أن يؤلفوا كذا وكذا من الكتب، إذا لم يحل دون ذلك نوع الحياة التي يحيونها! ولو أنهم كانوا صادقي الرغبة في تأليف تلك الكتب، لأقدموا على تغيير نوع حياتهم، ويمكن العثور على دليل ينطق بقوة إرادة "بلزاك" ومدى تفانيه في عمله، في نوع الحياة التي كان يحياها، أو في أعماله نفسها، على وجه التحقيق.

وفي الكتاب العاشر من جمهورية أفلاطون، نزل الأرمني "آر" إلى مدينة الموتى تحت الأرض، واكتشف كيف تعامل أرواحهم:

"عندما حضر "آر" هو والأرواح، كان عليهم أن يتوجهوا فورًا إلى "لاشيسيس" ولكن جاء نبي قام أولاً بتصنيفهم وفقًا للنظام، ثم تناول من حجر "لاشيسيس" أنصبة وعينات من الحياة، ثم صعد إلى مكان مرتفع ومضى يقول: اسمعوا كلمة لاشيسيس، ابنة الضرورة، أيتها الأرواح الفانية، انظري إلى دورة جديدة من الحياة الفانية، لن يقع عليكم اختيار عبقريتكم، ولكنكم سوف تختارون عبقريتكم بأنفسكم، وليقم الأسبق منكم أولاً، باختيار الحياة التي ستكون مصيره المحتوم، إن الفضيلة

منحة بلا مقابل، وبقدر ما يكرمها الرجل أو يهدر كرامتها، يزيد نصيبه منها أو ينقص، ومن يختر يتحمل مسئولية اختياره، ولا لوم على الرب.

"وبعد أن فرغ المترجم من الحديث بعثر فيما بينهم الأنصبة، فتناول كل منهم النصيب الذي وقع قريبًا منه، ماعدا "آر" نفسه، إذ لم يكن مسموحًا له بذلك. وبعد هذا عرف كل منهم العدد الذي حصل عليه. ثم وضع المترجم أمامهم عينات الحياة، وكانت هناك حيوات تزيد كثيرًا عن عدد الأرواح الحاضرة، كما كانت هناك أنواع من الحياة، كل حيوان وكل إنسان في كل حالة.

وكان من بينها طغيانات استمر بعضها بينما كان الطاغية نفسه على قيد الحياة، في حين تحطم بعضها في وسط الطريق، وانتهى أمره إلى الفقر والنفي والتسول. وكانت هناك حيوات رجال مشاهير، وبعض من اشتهر بفضل الهيئة والجمال، كما اشتهروا بفضل القوة والنجاح في الألعاب، أو بفضل المنبت الحسن ومزايا أسلافهم، وبعض ما كانوا على النقيض من الشهرة، بسبب صفاتهم العكسية، ومن النساء كذلك، على أنه لم يكن لهن أي شخصية معينة، لأنه لا بد من أن تتغير الروح على نحو ما يلاءم الحياة التي يقع عليها الاختيار، ولكن كانت هناك كل الصفات الأخرى، وقد اختلطت جميعًا بعضها ببعض، كما أنها قد اختلطت أيضًا بعناصر الثراء والفقر، والصحة والمرض.

ولقد تقدم صاحب الاختيار الأول، وبعد لحظة وقع اختياره على الطغيان الأعظم، ولما كان عقله يسوده ظلام الحمق والفجور، فإنه لم يفكر في الأمر كله، ولم يتبين لأول وهلة أنه كان مكتوبًا عليه فيما كان مكتوبًا من أنواع الشرور الأخرى، أن يفترس أطفاله افتراس ضاريات الوحوش، ولكنه حين وجد في وقته متسعًا للتفكير، وعرف ماذا كان من نصيبه، راح يلكم صدره بقبضة يده ندمًا على سوء اختياره، غير عابئ بتعاليم النبي، لأنه بدلاً من أن ينحي باللائمة على نفسه في نكبته، أخذ بوجه الاتهام إلى الحظ والآلهة، وكل شيء آخر ما عدا نفسه".

ومن حق كل منا أن يختبر نصيبه، والرجل يصح عزمه على زواج امرأة معينة، بقصد تحسين وضعه الاجتماعي أو العملي، أو من أجل المال، ولكنه يعرف كما يعرف الناس جميعًا أنها امرأة من الطراز الثاني، لا الأول، وبعد شهرين أو ثلاثة أشهر، يجأر بالشكوى من غبائها... أو لم يكن يدرك هذا من ذي قبل؟ لقد كان ذلك في نصيبه.

وليس مما يقتضي قدرًا عظيمًا من الخبرة، اكتشاف أن البحث الجشع عن المال ينتهي بالرجل إلى الشقاء في كل الحالات على وجه التقريب، فلماذا؟ لأن هذا النوع من الحياة يجعلهم يعتمدون على أشياء في خارج أنفسهم، ولا أحد أكثر تعرضًا للأذى من الرجل الطموح، فإن حادثا لا يعلم شيئًا عنه، أو ملاحظة يعاد إبداؤها على نحو خاطئ، قد تكسبه عداوة رجل من أصحاب النفوذ، أو تحمل أمة على اضطهاده، وسيقول أنه قد كان ضحية الحظ العاثر، وأن القدر كان له بالمرصاد،

والقدر يقف بالمرصاد دائمًا لأولئك الذين ينشدون ربحًا لا يعتمدون في الحصول عليه على أنفسهم، ولقد كان هذا في النصيب أيضًا، والأقدار لا لوم عليها.

والجشع والطموح من أسباب الصراع بيننا وبين زملائنا في الإنسانية، وأسوأ من هذا إلى حد كبير، أن نكون في صراع مع أنفسنا، فنحن نشعر بالسعادة حين نستطيع أن نتأمل فعالنا بالأمس وفعالنا طوال حياتنا فنقول: "ربما كنت قد تصرفت بحكمة، ولعلي كنت مخطئًا، ولكنني لم أدخر وسعًا، وقد أخذت بآرائي الخاصة. وأستطيع أن أقول ما سبق لي قوله مرة أخرى، أما إذا كانت آرائي قد تغيرت، فإن في وسعي أن أعترف بغير خجل، بأن أخطائي كانت لها أسباب كثيرة مبررة، ترجع إلى إصغائي لمعلومات خاطئة، أو تقديري غير الصحيح". وعندما يوجد هذا الانسجام الداخلي، تختفي الحاجة إلى مناقشة النفس الأليمة.

وفي واقع الحياة، نجد أن الاتفاق مع النفس على هذا النحو أمر نادر، ففي كل منا كائنان: عضو في المجتمع، ومخلوق بشري مرهف الحس- رجل عاقل، وحيوان، ومن أشد الأمور تكديرًا للخاطر أن ندرك أننا فريسة لنزوات أنفسنا، وأننا لسنا على شيء من الحكمة إلا في جزء من حياتنا فقط، والاتفاق المنسجم بين المرء ونفسه غاية صعبة المنال، لأن كثيرًا من أفكارنا لها مصادر تختلف كثيرًا عن تلك التي نحب أن نعطيها لها، فنحن نتظاهر بأننا نتحدث حديثًا معقولاً، حين يكون حديثنا مجرد تنفيس عن أحقادنا القديمة بالجدل الزائف، والحجج الواهية.

ونحن نناصب العداء طائفة معينة من الناس، لأن واحدًا من أعضائها قد سبب لنا ضررًا جسيمًا، ونحن نرفض الاعتراف بمواطن الضعف هذه فينا ولكن ضميرنا يخبرنا بوجودها، ومن ثم نسخط على أنفسنا، فنشعر بالمرارة، ونصير أميل إلى العنف والاعتساف، ونهين أصدقاءنا لعلمنا بأننا لسنا الرجال الذين كنا نحب أن نكونهم، وهنا تتجلى أهمية عبارة سقراط المعروفة "اعرف نفسك". ولكي يظهر الرجل الذكي بهدوء النفس، يجب عليه قبل كل شيء أن يتجرد من جميع ما يشوه التفكير من الأهواء والذكريات.

ومن أسباب التعاسة الأخرى: خوف الأخطار، ولا أعني بهذا أن أخطارًا معينة ليس ثمة ما يبررها، بل هي ضرورية لا غنى للمرء عنها، والرجل الذي لا يحرص على اجتناب طريق سيارة مسرعة، يلقى حتفه بسبب افتقاره هذا إلى الخيال البصري، والأمة التي لا تخاف جيرانها المسلحين الذين يناصبونها العداء، لا تلبث أن تصبح أمة مستعبدة.

ولكن المحاولة لا تجدي على الإطلاق، إذا كانت خاصة بأحداث لا يمكن التنبؤ بوقوعها، ولقد عرفنا جميعًا رجالاً يسرفون في اتقاء المرض إلى درجة تحطم حياتهم، والرجل الذي يخاف ضياع أمواله، يتصور الوسائل المتعددة التي سيدركه بها الخراب، ويحرم نفسه السعادة الراهنة استعدادًا للنكبات التي لو حلت به فإن قصارى ما تصنع أن تنحدر به إلى الحالة التي وصل به خوفه إليها.

والرجل الغيور يتكهن بمقابلات خطرة بينه وبين رجال آخرين ينافسونه في المرأة التي يحبها، وينتهي الأمر بأن يقضي على حبها له بوسواسه الأحمق، وبذلك يتسبب في حدوث الكارثة التي كان يخشاها.

الألم الذهني الحاد الذي يسببه الخوف يزيد من انعدام جدواه لأن التوقع عادة يكون أسوأ من الحقيقة الواقعة إلى حد كبير، فالمرض مخيف، ولكن الخوف منه يخفف وطأته عما يوحي إلينا بأن نتوقعه من مشاهدة المصابين من زملائنا، لأن الحمى وتعود المرض يخلقان نحو ما يحدث، جسدًا آخر يتأثر بطريقة مختلفة.

والكثيرون منا يخافون الموت، ولكن لا يمكن أن يكون شيء مما نتصوره عن وفاتنا حقيقيًا، فنحن ندرك أننا قد نموت فجأة، كما أن أعراض الموت في الحالات الطبيعية، تكون لها أحوالها البدنية المختلفة، المتفقة معها، وإني قد فقدت الوعي، ولكن ما أذكره عن الثواني القليلة التي سبقت وقوع الحادث مباشرة، لم يكن مصدر ألم، وأنا أعرف رجلاً مثله كمثل الأرمني "آر"، من حيث أنه قد عاد من مدينة الموتى، أعني أنه قد غرق فعلاً ثم عادت إليه الحياة، وقد صرح بأن "موته" لم يكن أليمًا.

وما تتصوره عن المستقبل يكون زائفًا في كل الحالات على وجه التقريب. فنحن نتصور وقوع نكبات مستقبلية، من وجهة نظر رجال

يعيشون في الحاضر. والحياة عسيرة كما هي، فلماذا نضيف إلى عسرها عاملاً يبعث على الإدراك الحزين؟.

في بعض المسرحيات الشهيرة منظر تدور حوادثه على ظهر باخرة كبرى: يقف زوجان شابان يقضيان شهر العسل إلى جانب سياج الباخرة، وتصل إلى مسامعنا ألحان تعزفها فرقة موسيقية، ويبتعد كلاهما عن الآخر قليلاً، فيظهر زورق من زوارق النجاة مكتوب عليه اسم الباخرة بأحرف ظاهرة "تايتانك"... وبالنسبة لنا نحن المتفرجين، يصير المنظر محزنًا، لأننا نعلم أن الباخرة التي اسمها "تايتانك" لن تلبث أن تغرق، ولكن ممثلي الرواية لا يشعرون بشيء سوى الاستمتاع بمساء جميل آخر، ولو أنهم كانوا يخافون حدوث كارثة، لكان لخوفهم ما يبرره، ولكن ذلك الخوف كان من شأنه أن يفسد عليهم جمال ساعتهم دون جدوى، وكثيرون من الناس يفسدون حياتهم بتوهم وقوع كارثة بين لحظة وأخرى، والناس لديهم ما يكفي من البلاء إلى أن يحل يومه.

والضجر عند الأثرياء الكسالى، من أكثر أسباب التعاسة انتشارًا، والناس الذين يجدون مشقة في كسب القوت قد يقاسون آلامًا هائلة، ولكنهم في مأمن من الضجر، والأثرياء من الرجال والنساء يستولي الضجر على أنفسهم عندما يعتمدون على المسرح في متعتهم، بدلاً من أن يجعلوا حياتهم نفسها جديرة بالاهتمام.

والمسرحيات تساعد على تهيئة السعادة لمن يكون لحياتهم شيء من القيمة، لأن مواهبهم الخلاقة يوقظها المسرح، فالرجل العاشق يستمتع بالرواية الغرامية الهزلية، لأنها تتصل بحياته الخاصة، ورجل الدولة حين يشاهد رواية "يوليوس قيصر"، تطير به أحلامه إلى مكتبه، ولكن دور المتفرج إذا صار دورًا دائمًا، أي إذا لم يكن المتفرج ممثلاً يؤدي دوره على مسرح الحياة الواقعية، فإن الضجر يكون له بالمرصاد، وسرعان ما يصير فريسة ألوان موهومة من المخاوف: اختبارات للنفس لا تنتهي، وأسف على الماضي الذي لا يمكن استرجاعه من جديد، ومخاوف من المستقبل المجهول.

***

ومن الغريب أن كثيرين من الرجال يجدون متعة مريرة خبيثة، في التصريح بأنه لا يوجد أي علاج لهذه النكبات الحقيقية والموهومة، فهم ينعمون بمتاعبهم، ويعاملون كل من يحاول مساعدتهم معاملة عدائية، ولا شك في أنه، في غضون الأيام الأولى من الحداد على ميت عزيز، أو وقوع أي كارثة أو فاجعة لم يكن هناك ما يبرر وقوعها، يكون الألم في كثير من الأحيان فوق طاقة العزاء، ولا يكون في وسع الأصدقاء أن يفعلوا شيئًا أكثر من أن يشعروا بالفجيعة صامتين متجلدين.

ولكن، ألسنا جميعًا نعرف محترفات الحزن من النساء اللائي يبذلن كل ما في وسعهن كي يحافظن- بفضل المظهر الخارجي المفتعل- على أحزان كانت خليقة بأن يسمح للزمن بإزالة آثارها؟.

وإني لأشعر بالرثاء لأولئك الذين يتشبثون بأهداب ماض لا يمكن استرجاعه، في حين أن حزنهم لا يؤثر في أحد غيرهم، ولكنني أنكر عليهم أشد الإنكار أن أجدهم يأملون- ببث الدعوة إلى اليأس- أن يثبطوا همم من هم أصغر منهم سنًا وأكثر حظًا من الشجاعة، أولئك الذين يتوقعون السعادة من الحياة.

وهذا النوع من السلوك ينبغي أن يكبح جماحه، فالحزن الحقيقي يكشف عن نفسه على نحو لا يمكن اجتنابه، حتى حين تبذل الجهود لإخفائه كيلا تتأثر به سعادة الآخرين، ولقد رأيت مرة، في جماعة من الرفقاء المرحين، شابة كانت الشخصية الرئيسة في مأساة فاجعة، وكان صمتها، وابتسامتها المغتصبة، يفصح حقيقة شعورها باستمرار، ولكنها بفضل شجاعتها قد أظهرت هدوءًا مصطنعًا كان سببًا في إمكان استمتاع رفقتها باجتماعهم.

وإذا عجزت ذاكرتك عن العمل إلا بمساعدة العزلة غير الطبيعية والانتخاب كل يوم، كان معنى ذلك أنها قد فقدت دقتها، والطريقة المثلى لتكريم الأصدقاء الذين ماتوا، هي معاملة من لا يزالون على قيد الحياة من أصدقائنا بمودة مماثلة.

ولكن كيف يتصرف المرء إزاء ما قد يسيطر عليه من الأوهام؟ وماذا عسى أن يحميه من شر هذه الحالات الذهنية العاتية التي تستولي علينا حتى في المنام؟.

إن الطبيعة تتكفل بتقديم أيسر أنواع العزاء منالاً، فللبحر والجبال والغابات تأثير مهدئ، بسبب الفرق بين عظمتها وسكينتها، وبين ضآلتنا، وكثيرًا ما يكون من بواعث ارتياحنا في أشد لحظاتنا حزنًا، أن يرقد المرء وحيدًا بين الأعشاب تحت ظلال الأشجار، ويمكث على تلك الحال نهارًا بأكمله.

وفي أعمق أحزاننا تكون هناك دائمًا بعض الالتزامات الاجتماعية، وإذا نحن حجبنا أنفسنا عنها بعض الوقت فإننا بذلك نقلل من تعرضنا للألم، وهذا هو السر في أن الأسفار علاج ناجح للآلام النفسية، فإن المرء إذا بقي في الجو الذي حدث له فيه المكروه، فإن أوهامه تثار باستمرار، وذكرياته تتزاحم مقتربة إليه.

والموسيقى عالم آخر يستطيع المتألم أن يلجأ إليه فرارًا من آلامه. فالموسيقى تستولي على الروح استيلاء تامًا، وكثيرًا ما تكون كجدول يتدفق ماؤه فيعبر ثنايا العقل فينقيها، أو هي بمثابة أمر الاستدعاء لآلامنا لا يلبث أن يضعها موضعها الصحيح على نحو يشبه الإعجاز، وفي مقابل كل عبارة تذكرنا بها توجد عبارة أخرى تخفف من وطأتها، وهذا الحوار الصامت الذي لا تفكير فيه، والذي يؤدي بنا آخر الأمر إلى

توطيد العزم، لنا فيه عزاء، والموسيقى– بما فيها من أنغام بينة تسم معالم سير الزمن– تخلصنا من أفكارنا الخاطئة عن دوام العذاب النفسي.

"إنني لم أجرب قط حزنًا لا أنجح في علاجه بقضاء ساعة في القراءة"... عبارة شائعة، وإن كنت لا أفهمها تمامًا، فإنني أعجز عن تخفيف ما ينتابني من الحزن الحقيقي بالقراءة، ولا أستطيع في مثل تلك الحالات أن أحصر اهتمامي في كتاب أقرأه، فالقراءة تتطلب عقلاً غير مشغول، وأعتقد أنها يمكن أن تلعب دورًا نافعًا في فترة النقاهة النفسانية، ولا يمكن التخلص من الآلام الموهومة إلا بالقيام بمزيد من الأعمال الدقيقة التي لا يمكن أن يكون أداؤها مصحوبًا بعدم الاكتراث: كالكتابة، أو تشغيل آلة دقيقة، أو السير في مسالك محفوفة بالخطر، والتعب الجسدي مستحسن لأنه يجلب النعاس.

"لا فائدة في شيء من هذا كله". بهذا يهتف الخبير في حزن، ويستطرد قائلاً: "إن أدويتك ضعيفة ولا تأثير لها، فلا شيء يستطيع أن يوقظ اهتمامي بالحياة، ولا يستطيع أن ينسيني حزني".

كيف هذا؟ هل جربت هذا العلاج؟ ينبغي على الأقل أن تقوم ببعض التجارب، قبل أن تنتقص من قيمة نتائجها، فهناك تدريبات تمهد الطريق إلى السعادة، وإن كانت لا تسفر عن سعادة إيجابية.

اجتنب قضاء الساعات الطوال في التفكير في الماضي، ولا أعني بهذا أن التفكير ليس من الحكمة، فكل قرار هام يجب أن يسبق اتخاذه

تفكير، فإذا كان التفكير متصلاً بغاية معينة، فإنه لا يمكن أن ينجم عنه أي ضرر، ولكن الشيء الضار هو التفكير الذي لا ينتهي في بعض الخسائر، أو الإهانات، أو الإساءات، وبالاختصار، في شيء يستحيل علاجه.

يقول المثل الإنجليزي: "لا تبك على اللبن المراق". وينصحنا "دزرائيلي" بألا نفسر شيئًا أو نشكو شيئًا أبدًا، ويقول "ديكارت": لقد تعلمت كبح جماح رغباتي، وألا أحارب قوانين العالم، وأن أؤمن بأن ما لا يمكن إدراكه هو بالنسبة إلي مستحيل تمامًا.

والعقل يجب تنظيفه وتجديده من حين إلى حين، ولم أعرف قط واحدًا من الرجال العاملين حقًا يكون غير سعيد وهو يؤدي عمله، وكيف يمكن أن يكون كذلك؟ فهو كالطفل حين يلهو، يكف عن التفكير في نفسه حين يؤدي عمله.

يقول الفيلسوف المعاصر "برتراند رسل": أنه حين يقرأ مؤلفات أصدقائه أو يصغى إلى أحاديثهم، يكاد يؤمن بأن السعادة مستحيلة في دنيا العصر الحديث. على أنه يجد أن هذه الفكرة خرقاء، حين يتحدث إلى البستاني الذي يتولى شئون حديقته، فالبستاني يرعى ما في الحديقة من الخضر والدواجن، ويعرف عمله وحديقته خير المعرفة، ويعرف كذلك أن محصوله سيكون عظيمًا، وهو فخور بذلك.

وهنا نجد نوعًا واحدًا من أنواع السعادة، مكافأة كل فنان عظيم، وكل رجل خلاق، وبالنسبة إلى الأذكياء من الناس، كثيرًا ما يكون العمل بمثابة فرار من التفكير، ولكنه فرار معقول بل حكيم "إن من يريد دون أن يفعل، إنما يربي الفساد". وللمرء أن يقول أيضًا: "إن من يفكر دون أن يفعل، إنما يربي الفساد".

والتفكير الذي لا يؤدي إلى شيء ينطوي على خطر، ورجل العمل لا تزعجه تناقضات الدنيا وتعقيدات الحياة، فهو يتقبلها على نحو ما تجئ، ثم تبني المجموعة نفسها بنفسها، ومن جهة أخرى ينظر الجمود إلى انحلال الكون الظاهر نظرته إلى شيء يدعو إلى الأسف... أسف مصطنع تمامًا.

والعمل نفسه لا يكفي، فإن على المرء أن يعمل في انسجام مع المجتمع الذي هو جزء منه، وحالة الصراع الدائم مجلبة للإعياء، وهي تجعل العمل شاقًا، بل مستحيلاً في بعض الأحيان.

اختر جماعة من الناس لتعيش بين ظهرانيهم، بحيث تكون جهودهم متفقة الاتجاه مع جهودك، وحيث يكون نشاطك موضع الاهتمام، وبدلاً من أن تعيش في صراع مع أسرتك التي تعتقد أنها لا تفهمك، ومن تحطيم سعادتك وسعادة الآخرين على صخرة ذلك الصراع، ابحث عن أصدقاء لهم تفكير يتفق مع تفكيرك، فإذا كنت رجلاً متدينًا، فعش بين قوم متدينين، وإذا كنت رجلاً ثائرًا، فعش مع رجال من

نوعك، فما زال في وسعك أن تقنع المتشككين، ولك سند في هذا من أولئك المتفقين معك في الرأي.

وكثيرون من الناس يعتقدون خطأ أن المرء لكي يكون سعيدًا، يجب أن يكون متمتعًا بإعجاب واحترام عدد كبير من الناس، ولكن تقدير الدائرة المحيطة به ضرورة لا غنى عنها، فلقد كان "استيفان ملارمبه" موضع حب عميق من أتباع قليلين، ولكنه كان أوفر حظًا من السعادة من رجل من المشاهير يعلم أن سمعته ليست فوق مستوى الشبهات عند أولئك الذين يكنون له الإعجاب.

ولقد أدخلت حياة الدير السكينة إلى عالم من الأرواح لا يحصى، بفضل وحدة الفكر والهدف.

ولا تجلب على نفسك الشقاء بتصور المآسي البعيدة التي لا يمكن التنبؤ بها، فمنذ أيام قابلت في حدائق "التويلري" رجلاً تعسًا مبتئسًا، حيث كان الأطفال يلهون ويمرحون، وحيث النافورات الجميلة وأشعة الشمس الساطعة.

كان يسير تحت الأشجار وحيدًا حزينًا، ويفكر في نكبات مالية أو حربية قال أنه يتوقع حدوثها في غضون عامين، وقد قلت له: "أمجنون أنت؟ بحق الشيطان– من يدري ماذا عساه يحدث في العام القادم إن الحياة شاقة، وما أقل اللحظات التي نعيشها في هدوء، ولكن المستقبل لن يكون بحال مصداق تشاؤمك الحزين، فلتسعد بالحاضر، ولتكن

كهؤلاء الأطفال المرحين الذين يطلقون زوارقهم ذات الشراع البيضاء في البحيرة، قم بواجبك، ودع الباقي بين يدي الله".

ومن الواضح أنه يجب التفكير في المستقبل في ضوء قدرة المرء على التأثير في مجرى الأحداث، ورجل العمل لا يمكن أن يكون قدريًا، فالمهندس المعماري يجب أن يفكر في مستقبل البيت الذي يبنيه، والعامل يجب عليه أن يتخذ من الاحتياطات ما يكفل له شيخوخة مطمئنة غير محتاجة، وعضو المجلس النيابي عليه أن يدرس الآثار المحتملة التي قد تسفر عنها الميزانية التي ينوي التصويت في جانبها، ولكن يجب أن يستعيد الإنسان هدوء عقله بمجرد الفراغ من اتخاذ القرارات والإجراءات، ومن العبث محاولة التنبؤ بالأشياء دون أن تكون هناك وسيلة إلى ذلك.

وعندما يكون الإنسان مستمتعًا بالسعادة فعلاً، يكون من الأهمية بمكان ألا يفقد شيئًا من العوامل الصالحة التي ساعدته على إدراكها، فكثير من النساء والرجال ينسون الاحتياط عندما ينجحون، كما ينسون كذلك التواضع واللطف، وكلها كانت عوامل فعالة قادت خطواتهم إلى النجاح: فهم شديدو الكبرياء أو قليلو التفكير، وتحول ثقتهم المسرفة دون اضطلاعهم بالمهام الشاقة، ومن ثم لا يلبثون أن يصبحوا غير جديرين بما قدر لهم من حسن الحظ، وهم يدهشون عندما ينقلب حظهم من حسن إلى سيء.

ولقد كانت عادة تقديم الضحايا والقرابين زلفى إلى الآلهة في الزمن القديم تلمسًا للسعادة، عادة لها مبرراتها، ولقد أقدم "بوليقراط"، طاغية "ساموس" على إلقاء خاتمه الثمين في البحر قربانًا، وهناك طرق عديدة لإلقاء خاتم "بوليقراط" في البحر، وأبسط الطرق: التواضع.

على أن وسائل تلمس السعادة هذه، ليست من ابتكارنا، فهي معروفة، وقد نودي بها منذ عهد الفلاسفة المفكرين، وكان قدماؤهم من الزهاد وطلاب المتعة على السواء، ينصحون بأن يستسلم المرء لقضائه، ويتواضع في رغباته، ويحيا الحياة التي تلائمه، ولقد كانت هذه فلسفة "ماركوس أوريليوس"، وفلسفة "مونتاني" أيضًا. وهي كذلك فلسفة الحكماء من المعاصرين لنا.

على أن عدو الحكمة ما يلبث أن يهتف: "ماذا؟ هذا التسليم بقضاء سقيم؟ هذه السعادة التافهة؟ عدم الرضا بحياة محفوفة بالمخاطر؟ هذا الخمول؟ أهذا كل ما تعطوننا؟ إننا لا نريد السعادة، بل نريد البطولة".

"إنك على شيء من الحق، يا عدو الحكمة، وسأحاول الآن أن أوضح أن السعادة ليست خمولاً، بل متعة، وأنت تخطئ إذا كنت تظن أن الحكمة نفسها ضرب من صراع البطولة، والخضوع للأحداث التي لا صلة بينها وبين أعمالنا لا يعني سوى أننا نستسلم لأنفسنا، ونحن نرضى بالبحر وعواصفه، وعن الجماهير المحتشدة وعواطفها الملتهبة، والرجل

وكفاحاته، والجسد وحاجاته، لأن هذه إنما هي عناصر المعضلة، وإذا نحن لم نرض عنها، كان ذلك من شأن عالم غامض موهوم.

ونحن نؤمن بقدرتنا على تغيير العالم على نحو ما، غير ذي بال: كأن نقود سفينة في عاصفة، ونسيطر على جمهور محتشد، وفوق كل شيء، أن نغير ما بأنفسنا. وليس في وسعنا أن نزيل كل أسباب المرض، أو الهزيمة، أو التحقير. (ولا تستطيع ذلك أنت أيضًا) ولكننا نستطيع أن نجعل من المرض والهزيمة والتحقير، فرصًا متاحة لإحراز النصر واكتساب الهدوء".

يقول نيتشه: "إن الرجل لا يتوق إلى السعادة مع استثناء الإنجليز". ويقول في موضع آخر: "إنني لا أريد السعادة، بل أريد أن أؤدي عملي". ولكن لماذا لا ينشد الإنسان السعادة وهو قائم بأداء عمله؟ إن السعادة ليست الراحة، ولا البحث عن المتعة، ولا الكسل، وأشد الفلاسفة صرامة ينشدون السعادة كما ينشدها الناس جميعًا، ولكن بطريقتهم الخاصة.

والحكمة هي مجرد خطوة أولى في طريق السعادة، وهي تمهيد الطريق بفضل تخليصها العقل من عذابه الذي لا يجدي شيئًا، وهي تخرس المناقشة التي لا تنفع في مشاعر تافهة إلى أبعد حد، وبعد أداء هذه الرسالة، يمكن أن توجد السعادة.

ولكن، ما عسى أن تكون هذه السعادة؟.

إنني على يقين من أنها خليط من الحب ولذة الخلق- وهذا هو نسيان النفس. ويمكن أن تكون للحب لذة في أشكال شديدة التباين، تبدأ بحب يتبادله مخلوقان من البشر، وتنتهي بحب الإنسانية الذي أبدع في وصفها الشعراء.

والشخص الذي لم ينفق الساعات، أو الأيام، أو السنين، مع شخص آخر يحبه، لا يستطيع أن يعرف ما هي السعادة، لأنه عاجز عن أن يتصور معجزة طويلة المدى كهذه- معجزة تصنع من المناظر والأحداث العادية حياة حافلة بأروع السحر، ولقد كان "ستندال" ممن أدركوا حق الإدراك تشابه الحب والسعادة.

وأحب أن ألفت النظر هنا إلى فصل ورد في قصة "رحيق بارما"، ووصف فيه المؤلف مدى سعادة "فابريس" في سجن مدينة "بارما". فهو مهدد بخطر الموت، ولكن هذا شيء لا قيمة له ما دامت أيامه يسطع فيها النور كلما رأى "كليليا" رؤية خاطفة، إنه لسعيد.

ماذا يفعل حب امرأة بشاب مثل "فابريس"؟ وماذا يفعل حب الأمومة بالأم، وحب الزملاء بالزعيم؟ وماذا يفعل بالفنان حبه لعمله؟ وماذا يفعل حب الله بالقديس؟.

في اللحظة التي ننجح فيها في نسيان أنفسنا تمامًا، في اللحظة التي نضيع فيها من أنفسنا بفضل دافع روحاني، لا نلبث أن نعثر على أنفسنا في وجود آخر غير وجودنا، ونجد أن الأحداث التي لا تعني ذلك الوجود الآخر، وقد أصبحت ولا أهمية لها، "إذا كانت المرأة غير راضية، فإنها تنشد الترف، ولكن المرأة التي تحب رجلاً ترضى بالنوم على لوح من الخشب".

ومن الحقائق أن الرجل إذ يمنح حبه هكذا لكائنات ضعيفة مرهفة، يصبح أكثر تعرضًا للأذى، ومن يكن الحب الشديد لامرأة، أو لأطفاله، أو لبلاده، إنما يعطي القدر رهائن، ويعرض نفسه للعذاب منذ ذلك الحين حتى ما شاء الله، حتى وإن كان صحيحًا معافى واسع النفوذ، ويصبح عليه أن يطلب الرحمة، حتى إن كان شجاعًا صلبًا يصبر على المكاره، فلقد أصبح في قبضة القدر، وبات عليه أن ينظر- والقلق يكوي جوانحه- إلى مرض أولئك الذين يحبهم حباً حانيًا، وذلك عذاب أعظم إيلامًا مما يسببه له أي مرض يصيبه هو، لأن قواه البدنية سليمة تمامًا.

وإنه ليريد أن يمد يد المساعدة ولكنه يشعر بالعجز عن ذلك، وهو يود لو أسلم نفسه بدلاً من رهائنه الغالية العزيزة، ولكن المرض- بدافع من كبريائه وطغيانه- يختار ضحاياه دون إشفاق، وهو على الرغم منه يشعر بأنه جبان وخائن، لمجرد أنه نجا من الخطر، وهذا أقسى ما يحيق بالإنسانية من عذاب.

ماذا نعلم الآن عن حكمة الزهد؟ أولا تزعم لنا هذه الحكمة، أن من الجنون أن نصل أقدارنا كل هذا الوصل الوثيق، بأقدار مخلوقات بشرية ضعيفة تكاد تؤذيها خطرات النسيم؟ أو لم يرفض "مونتاني" أن يتولى شئون زملائه المواطنين، بكبده ورئتيه؟ أجل، ولكن "مونتاني" قد تألم كثيرًا حينما كان الضحية "لابويتي". ولا سبيل إلى إنكار وجود هذا الصراع، والحكمة المسيحية أكثر عمقًا من حكمة الفلاسفة الزهاد، لأنها تضع هذا موضع الاعتبار.

والحل الوحيد الذي لا تشوبه شائبة، هو أن يضع المرء حبه حيث يكون متأكدًا من البقاء، ومن هنا تنشأ السعادة الدائمة التي لا ينال منها شيء، بين الأتقياء المخلصين من الناس.

غير أن الغريزة الإنسانية تجعلنا نخالط البشر، ولا ينبغي أن يبخل أحد بالثناء على الحكمة في الحالات الكثيرة التي لا شأن فيها للحب، فهي تخلصنا من توهم النكبات، وتقضي على المخاوف غير المجدية، وتصر إصرارًا نافعًا على الكفر بوجود آلام ما هي إلا كلمات وحسب.

ومن أعظم العقبات في طريق السعادة، سخف الرجل العصري– بعقله المزدحم بالمبادئ والتعاليم غير الواضحة– عندما يحاول إعادة الاتصال بينه وبين المشاعر الحقيقية، والحيوانات وقليلو التمدين من الناس، يظفرون بالسعادة على نحو أشد قربًا من نواميس الطبيعة، لأن رغباتهم أكثر بساطة وصدقًا، في حين أن الرجل المتمدين، وهو ببغاء قد

استبعدته ثرثرتها، لا يكف عن تطعيم نفسه بأنواع من الحب والبغض لا يشعر بشيء منها في واقع الأمر.

وفي هذه الفوضى التي تنبعث منها الكثير من النكبات الموهومة، يستطيع الفنان أن يساعدنا على استرجاع المشاعر الحقيقية أكثر مما يستطيع الفيلسوف. فالمعرفة الروحية وحدها سواء كانت معرفة بالفن أو الحب أو الدين، هي التي تجلب الاستقرار والهدوء والسعادة.

والفنان الذي يحاول أن يظفر بالجمال في منظر طبيعي، والذي يبدو أن نظرته تنطلق كالسهم في اتجاهه حتى لا يفوته شيء من تفاصيله يشعر بالسعادة الشاملة وهو يؤدي عمله.

وقد شرح "دكنز" في "أنشودة عيد الميلاد"، كيف أن رجلاً أنانيًا طاعنًا في السن قد عثر على السعادة بعد زمن، لأنه سمح لنفسه بأن يحب عددًا من الناس، ومن طريقهم استطاع أن يتخلص من رذيلته الكبرى.

وكلما نظرنا نظرة خاطفة إلى وحدة الكون العجيبة، حين تصبح التلال الساكنة، والأشجار بحفيف أوراقها، والعصافير المنطلقة في الفضاء، والحشرة التي تدب على زجاج النافذة – حين يصبح كل هذا، فجأة، جزءًا من حياتنا، وتصبح حياتنا جزءًا من العالم المحيط بنا، فإننا نكون مدركين في ومضة من الإلهام، ذلك الحب للكون الذي يسمو عن الاستسلام له سموًا عبرت عنه "أناشيد المسرات".

"هل تريد أن تعرف سر السعادة؟". لقد ظهر هذا السؤال منشورًا في صحيفة "التايمز" منذ عدة سنوات، وكل من تصدى للإجابة قد تلقى مظروفًا يحتوي على قصيدتين من شعر "سان مانيو": "اطلب، ولسوف تعطى ما طلبت، ابحث وسوف تجد، واقرع الباب، وسوف يفتح لك: فكل من يطلب يتلقى، ومن يبحث يجد. والباب يفتح لمن يقرعه". والواقع أن هذا هو سر السعادة.

ولقد كان عند القدماء نفس الفكرة، في صورة أخرى، حين زعموا أن "الأمل" قد ترك في قاع صندوق "باندورا" عندما هربت منه الشرور جميعًا.

والباحث عن الحب يجده، والمتفاني في الصداقة بغير تحفظ يصادف الأصدقاء، ولا يجد السعادة سوى من يتمناها بكل قلبه.

ونحن في باكورة حياتنا نضع الأسئلة في صيغة يتعذر الرد عليها "كيف أستطيع العثور على الرجل الكامل الجدير بحبي، أو الصديق الصدوق الجدير بثقتي؟ أين أجد القوانين التي تكفل السلام والسعادة لوطني؟ أين وفي أي عمل أنال السعادة لنفسي؟"... ليس في وسع أحد أن يرد على أولئك الذين يعرضون مشاكلهم على هذا النحو.

فما هي الأسئلة التي ينبغي توجيهها؟ "أين أستطيع أن أعثر على شخص فيه مثل مواطن ضعفي، ولكنني أستطيع معه أن أبني مخبأ يحميني من الدنيا وتغيراتها، بفضل نوايانا السليمة؟ ما هي المميزات

العسيرة الاكتساب، التي لا غنى عنها لحياة أمة؟ لأي الأعمال ينبغي أن أكرس وقتي وجهدي حتى أنسى مخاوفي وندمي؟ أخيرًا، ما هو نوع السعادة التي سيقدر لي الظفر بها، ومن هو الشخص الذي سيهيئها لي حبه؟".

على أنه ليس في شئون الآدميين توازن دائم، وإذا كان الإيمان، والفن، والحكمة، تعين الإنسان على الاحتفاظ بالتوازن وقتًا ما، فإن المؤثرات الخارجية وأهواء الروح لا تلبث أن تقضي عليه، ومن ثم يتعين على الإنسان أن يتسلق الصخرة من جديد، بنفس الطريقة، وهذا الاضطراب من حول نقطة ثابتة، هو الحياة، والتأكد من وجود مثل تلك النقطة، هو السعادة.

وكما أن الحب الجارف العنيف، إذا أقدم المرء على تحليل لحظاته المنفصلة، تبين له أنه عبارة عن خلافات بالغة الصغر، يتولى تسويتها الإخلاص على الدوام... فكذلك الحال في السعادة، إذا حللها الإنسان إلى عناصرها الهامة، وجد أنها تتألف من صراعات وأحزان، وأن الأمل يتولى إنقاذها على الدوام.

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة– ص. ب رقم ٤٩٣

السيد هاشم علي نحاس

المملكة العربية السعودية

إنجلترا:

THE ARABIC PUBLICATIONS

M. Migu .٧Bishopsthrope Road

London S.E. 26

ENGLAND

***

البرازيل:

M. Miguel Maccui Cury.

B. 25 de Maroc994,

Caixa Postal 7406،

Sao Paulo. BRASIL.



تعريف بالمؤلف

أندريه موروا من أشهر كتاب فرنسا وأقربهم إلى القلوب بسبب ما امتاز به أسلوبه من وضوح وظرف وبلاغة وعمق وفهم لأسرار الحياة، وكتابه هذا "فن الحياة" من أمتع ما كتب وقرأناه له، فهو كتاب يصل بقارئه إلى لباب الحياة ويريه أن كل شيء في هذه الحياة فن: الأكل فن والنوم فن والعمل فن والحب فن، أي أن الإنسان يستطيع الارتفاع بمستوى إحساسه واستمتاعه بكل مظاهر حياته إذا هو عرف السبيل إلى ذلك.

وأندريه موروا في هذا الكتاب يأخذ بيدنا ويرينا ناحية الفن في كل مظهر من مظاهر الحياة، حتى الشيخوخة يجد لها فنًا يمكن الإنسان من أن يستمتع بها ويتجنب متاعبها، الكتاب فصله الأول عن فن الحب، فإن فيه من الدقة يطرب النفس حقًا، وسترى صفحات هذا الكتاب تمر بك عادية ومع ذلك فأنت تستطيع أن تجعلها ناحية الفن فيها.. لهذا اخترنا هذا الكتاب القيم الجيد لكي تظهر ضمن سلسلة كتاب الهلال..



الفهرس

مقدمة ٥

فن الحب ٧

فن الزواج ٤٥

فن الحياة العائلية ٨٥

فن الصداقة ١١٣

فن التفكير ١٣٩

فن العمل ١٧٢

فن الزعامة ٢١٣

فن الشيخوخة ٢٥١

فن السعادة ٢٨٩

تعريف بالمؤلف ٣٢٠